A U B LIBRARY

A. U. B.
DISCARDED
LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

A U B LIBRARY

CA
953
B869A
v.1
c.1

كارل بروكلمان

تاريخ الشعوب الإسلامية

١

العرب والإمبراطورية العربية

AUB faculty or related publication

نقله الى العربية

الدكتور نبيه أمين فارس
رئيس دائرة التاريخ
في جامعة بيروت الاميركية

منير البعلبكي
استاذ الادب العربي
بكلية البنات الاهلية في بيروت

دار العلم للملايين - بيروت

الطبعة الأولى
حزيران ١٩٤٨
بيروت

مقدمة الترجمة العربية

●

ليس بين المعنيين بالدراسات العربية والاسلامية من يجهل الاستاذ كارل بروكلمان ، المستشرق الالماني الشهير ، وكتابه في تاريخ الادب العربي، ذلك الأثر القيم الذي لايستغني عنه باحث في هذه الناحية من التراث الاسلامي .

والواقع أن لبروكلمان كتاباً آخر لا يقلّ عن كتابه ذاك شأناً وقيمة ، إن لم يَفقهُ . ذلك هو « تاريخ الشعوب الاسلامية » الذي أخرجه للناس عام ١٩٣٩ ، والذي يُسعدنا ان نقدمه اليوم إلى قراء العربية .

ولعلنا لا نعدو جانب الحقيقة إذا قلنا إن أحداً من المؤرخين، من شرقيين ومستشرقين ، لم يسبق العلاّمة بروكلمان إلى مثل هذا الكتاب الجامع الذي يستغرق بين دفتيه تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا . فقد عهدنا المؤرخين يستهلون مؤلفاتهم بالجاهلية ليختموها بسقوط بغداد في يد المغول سنة ١٢٥٨ أو بالفتح العثماني عام ١٥١٦ ، ومن هنا كان تاريخ العرب والاسلام إبان العصر العثماني بخاصة هو الحلقة المفقودة في هاتيك الكتب جميعاً . وكأننا ببروكلمان قد أدرك هذه

الواقعة الـــتي لا مبرر لهـا عنـــد معظم من عُنوا بالتأريخ للعرب والمسلمين إلا غموض تلك الحقبة ووعورة البحث في مجاهلها، فأفرد نحواً من مائة وخمسين صفحة من كتابه هذا لدراسة التاريخ العثماني والحضارة العثمانية ، ليُتمّ السلسلة بعدُ بدراسة الاسلام في العصر الحديث .

ولقد قسم بروكلمان كتابه الى ابواب خمسة :

١ – العرب والامبراطورية العربية . (وينتظم تاريخ العرب منذ أقدم العصور حتى سقوط الامويين) .

٢ – الامبراطورية الاسلامية وانحلالها . (وينتظم الخلافة العباسية ، ونشوء الدويلات المستقـــلة ، والاسلام في الاندلس وشمالي إفريقية ، والحروب الصليبية ، ودولة المماليك) .

٣ – الاتراك العثمانيون. (ويشمل التاريخ العثماني حتى مطلع القرن التاسع عشر ، والحضارة العثمانيـة في أوج الامبراطورية ، والصراع العثماني الفارسي) .

٤ – الاسلام في القرن التاسع عشر . (وهو يدرس العلاقات بين الامبراطورية العثمانية ومصر ، والحياة الفكرية فيهما جميعاً ، واحوال شمالي افريقية ، والسودان ، وإيران ، وافغانستان ، في ذلك القرن) .

٥ – الدول الاسلامية بعد الحرب العالمية . (ويبحث في التاريخ الحديث لكل من تركية ، ومصر ، وبلاد العرب ، وسورية ولبنان ، وفلسطين ، وشرقي الاردن ، والعراق ، وايران ، وافغانستان).

ولقد آثرنا أن نُخرج كلّا من هذه الأبواب في جزء برأسه ،

بعد أن خصصنا لكل جزء فهرساً مستقلاً للاعلام، تسهيلاً للمراجعة وزيادة في الفائدة . أما لائحة المراجع المفصلة ولائحة الأحداث التاريخية الرئيسية فقد ارجأناهما إلى الجزء الأخير .

وكان من الطبيعي أن نُدخِل على الكتاب بعض الاضافات التفسيرية ،وهي تظهر في المتن محصورةً بين مُعقّفين [ ] ، وفي الهامش مُرفقةً بالنص على أنها من وضع المعربين. أما الهوامش التي وضعها المؤلف أصلاً فقد قيدناها برقم متسلسل .

وإذ كان في الكتاب بضعة آراء خاصة بالمؤلف تتنافى أحيانا مع وجهة النظر الاسلامية ، فقد عهدنا بالتعليق عليها إلى زميلنا الدكتور عمر فروخ ، استاذ الفلسفة في كلية المقاصد الاسلامية في بيروت ، وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق ، فله منا أجزل الشكر .

ولسنا في حاجة إلى القول إن هذا لا يفيد، بالضرورة ،موافقتنا المؤلف على ارائه الباقية جميعاً ، لأننا لم نستهدف بالتعليق الا تلك الآراء التي تتصل بحياة الرسول وتعاليم الاسلام .

المعربان

من مقـــدمة

الاصـــل الالماني

●

لا تزال كتابة تاريخ الشعوب والدول الاسلامية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ضرباً من المحاولة الخطرة ، لأن مصادر مثل هذا التاريخ لم تصبح بعد في متناول الباحث ، ولم تخضع بعد للتحليل النقدي . وليس بمجرؤ فردٌ واحد على النهوض بهذا العبء . ومع ذلك فمن الخير ، في ما يبدو ، أن نقدم للمعنيين بمسائل السياسة الدولية نظرة طائر عن مصاير المسلمين التي تتشابك اليوم باحداث العالم على العموم باكثر مما تشابكت في أي وقت مضى ، والتي لا يمكن ان تُعرض إلا عرضاً ابتر ناقصاً في كتب المراجع ، وتواريخ العالم العامة .

ولقد حاولت ان اقدم الى قراء هذا الكتاب ، بالاضافة الى التاريخ السياسي ، لمحة عن الحياة الثقافية والفكرية بقدر ما يسمح به مجال هذه الصفحات المحدودة .

وليس من شك في ان الخرائط الاولية التي يجدها القارىء في هذا الكتاب لا يمكن ان تغني عن الاطلس التاريخي الذي لا تزال الدراسات الاسلامية مفتقرة اليه . وانما قصـــدنا بها الى ان نبرز

للقارىء الخطوط الكبرى للرقعة التي انبسط فيها هـذا التاريخ وازدهر ، ليس غير . أما لوائح المصادر فلم نضمنها إلا المراجع الحديثة الاكثر اهمية ، ولكننا اشرنا ، ههنا وههناك ، اشارات مباشرة الى بعض الدراسات المفردة في الهوامش . ولست في حاجة الى القول لزملائي المتخصصين إنهم يجب ألا يتوقعوا في هذا الكتاب لوائح شاملة بمصادر التاريخ الاسلامي . ومهما يكن من امر فانهم سيدركون في غير ما صعوبة الى اي العلماء انا مدين ديناً كبيراً ، ومع ذلك فأحب الا اغفل الاشارة بخاصة الى آثار ولهاوزن J. Wellhausen و كَيْتاني L. Caetani في ما يتصل بتاريخ العرب ، وآثار بارتولد W. Barthold ومينورسكي V. Minorsky في ما يتصل بآسية الوسطى ، وآثار ويتّك P. Wittek عن الامبراطورية العثمانية .

بلاد العرب قبل الإسلام

•

بلاد العرب ، او « جزيرة العرب » كما يدعوها سكانها أنفسهم ، تشكل جيولوجي اولي في جنوب غربي آسية تبلغ مساحته مليون ميل مربع تقريباً . فمنذ الدور الجوراسي كان المحيط الهندي العميق والخليج الفارسي يفصلانها عن الهند وفارس اللتين لا يزال تركيبهما الجبلي بارزاً في منطقة عُمان الساحلية . وفي الزمن الثالث فصلت بلاد العرب عن شمالي افريقية بظهور البحر الاحمر ظهوراً مفاجئاً ارتفع بسلسلة جبال السراة الغربية (التي يبلغ علو احد جبالها ، النبي شُعَيب ، الواقع غربي العاصمة اليمنية صنعاء في الجنوب) اكثر من ١٢،٣٠٠ قدم . وأمام هذه السلسلة تمتد سهول تِهامة الساحلية نحواً من ثلاثين ميلاً ، ويعرف قسمها الشمالي مع البلاد الجبلية بالحجاز . وتتميّز هذه السلسلة الجبلية التي تحيط بالساحل بتلك الفطور المتعارضة الظاهرة في بعض نواحيها ، والتي احدثتها فيها براكين كانت في وقت مضى تنفث حِممها النارية التي تؤلف اليوم هذه الطبقة من الارض المعروفة بالحرّة . ولهذه السلسلة نتوءان يتجهان نحو الشرق وينفذان إلى السهول الواقعة شمالي المدينة ،

هما جبلا أجأ وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمّر . والواقع أن هذين الجبلين يخترقان بادية الشام التي تمتدّ حتى مستنقعات دجلة والفرات في الشرق ، والنجاد الكلسية ، السورية الفلسطينية ، في الغرب ، كما يخترقان فرع هذه البادية الجنوبي ، النّفود ، من مرتفعات نجد الوسطى ، وهي النجاد الصحراوية الكبرى التي تتألف من الصخر البدائي المغطى بالحجر الرملي ، والتي تنحدر الى الخليج الفارسي في الشرق . وإنما يفصل نجداً عن آكام عمان الجبلية ، الواقعة على الساحل الجنوبي الشرقي ، صحراء رملية كبيرة تدعى الرُبع الخالي ، وهي التي اخترقها اول مرة برترام توماس في شباط ١٩٣١ ، ثم اخترقها من بعده سنجرن فيلبي بين كانون الثاني وآذار سنة ١٩٣٢ . وليس في هذه البيداء من الأودية ذات المياه إلا عدد قليل كوادي سرحان في الشمال ، ووادي الرُمّة ووادي الدواسر في الجنوب ، وهي اهم هذه الأودية جميعاً . وفي فصل الأمطار تمتلىء الاودية بالمياه التي قد تجتمع لتؤلف رافداً متفرعاً ، ثم ما تلبث أن تجفّ في أغلب الأحوال بعد أن تضفي ، على الاقلّ ، بعض الخصب على البقاع التي تشربتها . وقد تنشأ عن ذلك في بعض الاحيان (على ما نرى في تيماء وخيبر على طرف المناطق الحرارية الواقعة في الشمال الغربي) بضع برَك دفينة تتفجر منها بعدُ آبارٌ عميقة تساعد على زراعة النخيل . والواقع ان فيلبي قد وجد في واحة الأفلاج بحيرة يبلغ عرضها اربعمائة متر ، ويبلغ طولها الفاً ومئتين وخمسين متراً . ولكن هذه الاجسام المائية قد تكون مُضرّة احياناً . ولعلّ منطقة اليمامة في جنوبي نجد ، التي كانت لا تزال

مزدهرة عَهْدَ النبي محمـــد ، إنما خربت بسبب كارثة من كوارث الفيضان .

والمناطق الجنوبية ، حيث تُفرغ الرياح الموسمية امطارهـــا على سفوح السلسلة الجبلية ، هي المناطق الوحيدة التي يمكن ان تقوم فيها زراعة رابحة ، او بَسْتَنَة ناجحة ، من طريق توفير المياه وحسن تصريفها . اما البوادي الشمالية ، في ما عدا الواحات ، فلا تقدّم من اسباب الحياة الى البدو الرحّل — الذين ينتجعون بمواشيهم مواطن الكلأ النابت بعد هطول الامطار — غير الهزيل الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع . ومن المتعذّر ان نقرر ما اذا كان مُناخ بلاد العرب ، كما استنتج بعضهم ، كان اكثر اعتـــدالا خـــلال التاريخ ، ثم انتهى مع الايام الى جفـاف تدريجي ، أم لم يكن .

الجنس العربي

وسكان شبه الجزيرة — العرب — هم الممثلون الرئيسيون لما دعاه اويغن فيشر Eugen Fischer الجنسَ الشرقيّ ، الذي يمتاز بالرأس الطويل والوجـــه الضيّق والأنف الأقنى وبنتوء مؤخرة الجمجمة نتوءاً شديداً ، كما يمتاز بالقـامة المربوعة والبِنْية المهزولة دائماً . انه ضرب من جنس البحر المتوسط السائد في شمال إفريقية . ولقد اختلط العرب ، في الشمال ، بالجنس المعروف بجنس الشرق الادنى الذي ساد في وقت من الاوقات في آسية الصغرى وفي غربي النِجاد الايرانية ايضاً ، والذي حُفظ في اصفى اشكاله بين الارمن

المعاصرين الذين يتميزون بالانحدار الشديد في مؤخرة الجمجمة ، وبالانف الضخم المتقوّس . ولا بد ان يكون هذا الجنس ، في ما يظهر ، قد انتشر في زمن ما في اتجاه الجنوب لأننا نقع منذ القِدَم على خصائصه المميزة عند العرب اليمنيين . وابتداء من الالف الثالث قبل الميلاد شرعت جماعات من شعوب الجزيرة العربية تندفع نحو الشمال في فترات من القحط بالغة الخطورة . فاذا بالبابليين يغْشَوْن العراق ويقتبسون فيه ثقافة السومريين ، واذا بالكنعانيين واليهود والآراميين يهبطون سورية وفلسطين ، ويستعيرون ، مع الفينيقيين ، ثقافة الجنس المعروف بجنس الشرق الادنى ، ذلك الجنس الذي اورثهم كذلك بعض صفاته الجسمانية . أما لغتهم ، التي ندعوهم من اجلها ساميين ، فقد احتفظت بخصائصها الرئيسية التي يربطها بالعربية نسَبٌ وثيق ، على الرغم مما طرأ عليها من تعديل كبير .

حضارة بلاد العرب الجنوبية

وفي جنوبي بلاد العرب ، حيث كان المناخ اكثر ملاءمة لزراعة ، ازدهرت منذ الالف الثاني قبل الميلاد حضارة راقية قامت على اساس الزراعة والتجارة . وفي الحق ان السدود المنشأة لخزن المياه وتصريفها ، والمدن المحصنة ، والقصور والهياكل القائمة في تلك الاصقاع لا تزال الى اليوم تشهد على ما كان يتمتع به بُناتُها من الصناعة الزاهرة ، وما كانوا يتحلّوْن به من التقوى والنزعة الاجتماعية . أما حياتهم الفكرية ، فيؤخذ من النقوش التي خلفوها أنها لم تتعدّ

وضع مجموعة من القوانين التي نظمت شؤون الملكية العقارية وغيرها عندهم تنظيما دقيقاً . وما ان أطلّ الألف الثاني قبل الميلاد حتى كان المَعينيون ، من قبائل العرب الجنوبية ، قد توسّعوا في مستعمراتهم التجارية بعيداً نحو الشمال . وعقبتهم سَبَأ فأنشأوا مملكة تعتمد على الأسر الارستوقراطية المتنفّذة ، وبذلك حالوا دون نشوء أيّ سلطة مركزية قوية. ثم خَلَفَ من بعدهم خلفاؤهم ، الحميريون ، الذين ما عتّموا أن فقدوا مصدر ازدهارهم الرئيسي عندما تحوّل قسمٌ من تجارتهم الهندية إلى مصر إبّانَ الحقبة الهيلينية ، وان كانوا لا يزالون ، في سنة ٢٤ ق.م . ، قادرين على التخلص من الخضوع لتأثير الامبراطورية الرومانية السياسيّ بعد أن اخفقت محاولة ايليوس جالّوس لأخضاعهم لسيطرة الامبراطور اوغوسطوس . والواقع أن اليهودية قد وُفقت إلى أن تكسب نفوذاً في امبراطوريتهم ، فترة من الزمان ، حتى لقد اعتنقها بعض حكامهم واضطهدوا المسيحية ، فعلَ ذي نُواس المتوفى سنة ٥٢٥ وعلى الرغم من ذلك استطاعت المسيحية أن تَثبُتَ للخطوب ، وبخاصة في نَجْران ، حتى ظهور الاسلام . أما سقوط الدولة الحميرية النهائي فقد تمّ على يد الحبشة ، التي سبق لأسلاف الحميريّين أنفسهم ان استعمروها في وقت من الاوقات . فهناك كان النصر قد عُقِد للمسيحية منذ القرن الرابع . وفي سنة ٥٣٠ ق.م. سار الحاكم الحبشيّ أبرهة – بتحريض من بيزنطة التي كانت تتوق إلى الاشتباك بعدوّتها القديمة ، فارس ، في الجنوب أيضاً – إلى بلاد العرب الجنوبية فاستولى عليها واندفع لمهاجمة

الفرس في الشمال ، ولكنه لم يوفّق للتقدّم إلى مـــا وراء مكة . ومهما يكن من أمر ، فقد استولى على البلاد ، بعد أربعين عاماً ، أحدُ قوّاد الملك الساساني ، كسرى الأول ، (أنوشروان) بعد أن عجز ابن أبرهة وخليفته الثاني عن الدفاع عنها ؛ وهكذا ظلت بلاد العرب الجنوبية ولايةً فارسية إلى أن فتحها المسلمون .

الاحوال الاجتماعية في شمالي الجزيرة

فاذا انتقلنا إلى بلاد العرب الشمالية وجـــدنا الصحراء ، التي تؤلف معظم البلاد ، هي التي تقرّر الأحوالَ الاجتماعية [1] . ذلك أن مراعيها الشتيتة لا تكفي إلا لأقاتة المواشي الصغيرة والجمـــل الذي تشبَع حاجاته ورغباته في سهولة فائقة ، والذي يجد فيـــه العربيّ قِوام طعامه ولباسه . وإذ كانت العنـاية بهذا الحيوان لا تمكن إلا بالرحلة والضّرب في المناطق النائية فقد صار كل تنظيم سياميّ قائم على الاستقرار في السّكنى أمراً متعذّراً على البدوي . والصلة الدموية وحدها هي التي تُعيّن الفَلَك الذي تضطرب فيه حياة البدو . فهي تربط الأسرَ بالعشائر ، والعشائر بالقبـــائل . وحتى الشعوب لا تزال تعيّن انسابها بواسطة قرابة دموية مزعومة تجمع الشعب كله في نظام نسَبيّ يشبه نظام الانساب عند اليهود القدماء . ولكنّ هذا الشعور الاجتماعي لا ينتظم الشعب كله ؛ إنه يمتدّ من العشيرة التي تشمل الأسر القريبة الضاربة خيامها جنباً إلى جنب ،

(١) انظر ولهاوزن J. Wellhausen , *Ein Gemeinewesen ohne Obrigkeit* , Rede zur Feier des Geburtstages S. Majestât am 27. Januar 1900, göttingen .

إلى القبيلة التي تعدّ بضعة آلاف نفس وتجوب البراري معاً في طلب المرعى . وكل من يجترىء على التقدّم إلى منطقة قبيلة غريبة إنما يعرّض نفسه للقتـــل أو السلب على يد اولئك الأغراب الذين لا يَعُدُّون أن يكونوا أعداءَه . وهو لن ينجو من مثل هذا المصير إلا إذا وُفّق إلى أن يلمس ثياب عدوه أو خيمته ، أو أن يدخل عليه منزِلهُ . وقد تُمنح هذه الحمـــاية للمسافر الغريب طوعاً وعن طيب نفس ؛ وقد يضمّ أحد أفراد القبيلة رجلاً غريباً إلى عشيرته ضمّاً لا انفصام له . وبذلك يكون في مقدور القبيلة أن تتمثّل جماعاتٍ كبيرة ، تُعتبر في أول الأمر دخيلةً ، حتى إذا انقضت بضعة أجيال مُنحت جميع حقوق الصلة الدموية .

والبدويّ كائنٌ فرديّ النزعة مُفرط الأنانية ، قبل كل شيء . ولا تزال بعض الاحاديث تسمح للعربي الداخل في الاسلام ان يقول في صلاته : « اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً » * . ومع ذلك فالجميع متساوون ، ضمن اطار القبيـــلة ، في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية الدموية . فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه في الملمات ، وليس له ان يتساءل أهو ظالم ام مظلوم . وليس من شك في ان هذا الواجب يقع ، باديء الامر ، على عاتق العشيرة التي يعنيها الامر ، فلا تنبري القبيلة كلها لمناصرتها الا إذا كانت العشيرة ضعيفة قليلة الحول . ولكن هذا المجتمع القائم على اساس المساواة والحرية العامة يتكشف ، مع ذلك ، عن نزعـات

* البخاري — ادب : ٢٧ ، ابو داود — طهـارة : ١٣٦ ، صـلاة ١٤٩ [المعربان]

متعددة نحو تركز السلطة . وانما ترتضي العشائر أو القبائل لزعامتها رجالاً استطاعوا بسجاياهم وكفاءاتهم ان ينتزعوا اعتراف الناس بتقدمهم ، عن رضاً وطيب نفس . وعلى الرغم من ان هذه المرتبة كثيراً ما تنتقل من الاب الى الابن ، فيتعين على هذا الاخير أن يحققها لنفسه بأن يقيم الدليل ، مستقلاً ، على شدة بأسه وقوة مراسه . وليس لهؤلاء الزعماء (الاسياد) حقوق فعلية على الاطلاق ، وان تكن نزعة الناس الى الاستماع لهم في المجالس العامة ، اقوى من نزعتهم الى الاستماع لغيرهم . أما واجباتهم فهي ، على العكس ، كبيرة متعددة . انهم في حال الحرب خليقون بان يكونوا أبداً على استعداد للتضحية بارواحهم ، وهم في حال السلم خليقون بان يضحوا بما تملكه ايديهم في خدمة القبيلة وابتغاء إغاثة المعوزين من افرادها . ولكن مهمتهم الرئيسية ان يحافظوا على وحدة القبيلة ، التي كثيراً ما تتهددها المصالح الشخصية باعظم الاخطار .

والخلافات التي قد تنشب بين اعضاء القبيلة الواحدة على ملكية شيء ما ، تسوّى في المجالس اليومية . اما حين ينشب الخلاف بين افراد ينتسبون الى قبائل مختلفة فيلجأ المختصمون الى رجل مشهود له بالتعقل والحكمة ، أو الى امرأة عَمّتْ لها هاتان الميزتان ؛ وكثيراً ما يكون الحَكَم في هذه الحال كاهناً أو عرّافاً . ولكن حُكم الحَكَم لا يكون ملزماً للمختصمين الا إذا ارتضاه الفريقان ، او حتّمه تفوق احدهما على الآخر في قوته وبأسه . ولما كان زعماء القبيلة انفسهم لا يملكون القوة التنفيذية ايضاً ، فقد انعدم عند البدو وجود القانون الجنائي ، وصار من الضروري ان يفزع كل فرد الى

استخلاص العدالة من قاتل نسيبه او سالبه ، بالطرق الشخصية . ما اذا عُثر على احد البدو مقتولاً بيد مجهولة في منطقة احدى العشائر ، ووقعت الشبهة على احد افرادها فعندئذ تقسم العشيرة الايمان على براءته . وقد يُجرح صدق هذا القسم ويبطل فعله بقسم آخر تقسمه عشيرة القتيل . وانما تقع تبعة الثأر للقتيل على عاتق اقرب الناس اليه . وإذ كانت عشيرة الجاني تنزع في الاعم الاغلب الى ان تنصره ، فقد يتولد عن الانتقام للدم ثأر جديد لا يلبث ان يتطاول، في كثير من الاحيان، فيستغرق اجيالاً تتجدد فيها المنازعات وتسفك الدماء . صحيح ان جريمة الدم قد يكفر عنها بالديات يقدمها اهل القاتل جمالاً ونياقاً الى اهل القتيل ؛ وصحيح ان من واجب الزعماء في القبيلة ان يعملوا على ايجاد تسوية بين المتخاصمين، من دون ان يملكوا حق فرضها عليهم ، ولكن العشائر كثيراً ما لا تنتهي الى الاخذ بهذه التسويات الا بعد ان تكون قد تفانت ودقت بينها عطر مَنْشِم ... أما اذا اسلم القاتل ، طوعاً لا كرهاً، الى الفريق الآخر ليُنزل فيه انتقامه ، فعندئذ لا يبقى مجال للثأر ، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة فهي تفضل ان تقتل الجاني على ان تسلمه طوعاً ويلحق بها العار . إن حاسة الشرف السامية هذه التي تَسِمُ جميع اعمال البدوي هي الاساس الذي ينهض عليه صرح الاخلاق عنده .

مكة والمدينة

وعلى العموم فقد كان هذا القانون الصحراوي نفسه موضع

التنفيذ ايضاً في مدن الحجاز : الطائف ، ومكة ، والمدينة . ففي هذه المدن كانت العشائر المختلفة ، كما كان البدو في خيامهم ، تعيش عيش الحرية والاستقلال فلا تقرّ بالطاعة لأحد. وليس من شك في ان شعور الشرف الذي كان بالغ الحساسية في الصحراء ، قد وجد في مكة [٢] ما يخفف من غلوائه بعض الشيء ، بسبب من المصلحة العامة التي كانت للمكيين في الكعبة المقدسة ، ومن التجارة التي كانت تعتمد على ازدهارها . وإذ كان كل فرد من ابناء مكة معنياً بهذه الشؤون فقد كانت العلاقات الاقتصادية فيها اكثر تعقداً ، وتفوّق العشائر الغنية على العشائر الفقيرة اعظم مما كان في الصحراء. أما في المدينة ، حيث قامت موارد العيش الرئيسية على الزراعة والعناية بالنخيل فقد كانت الحياة الاجتماعية أمعن في السذاجة مما كانت عليه في مكة . حتى إذا آذن فجر الاسلام بالانبلاج كانت الثارات الدموية قد تعددت إلى درجة بعيدة ، حتى لقد صار الفرد لا يكاد يجرأ على مغادرة منطقته المحصنة من غير أن يعرّض نفسه لأشد الاخطار [٣].

سورية والانباط

أما في الشمال ، في بادية الشام ، فقد خضع العرب

(٢) انظر لامنس ، H. Lammens, *La République marchandise de la Mecque vers l'an 600 de notre ère*, Bull . de l'Inst. Egypt . 5 série, t. 4, p. 23— 54; *La Mecque à la veille de l'Hégire*, Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth, 1924; *La cité arabe de Taif à la veille de l'hégire*, 1922 .

(٣) انظر ولهاوزون ؛ J. Wellhausen, *Medina vor dem Islam Skizzen und Vorarbeiten, 4 Heft*, I, Berlin, 1889

لتيارات السياسة العالمية قبـــل اخوانهم عرب الجزيرة ، بزمن طويل [٤] . فمنذ عهد الملك الاشوري تغلاثفالاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٨ ق . م) كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجَوف تعاقبت على عرشها الملِكات ، وظلت خاضعة لنفوذ اشور حتى عهد اسرحدّون (٦٨١ - ٦٦٩ ق . م). ليس هذا فقط ، بل لقد جعل الملك البابلي نبونايدس (٥٥٦ - ٥٣٩ ق . م) مقره فترة من الزمان في واحة تيماء ، التي كانت قاعدة لحملاته على الغرب . ولقد وُجد في تلك الواحة نقش آرامي يرجع الى العهد الفارسي ، يدل على النظام الديني في تلك المدينة وما ينطوي عليه من كهنة وهيا كل وآلهـة خاصة بكل منها . وفي عهد الاخيمينيين المتأخرين نشأت دولة الأنباط ، التي سيطرت خلال العهد الهيليني على تجارة القوافل الناشطة بين بلاد العرب الجنوبية والمدينة ، والتي احتفظت باستقلالها ، بسبب من تقاعس خلفاء الاسكندر الكبير عن العمل لتحقيق مشروعـه الأخير القاضي بالاستيلاء على بلاد العرب بحراً ، من جهتي الشرق والغرب في وقت واحد . وكانت عاصمتهم سَلع أو البتراء ، وهي قلعة جبلية تقع على منتصف الطريق تقريباً بين البحر الميت ورأس الخليج العربي . ولا تزال آثار سلع الهامة والكتابات المختلفة التي نُقشت على قبورها المنحوتة في الصخر شاهدة الى اليوم عـــلى ما كان لها من حضارة زاهية . ولقد اصطنع الأنباط في هذه النقوش اللغة الآرامية التي كانت لغتهم الرسمية ، حتى في ظل الأخيمينيين .

(٤) انظر هـ. ديسو H. Dussaud, *Les Arabes en Syrie avant l'islamisme*, Paris, 1907.

واقتبسوا القاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين من الدول الهلينية المجاورة . فلما كان عهد الرومان لم يتعرض أباطرتهم لاستقلال الانباط بوصفهم حلفاء لهم ،وظلت الحال كذلك حتى عهد ترايان . وإذ كان الانباط قد وقفوا قبل ذلك موقفاً غامضاً إبان الفتنة اليهودية على عهد طيطوس ، فقد قضى الرومان على استقلال سلع سنة ١٠٦ م وضموها الى امبراطوريتهم فعُرفت عندهم باسم « المقاطعة العربية » . ولقد فُصلت المقاطعات المتحضرة عن الصحراء بسلسلة من الحصون كانت اقل مناعة على كل حال من السور المحصّن الذي قام في الشمال بين الراين والدانوب (٥) . وفي باديء الأمر تحوّلت تجارة سلع إلى بُصرى ، ومن هناك كانت القوافل تنطلق نحو قِدّسرين ، جنوبي لبنان ، وحمص ، والرّهاء والحَضْر في اتجاه الشمال والشرق .

تدمر

وكانت تدمر التي خَلفَت دولة الانباط اسعد حظاً من سابقتها . وكانت السيادة فيها للعرب ، على الرغم من ان الآراميين المتأثرين بالحضارة الاغريقية كانوا يؤلفون أغلبية السكان فيها . وفي اثناء

(٥) تجدر الاشارة هنا إلى ان الكلمات القليلة التي اقتبستها العربية عن اللاتينية ترجع كلها إلى أصل عسكري : فكلمة « strata » (التي تقابل كلمة « street » اي شارع في اللغة الانكليزية) هي الأصل للكلمة العربية « الصراط » ؛ وكلمة « castra » هي الأصل لكلمة « قصر » العربية (ومنها Alcazar الاسبانية) ، وكلمة « palatium » (Pfalz في الالمانية) هي الاصل لكلمة « بلد » العربية .

الحروب التي دارت بين رومة والبارثيين التزمت تدمر الحياد، فكانت خطة حكيمة زادت في قوتها ومنعتها. وهكذا استطاعت في عهد اوغسطوس ان تعزّز مركزها الاقتصادي، فأنشأت علاقات تجارية مع كثير من البلدان النائية كرومة، وداسية وبلاد الغال (فرنسة)، واسبانية. والواقع أن تدمر حظيت بعطف خاص من اسرة سفيروس الامبراطورية التي كانت نصف سامية. وفي عهد الامبراطور الكسندر سفيروس قويت أسرة يوليوس اوريليانس سبتيموس وتعاظم بأسها هناك. وابتداء من سنة ٢٦٠ م. خاضت تدمر حروباً ناجحة ضد الفرس، مكّنت مَلكها، أذَينة، من بسط سلطانه على سورية كلها. ليس هذا فحسب، بل لقد اعترف الامبراطور الروماني الضعيف غليينس باذينة امبراطوراً على المشرق. ولما توفي أذينة عام ٢٦٨ تولت امرأته زنوبيا، زمام الحكم من بعده، وظلت تُصرّف شؤون المملكة حتى سنة ٢٧٣، عندما دمّر الامبراطور اورليانوس مدينة تدمر. وليس من شك في أن نهاية زنوبيا المفجعة قد خلّفت في نفوس عرب الصحراء آثاراً بعيدة الغور. وفي الحق أن سيرة الملكة زنوبيا، كانت لا تزال تروى في عصور الاسلام الأولى، بعد أن تباعدت كثيراً عن اساسها التاريخي الصحيح.

دولة الغساسنة

وبالقضاء على تدمر انتهى عهد الدول العربية المستقلة في الشمال. ومن ذلك الحين صار الرومان، وخلفاؤهم البيزنطيون، قادرين

دائماً على أن يكسبوا عطف بعض العرب ويتخذوهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم في صد غارات البدو على المناطق المتحضرة . والواقع انهم اصطنعوا الغساسنة في الشام ، وكان اليهم حكم المناطق الواقعة شرقي الاردن . واشهر ملوك هذه الأسرة الحارث الخامس الذي جعله يوستنيانوس بطريقاً (اي قائداً) وانعم عليه « بالتاج » عام ٥٢٩ م ومنحه السلطة المطلقة على جميع العرب في شمالي سورية . ولكن هذه السلطة العريضة التي كانت للحارث الخامس لم تلبث أن تجزأت بعد وفاته فتوزعتها امارات صغرى متناثرة . حتى اذا انتصر اباطرة الروم البيزنطيين على الفرس تركوا حكم البلاد الى اهلها . ولم يوفق ملك غساني آخر الى اخضاع جميع السوريين العرب لسلطته العليا الا قبيل الفتح الاسلامي [٦] .

اللخميون

واتّبع الفرس ، اعداء الرومان التقليديون ، السياسة نفسها نحو العرب . والمفروض أن سابور الاول (٢٤١ – ٢٧٢) نفسه هو الذي عيّن عمرو بن عديّ ، من بني لَخْمْ ، ملكاً على العرب في العراق. ولكن النقوش التي وجدت على قبر امريء القيس ابنه ، في النمارة ، جنوب شرقي دمشق ، تدل في الظاهر على ان

---

(٦) انظر نولدكه : Th.Noldeke, *Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafnas, Abh. der Akademie der Wissenschaften* , Berlin 1887 .

وقد نقل الاستاذان الدكتور قسطنطين زريق والدكتور بندلي جوزي هذا الكتاب الى العربية بعنوان « امراء غسان » . [المعربان]

هذا الملك كان خاضعاً لنفوذ الرومان ، حوالي سنة ٣٢٨ م. أما خلفاؤه فقد جعلوا مقرّهم ، بوصفهم عمالاً للفرس ، في الحيرة الواقعة على نحو عشرة اميال جنوبي بابل الخربة . ولقد كان هؤلاء ابداً على حرب مع الغساسنة الذين استولى ملكهم المنذر على الحيرة حوالي ٥٧٥م ودمّرها. واعتنق أتباعهم المذهب النسطوري المسيحي فترة من الزمان ، في حين تعلقوا هم أنفسهم تعلقاً شديداً بمعتقداتهم الوثنية ، فلم يخرج عليها احدٌ منهم غير النعمان الثالث (٥٨٠-٦٠٢م) الذي اعتنق النصرانية ، ظاهراً على الاقل . ولكن النعمان الثالث هذا ، وهو آخر ملوكهم ، لم يكن سهل القياد ، فضاق الفرس به ذرعاً ، فاستدرجه كسرى الثاني إلى عاصمته المدائن ، وخلعه عن العرش . وما هي إلا سنوات حتى ظهرت نتائج هذا الصنيع ، فهاجم ثلاثة آلاف عربي المنطقة الفراتية ، سنة ٦١٠ م ، وهزموا الفرس هزيمة حاسمة في ذي قار . وليس من شك في ان زوال هذه الرقابة القوية عن الحدود قد يَسّر الفتح الاسلامي لتلك البلاد ايضاً في ما بعد .

الوثنية العربية

وكانت الحياة الدينية عند العرب ، كحياتهم السياسية ، في مستوى بدائي إلى أبعد الحدود[٧] . فلقد اعتقد العرب [الجاهليون] ، كغيرهم من الشعوب ذات الثقافة الدُنيا ، ان الطبيعة من حولهم

(٧) انظر ولهاوزن : J. Wellhausen , *Reste arabsichen Heidentums* , 2.ed., Berlin , 1897 .

مشحونة بقوى اعظم من قوى الانسان ،ولكن بالأمكان تسخيرها لخدمتهِ بطرائق خاصّة . حتى إذا ارتقى المستوى الديني عند العرب بعض الشيء ، تمثّلوا هذه القوى روحاً بشريّة ، ذات طاقات خطيرة ، فأصبحت في عُرفهم شياطين . والواقع أن الساميين اعتبروا الأشجارَ ، والكهوف ، والينابيع ، والحجارة العِراض ، على الخصوص ، مأهولة بالأرواح . ومن هنا قدّس العرب القدماء ضروباً من الحجارة في سَلْع وغيرها من بلاد العرب ، كما يقدّس المسلمون الحجر الأسود * القائم في زاوية من الكعبة ، في مكة . ولكن هذه العفاريت لم تكن تحظى عندهم بصفة القداسة إلا بعد أن تصرّح باسمائها للبشر ، على ما فَعَلَ يهوَه أمامَ يعقوب في حُلمهِ ببيت إيل . حتى إذا صرّح أحد هذه الشياطين ، باسمه صار في الامكان اللجوءُ إليه لجوءاً ذا غَناء . ومن طريق الشعائر الدينية ، التي تؤلّف التضحيةُ نواتَها ، ارتبطت الآلهة برباط دمويّ مع القبائل المقدّسة لها ، وأصبحت بمثابة الحامي

---

* إن استلام الحجر الأسود في الحج يرجع إلى اعتبار رمزي لا إلى تقديس للحجر نفسه . لما أعاد القرشيون بناء الكعبة اختلفوا على من يعيد الحجر الأسود إلى مكانه . ومر محمد « قبل البعثة » فدعوه إلى الفصل بينهم ، فأمر أربعة من رؤسائهم بأن يأتوا برداء ، ثم وضع الحجر بيده في وسط الرداء فحمله أربعة من رؤسائهم إلى قرب الكعبة ، ورفعه هو بيده ووضعه مكانه . ولقد وقف عمر بن الخطاب يوماً أمام هذا الحجر الأسود وقال : « إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع . ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » . فقيمة الحجر الأسود تاريخية لا دينية ، لأن تقديس الحجر مناقض لحقيقة التوحيد في الاسلام . [ع . ف .]

الذي تلوذ به القبيلة ، بل بمثابة جدّها وسيّدها الأعلى ؛ وبذلك لم يعد من الميسور تحقيق أصلها الأول بعد أن اضطربت الانساب واختلطت على هذا النحو . وكانت كل قبيلة تتعبّد لآلهها الخاص ، ولكنها كانت تعترف في الوقت نفسه بسلطان آلهة القبائل الاخرى في مناطقها الخاصّة . ومهما يكن من أمر ، فلم تكن الصلة بين القبيلة ، عند العرب ، وبين آلهها وثيقةً جداً كما كانت الصلة عند بني إسرائيل مثلاً ، بين يهوَه وشعبه . ولقد كانت بعض العشائر تتخذ أحياناً اسماء آلهة غير التي تدين لها القبيلة ، كما كانت بعض القبائل تشترك أحياناً في عبادة إله واحد . وكانت للآلهة مقامات ثابتة ، حتى إذا ارتحلت القبيلة ، قامت بخدمة المقام وعبادة إلهه القبيلةُ التي تحلّ محلها . وقد جرت العادة ان تزور القبيلةُ المرتحلة المقامَ مرّة أو مرتين في العام ، أيام الاعياد .

ولقد حظيت بعض الاماكن المقدسة بشهرة خاصة . فكانت القبائل المختلفة تحجّ الى عكاظ ، مثلاً ، والى مكة من مطارحَ نائية . وكان السلام الالهي يخيم على الصحراء في الاعياد الدينية [المواسم] فيكفّ الناس عن القتال والحرب . والواقع ان الاسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ، ومن هنا كانت مجالاً لتبادل النتاج الروحي بالاضافة إلى البضائع والعروض المادية . والى هذه الاسواق ، وبالتالي الى الدين بصورة غير مباشرة ، يعود معظم الفضل في توحيد نظرة العرب الجاهليين ، الى العالم ، وصهر عاداتهم ومفاهيم الشرف عندهم في بوتقة واحدة ، ومَنحِهم لغة شعرية مركّزة تسمو على جميع

اللهجات وتستغرقها .

وثمة آلهة ثلاث استطاعت أن ترتفع بنفسها ، بصورة خاصة ، عن مرتبة الشياطين الدنيا . الأولى مَناة ، إلاهة القضاء والقدر ، التي تقابل إلهة الحظ المخلّص Tyche Soteira عند الاغريق ، وكانت معروفة في مكة ، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة . والثانية اللاّت ، اي « الإلآهة » ، التي كانت تعرف في الطائف بـ « الرّبة » اي « السيدة » والتي شبّهها هيرودوتوس بألاهة الفلك Urania . وهي تقابل الأم الكبرى للآلهة ، عشتروت ، عند السّاميين الشماليين . أما الثالثة العُزّى أي « الكلية القدرة والعزّة » ، فلم تكن غير شكل آخر للالاهة الثانية ، اللات ، وكانوا يعبدونها في صورة الكوكب السماوي . الزهرة (فينوس) .

وبالاضافة إلى جميع هذه الآلهة اعتقد العرب [القدماء] ، ككثير غيرهم من الشعوب البدائية ، باله هو خالق الكون . هذا الاله هو « الله » الذي لم ينقل العرب فكرته عن اليهود والنصارى ، كما يظن كثيرٌ من الباحثين . وليس من شك في أن العرب كانوا في اول الأمر يؤدون الشعائر الدينية إلى تلك الآلهة التي كانت أقرب اليهم من الله ، رب العالمين العظيم . حتى إذا أوشك فجر الاسلام ان يبزغ لم تبقَ هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الديني بكامله . وهكذا انحطّ شأن هذه العبادة وانحطّت دلالتها ، انحطاطاً متواصلاً كان يرافقه أبداً تعاظمٌ في اهمية الشعور الديني العام القائم على أساس الايمان بالله . وفي مكة أخذ « الله » يحتل شيئاً فشيئاً محل هُبل ، الاله القمري القديم ، كرب للكعبة .

ولهذا السبب لم يتردد احد الشعراء المسيحيين في الحيرة ، وهو عَدِيّ بن زيد ، في ان يدعوه ، بعد المسيح ، شاهداً على قسَمٍ . وكان الله هو حامي العقود ، بالرغم من ان الخلافات الناشبة عليها كانت تُسوّى في أحد الاماكن المقدّسة ، في رعاية أحد الاصنام او الأوثان . وكان يُعتبر بصورة خاصة وليّ الضيوف الغرباء ، وإن قُدّمت واجبات الفرد نحو قريبه على واجباته نحوه [أي نحو الله] . والبدوي يعتبر القضاءَ المحتومَ ارادةَ الله الثابتة التي لا مُبدّل لها. والواقع ان هذا الاعتقاد بالقضاء لم يكن ليدخل في رُوع العربيّ الحورَ والضعف ، ولكنه كان يحفزُه على بلوغ أهدافه من غير مساعدة عُلوية ، ويحمله بالاضافة الى ذلك على التقليل من أهمية الجهود البشرية كلها ، على ما تنطق به هذه الابيات لأمريء القيس (الذي قضى أيامه في محاولات متطاولة عابثة أيدته فيها الدولة البيزنطية بسبيل استعادة السلطة التي كان جدّه قد حققها لأسرته ، كِنْدَة ، على قبائل بلاد العرب الشمالية) :

أَرانا مُوضِعينَ لِأَمْرِ غَيْبٍ ... وَنُسْحَرُ بالطَّعامِ وبالشَّرابِ
عصافيرٌ وذِبّانٌ ودُودٌ ... وَأَجرٌ مِنْ مُجَلِّحَةِ الذِّئابِ
إلى عِرقِ الثَّرى وَشَجَتْ عُرُوقي ... وهٰذا الموتُ يسلُبني شبابي
ونَفْسي سوف يَسْلُبُني وجُرْمي ... فيُلحِقني وشيكاً بالترابِ
وقد طوّفتُ في الآفاق حتّى ... رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ
أَبعدَ الحارثِ المَلِكِ ابْنِ عَمْرٍو ... وبَعْدَ الخَيْرِ حُجرٍ ذي القِبابِ
أُرَجّي من صُروف الدهرِ لِيناً ... ولَمْ تَغْفُلْ عن الصُمّ الهِضابِ

وأعلَمُ أنني عمّا قليلٍ سأَنشَبُ في شَبا ظُفُرٍ ونابِ
كما لاقى أَبي حُجْرٌ وجَدّي ولا أَنسَى قتيلًا بالكُلابِ .

اليهودية والنصرانية

ولقد ساعدت الاديان السماوية ، التي كان لها منذ زمن طويل انصار واتباع في بلاد العرب ،على استعجال هذا التفسخ في الوثنية العربية واستفحاله . ففي جنوبي الجزيرة بلغت اليهودية ، في فترة من الزمان ، كما ذكرنا آنفاً ، مبلغاً من القوة ظهرت آثاره في اعتناق الحكام لها ، واضطهادهم المسيحيين المنهمكين في النضال ضدّها . ومنذ القرن الاول بعد الميلاد واليهود يهاجرون إلى الواحات الواقعة في الشمال الغربي ، إلى تيماء ، وخيبر ، ويثرب ، وفدَك ، ليصبحوا فيها من ذوي الثراء . صحيحٌ أنهم انكمشوا على انفسهم في أحياء منعزلة ،ولكنهم استطاعوا من غير شك أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم ، وان يُذيبوهم في بوتقتهم . وكانوا يتكلمون اللغة نفسها التي يتخاطب بها السكان . وعلى الرغم من شدّة الحاجة إلى خدماتهم ، كفلاحين وتجار وصاغة ، فقد كان البدو لا يثقون بهم . ومن هنا لم تستطع اليهودية أن تؤثر في حياة العرب الدينية تأثيراً أكبر من الذي كان لها في الواقع .

أما النصرانية فتأتّت للعرب ،الذين يمتازون بحساسيتهم البالغة للانطباعات الخارجية ،من طريق مغايرة كل المغايرة. فقد كان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار ،والذين لوّنت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلويناً

تامّاً. والواقع أن النصرانية تمتّعت في ظلّ الامبراطورية الرومانية بقوّة اجتذابٍ عظيمة، لمجرّد كونها دين الدولة الرسمي. ومع ذلك فقد انضوت الأسرة اللخميّة، العاملة في الحيرة لخدمة الفرس، آخر الأمر، تحت لواء المسيحية، مُعتنقة أتباعها الحضريّين. وليس من شك في أن بلاد العرب الداخلية، وبخاصة مدن الحجاز التجارية، لم تكن تجهل كلّ الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها، بسبب من اتصالها الدائم بقبائل الشمال. وليس من شك أيضاً في أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء، كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية. أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية، فكان طبيعياً أن تكون أقدرَ على النجاح في نشر تعاليمها من كنيسة الدولة الرسمية.

الشعر

والعرب كما أشرنا سابقاً مدينون بأحساسهم أنهم يؤلفون امةً واحدةً، على الرغم من اختلافاتهم القبلية، لموهبتهم الروحية العامة، في الدرجة الاولى، أعني للشعر الذي ترعرع عندهم وازدهر في رعاية الدين، إلى حدّ ما. فأغلبُ الظنّ أن الشعر عند العرب قد ارتبط، منذ نشأته الاولى بالدين. وليس من شكّ في أنه وجد حافزه الأول في غريزة اللهو، وفي المتعة التي كان يجدها الانسان البدائيّ في الصوت والأيقاع، فتساعده على احتمال أعباء الحياة؛ ولا يبعد أن يكون الحُداء، عند البدو، قد نتج عن وَخْدِ

الأبل . ولكنّ الكلمة الملفوظة لفظاً مَهيباً استطاعت في الوقت نفسه أن تضمن للانسان البدائيّ الحصول على التـــأثير المقصود بواسطة قواه الخاصة ، ليس غير . وبهذه الطريقة ساعد فنّ البلاغة القديم على خدمة السحر ، الذي لم يكن يتعارض في هـذا الطور من أطوار الحياة الفكرية مع الدين . وفي أوقات الحرب بخاصّة ، كانت مهمة لعن العدو تقع على عاتق الرجل القادر على أن يقول الكلمة المناسبة ، كما طلب باراق من بلعام . حتى إذا ضعف الايمان بقوّة اللعنة السحرية تطوّرت إلى القصيدة الهجائية ، وانتقلت من دائرة التناحر بين القبـــائل إلى دائرة التشاحن بين الأشخاص ، لتنتهي آخر الأمر ، بوصفها سلاحاً مخوفاً ، إلى أن تتبذّل فتصبح مورد رزق لشاعر لا يخشى الفضيحة والتهديد . كذلك لم يمثّـــل الحبّ الجنسيّ في الشعر العربيّ ، كما هو الحال عند الشعوب البدائية جداً ، إلا دوراً ثانوياً . ذلك أن الشاعر الجاهلي كان يصطنعه ، في الشعر الفنيّ الذي لم يُحفظ لنا غيره ، كمقدّمة للغرض الذي يقصد إليه ، وهو التمدّح بنفسه ، أو الاشادة بمحامد قبيلته ، أو مـدح سيّده أو أميره ، إذا كان شاعراً محترفاً . وإنما كانت هذه القصائد ، كما يدعونها ، تجري على سَنَن تقليديّ مرسوم . كان الشاعر يستهلّ قصيدته بالحنين إلى أيامه الصالحة التي سَعد فيها بالحبّ ، وقبل أن يبلغ غرضه الحقيقي كان يعمد إلى إمتاع سامعيه بأبيات في وصف الطبيعة . والحق أن العرب قد وُفّقـــوا إلى الابداع في وصف الصحراء وحيواناتهـا النموذجية ، كالجمل الذي اتصلت حياتهم به اتصالاً وثيقاً . ولكنّ هذه اللوحات التصويرية المبدعة نفسها ،

لم تعتمد على الملاحظة الشخصية أيضاً ، بل افرغت في قوالبَ تحدّرت إلى الشعراء من الأجيال القديمة . ومن هنا لم يُفسِح هذا الفنّ مجالاً واسعاً أمام الشعراء لأظهار شخصيّاتهم إلا في القليل النادر حيث تكون المفارقة صريحة جداً . [ومن أفضل الأمثلة على ذلك] امرؤ القيس الشاعر ، الملك الضِلّيل ، الذي سبق لآبائه من كِندة ، العشيرة العربية اليمانية ، أن وحّدوا القبائل البدوية الشديدة الشكيمة في الشمال ، عند بداءة القرن السادس ، ووجّهوها في غزوات مُخرّبة على الامبراطوريتين الرومانيـــة والفارسية ، والذي أنفق عُمرَهُ في السعي لاسترداد مجد اسرته هذه إلى أن مات آخر الأمر مسموماً ، كضيف للامبراطور البيزنطي ، في أنقِرة بآسية الصغرى ؛ وزهـير شاعر الحكمة العمليّة الجامعة ؛ والأعشى المُنشد المحترف ، ، الذي قاده تَطوافه في سبيل التكسّب إلى جنوبي بلاد العرب . ولم يكن اصطناع اللغة الـــعامة للتعبير الشعري وقفاً على الشعراء الفنّيين وحدهم ، فقد شاركهم في ذلك رعاة هُذَيل الذين كانوا يضربون خيامهم قرب مكة ، فاصطنعوا في أشعارهم لغةً تختلف اختلافاً بيّناً عن لغة التخاطب اليوميـة ، على الرغم من استمدادها من جميع اللهجات ، وفَهْم العرب لها في كل مكان . ويبدو أن هذه اللغة الغنائية ، أو الشعرية ، التي نجد مثيلها عند كثير من الشعوب البدائية ، لم تسُدْ في نجد والحجاز فقط ، بل امتدّت سيادتها إلى قلب البلاد العراقية أيضاً . ثم إنها صارت امّ العربية الفصحى التي جعلها الاسلام لغةً عالميةً في الشرق الأدنى ، وعلى طول الساحل الجنوبي من البحر المتوسط بكامله .

محمّد الرسول

تقع مكة، البلد الذي ولد فيه النبي العربي (والذي دعاه بطليموس « ماكورابا » ، ولعلّ مردّ ذلك الى كلمة « مِقْرب » العربية الجنوبية، ومعناها « الهيكل ») * في الحجاز في وادٍ صخريّ غير ذي زرع يمتدّ من الشمال الى الجنوب بين جبل ابي قُبَيس في الشرق، وجبل الهندي في الغرب. وفي وسط مكة تقوم الكعبة. وهي بناء ذو اربع زوايا (يبلغ ارتفاعه اليوم بعد مختلف التجديدات التي تعاقبت عليه ١٦ يردة ونصف) يحتضن في احداها الحجر الاسود، ولعله اقدم وثن عُبد في تلك الديار، على ارتفاع ٥٨ إنشاً ونصف عن سطح الارض. وكانت الكعبة تضمّ تمثال الاله القمريّ هُبَل، بالاضافة الى الآلهة الثلاث المعبودة، اللاّت والعُزّى ومَناة. وفي

* إن بروكلمان ثقة في اللغات السامية. ولكني اعرض على القارىء تفسيراً آخر ألصق فيما ارى بالحقيقة. لقد سمى القرآن الكريم مكة « مكة وبكة » . وبكة هي الوادي ومكة لغة (صيغة) اخرى، ومنه البقاع وبعلبك (وادي بعل) . وهذا أدل على مركز مكة، لان مكة في واد غير ذي زرع كما وصفها القرآن الكريم. ثم إن « ماكورابا » (او على الاصح ماكارابا ـ حسب اللهجة الآرامية الشرقية لا السريانية الغربية) يصح ان تعني الوادي العظيم او وادي الرب. ولعل بطليموس اخذ الاسم من طريق الآراميين [ع.ف]

فناء الهيكل تدفقت مياه بئر زمزم المشهورة ، التي نشأت حولها البلدة على التحقيق . وكانت هذه الرقعة من الارض تُعتبر ، قبل محمد ايضاً ، حَرَماً مقدساً . وكانت السلطة في مكة لقبيلة قريش ، واعظم بيوتاتها مخزوم وأميّة . وإنما قامت ثروتها على التجارة ، ذات الصلة الوثيقة بالحج الى الكعبة والى جبل عرَفات المجاور . ليس هذا فحسب ، بل لقد كانت مكة ملتقى القوافل التجارية الضاربة بين بلاد العرب الجنوبية وسورية . فكان السلام العام يخيم مرتين في العام ، (الاولى في رجب سابع الاشهر العربية ، والثانية ابتداء من الشهر الحادي عشر حتى [ختام] الشهر الاول من السنة الجديدة ، أي طوال ذي القعدة وذي الحجة والمحرّم) ، على المدن وعلى شمالي الجزيرة بكامله حتى يكون في ميسور القوافل المجهزة في مكة أن تبلغ الأمصار التي تقصد اليها في سلامة وأمن .

شباب النبي

لسنا نعلم علمَ اليقين السنة التي وُلد فيها النبي . والمشهور ان ولادته كانت حوالي سنة ٥٧٠ ، ولكن الذي لا شك فيه أنها متأخرة عن ذلك بعض [٨]الشيء . * وليس يبدو أن عشيرته ،

---

(٨) انظر لامنس ؟ H. Lammens, *L'âge de Mahomet et la chronologie de la Sira*, *Journal asiatique*, série X, t 17. p. 209-250

* كانت ولادة محمد رسول الله عام ٥٧٠ ـ ٥٧١ للميلاد على وجه التقريب . ولكن لم تكن بعد ذلك بزمن طويل . والاب هنري لامنس اليسوعي قد حاول أن يؤخر ذلك عشر سنوات حتى ينقض القول الشرعي الذي يقول إن محمداً بعث على رأس الاربعين من عمره ، ويخرج الى القول بأنه ما دام

هاشم ، قـــد لعبت دوراً على شيء من الامتياز في مكة. والواقع أن الروايات الاسلامية قد سعت إلى أن تحيط النبي بهالة من التمجيد منذ اللحظة الأولى ، ولكن هذا لا ينفي حقيقة مقررة ، وهي أن اسرته كانت تعاني في الحقبة التي وُلد فيها ظروفاً قاسية جـــداً . والمعتقد أن والده ، عبدالله بن عبد المطلب ، كان تاجراً صغيراً ، مات في رحلة تجارية الى المدينة ، قبل ولادة النبي بشهرين . وبعد سنوات قليلة ماتت عن محمد أمـــه ، آمنة الزهرية ، ايضاً ، فنشأ يتيماً في كنف جده عبد المطلب ، ثم في كنف عمه ابي طالب. ولسنا نملك بيّنة موثوقاً بها عن حياة النبي الاولى الا هـذه الآيات القرآنية من سورة الضحى (٩٣ : ٦ – ١١) :

« أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدى . وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

زواجـــه

وعندما شبّ محمد عمل في تجارة لخـديجة ، وهي ثيّبٌ غنية ، كانت تستقلّ بتجارة ورثتها عن زوجيها السالفين . ذلك بان نساء العرب في الجاهلية ، والمستقلات منهنّ اقتصادياً بصورة خاصة ،

الانبياء يبعثون على رأس الاربعين ومحمد قد صدع بالدعوة على رأس الثلاثـين فمحمد ليس نبياً . ولامنس غير ثقة في البحوث الاسلامية لان غايتـــه الدس لا البحث عن الحقيقة . ويلام بروكلمان على الأخـــذ برأي لامنس ، فلامنس معروف في اوروبة بهذه النزعة . [ع . ف .]

كنّ يتمتعن بحرية أوسع بكثير من التي تمتع بها النساء في العهود التوالي. ويظهر أن محمداً قد رافق، في هـــذا الدور، بعض القوافل المكية الى الجنوب، وربما الى بصرى التي كانت، بوصفها القلعة البيزنطية الرئيسية في المنطقة الواقعة شرقي الاردن، مركزاً من مراكز تجارة القمح. فأظهر حتى في تلك السنّ المبكرة مواهب عالية. ومهما يكن من شيء فقد استشعرت خديجـة نحوه بتعلق شديد، على الرغم من انها كانت تكبره بخمس عشرة سنة تقريباً، فعرضت عليه الزواج منها، فقبل. والذي يبدو أن هذا الزواج لم يضمن له حاجاته المادية فحسب، بل حمل اليه الارتياح من نواح أخرى ايضاً. ولقد وُلد لمحمد من خديجة اربع بنات، وصبيّان لم يلبثا أن تُوفيا في سنّ الطفولة. وليس من شك في أنـــه انصرف بُعيـــد زواجه الى تحقيق مشروعات زوجه التجارية في حماسة وعزم، كما لم يُنكر في مراحل حياته التالية، أنـه كان تاجراً. وكان مُولعاً في حديثه المجازيّ بالصور والاستعارات التجارية.

بعثتـــه

واغلب الظن أن محمداً قد انصرف الى التفكير في المسائل الدينية في فترة مبكّرة جداً. وهو امر لم يكن مستغرباً عند اصحاب النفوس الصافية من معاصريه الذين قصّرت العبادة الوثنية عن إرواء ظمأهم الروحي. وتذهب الروايات الى انه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، اما في مكة نفسها فلعـــله اتصل بجماعات من

النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والانجيل هزيلة الى حدّ بعيد * ومع الايام أخذ الايمان بالله يعمر قلبه ويملك عليه نفسه ، فيتجلى له فراغ الآلهة الاخرى . ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الاولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونها بنات الله . ولقد أشار اليهنّ في احدى الآيات الموحاة اليه بقوله : « تلك الغرانيق (٩) العُلى وإن شفاعتهنّ لترتضى » .

اما بعد ذلك حين قوي شعور النبي بالوحدانية فلم يعترف بغير الملائكة شفعاء عند الله ، وجاءت السورة الثالثة والخمسون وفيها

---

* اكثر المبشرين والمستشرقين يذكرون ان الرسول اتصل ببعض النصارى واليهود واخذ عنهم عدداً من المعلومات الدينية والتاريخية . ثم هم يذكرون ان هذه المعلومات كانت خاطئة او ناقصة . اما وجه الحق فخلاف ذلك . إلا أنني لا أريد أن أرد هنا على المبشرين والمستشرقين مفنداً جميع اقوالهم فذلك مما يطول ، ومما اشتغل به نفر من العلماء ايضاً كالشيخ محمد عبده . ولكني اقول ان العرب انفسهم قالوا للرسول إن ما في القرآن يشبه بعض ما يقوله علماء اليهود ، فنزلت الآيات الكريمة (٢٦ : ١٩٢ ـ ١٩٧) : « وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الامين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربي مبين . وانه لفي زبر (كتب) الاولين . أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بني اسرائيل ؟ » فالخلاف إذن لا يتناول ان بعض المعلومات التي في القرآن تشبه بعض المعلومات التي في التوراة ، بل في زعم هؤلاء بان القرآن فهم هذه المعلومات فهماً خاطئاً في رأيهم او اخذها من مصادر غير موثوقة . فالقضية كانت من العرب الاولين ومن المستشرقين اليوم قضية تعصب فقط . [ع.ف]

(٩) الغرنوق في الواقع « مالك الحزين » الابيض . ولعل معرفة غامضة قد اتصلت بالنبي عن الطائر المقدس عند المصريين ، العنقاء ، او مالك الحزين الكدري ، قابل : S. Hess in *Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen Gesellschaft*, 69 (1915) pp. 385-8 .

إنكار لان تكون الآلهـــة الثلاث بنات الله . ولم يستطع التقليد المتأخر أن يعتبر ذلك التسليم الا تحولا أغراه به الشيطان، ولذلك ارجئت حوادثه الى أشد أوقات النبي ضيقاً في مكة ، ثم ما لبث ان أنكره وتبرأ منه في اليوم التالي * .

---

* الكلام في هذا الموضوع كثير ، وجله خارج عن الحقيقة . وخلاصة الموضوع موجز في ما يلي :

زعم قوم من الرواة ان الرسول قرأ يوماً في سورة النجم (السورة ٥٣) : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى » (الآيتـان ١٩ ــ ٢٠) ثم قرأ بعدها : « تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى . »

وامسك المبشرون وبعض المستشرقين بهذه الرواية وزعموا ان الرسول انما فعل ذلك لما قاومه مشركو مكة ، فاحب ان يتقرب منهم فمدح آلهتهم ثم عدوا عمله هذا تراجعاً عن تشدده في التوحيد ومهاجمة الاصنام .

ولقد وجدت ان احسن رد على هذه الفرية ما ذكره العالم الهندي المشهور مولانا محمد علي (The Holy Qur - àn , second edition) (Lahore , 1920 , P 1016 , note 2382 .

قال ان هذه الرواية وردت عند الواقدي وعند الطبري ، ومع ذلك فانها لا ظل لها من الحقيقة ، فان كل عمل من اعمال رسول الله مناقض لمثل هـــذا الاتجاه . اضف الى ذلك ان الواقـــدي معروف بسرد الإسرائيليات وبسرد الخرافات . وكذلك الطبري معروف بالجمع الكثير وباستقصاء الروايات مهما كان حظها من الصحة .

على اننا لو رجعنـا الى رواية محمد بن اسحق او الى صحيح البخاري وهو الذي لم يغادر من حيـاة الرسول شيئاً الا ذكره لم نر لقصة الغرانيق اثراً . وابن اسحق جاء قبل الواقدي باربعين سنة وقبل الطبري بنحو مائة وخمسين سنة او تزيد . اما البخاري فقد كان معاصراً للواقدي ومع ذلك لم يذكر هذه القصة . ثم ان الواقدي معروف عند المحدثين بانه يضع الاحاديث وانه غير ثقة فيما يروي . وكذلك لم يذكرها احد من رواة الحديث .

ولكن بينما كان بعض معاصري النبي ، كأمية بن ابي الصلت شاعر الطائف ، وهي بلدة بجذاء مكة ، يكتفون بوحدانية عامة ، كان محمد يأخذ بأسباب التحنث والتنسك ، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي ، ليالي بطولها في غار حراء ، قرب مكة . لقد تحقق عنده ان عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة ، فكان يضجّ في أعماق نفسه هذا السؤال : الى متى يمدّهم الله في ضلالهم ، ما دام هو عزّ وجلّ قد تجلّى ، آخر الامر ، للشعوب الاخرى بواسطة انبيائه ؟ وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعوّ إلى أداء هذه الرسالة ، رسالة النبوّة * ولكن حياءه الفطريّ حال بينه وبين إعلان نبوّته ، فترة غير قصيرة ، ولم تتبدّد شكوكه الا بعد أن خضع لأحدى الخبرات الخارقة في غار حِراء . ذلك بأن طائفاً

واذا عدنا الى قراءة الآيات نفسها بالتسلسل وجدناها : « افرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الاخرى ؟ الكم الذكر وله الانثى ؟ تلك اذن قسمة ضيزى (جائرة) ! ان هي الا اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان،إن يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربهم الهدى» .

فليس من المعقول ان تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الاسلامية وصلب دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . وهنالك تفاصيل كثيرة في نقض هذه الرواية لا جدوى من ذكرها هنا . [ع. ف.]

* ان المستشرقين ينظرون الى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم نظرة مادية مجردة من الصوت الالهي . وما ذلك الا من قبيل التعصب الديني المبني على عداء سياسي . لانهم ينكرون ان يكون « محمد » ذا نبوة صحيحة بينما هم يقرون بهذه النبوة نفسها لجميع انبياء بني اسرائيل . ونحن في هذه الامور لا نغمض اعيننا عن آرائهم ولكننا نفند الفاسد منها وندل على موضع التحامل فيها ، ليعرف القاريء ما يجب ان يدع مما يجبان يأخذ . [ع. ف.]

تجلى له هناك ، يوماً ، هو الملك جبريل ، على ما تمثله محمد في ما بعد ، فأوحى اليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة . وآمنت زوجه ، في الحال ، برسالته المقدسة ، وتحرّر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكرّرت الحالات التي ناداه فيها الصوت الالهي وتكاثرت . ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه ، كوحيٍ من عند الله * ولكن ذلك لم يُثر ، اول الامر ، اهتماماً كبيراً بين مواطنيه ولم يلهب أحاسيسهم ومشاعرهم . فقد كانوا متعوّدين أن يظهر في كل قبيلة تقريباً ، كما يظهر الشاعر ، « كاهن » يستطيع أن يعزو أحكامه فيما يتعلق بالخلافات والمشكلات الغامضة (من قتل، و سرقة، أو شرود إبلٍ وضياعها) المعروضة عليه ، الى «صاحب» له غيبي ، وأن يذيعها في الناس نثراً مسجوعاً ، كما فعل النبي فيما نُزل عليه من وحي** ومن هنا كان على محمد أن يحتاط، مرة بعد مرة، من أن يضعه ، مواطنوه في مصفّ هؤلاء الكهان ومرتبتهم .

وكان في صُلب الآيات الأولى الموحاة الى محمد توقعٌ ليوم

---

* هذه الفكرة « ظن انه قد سمعه » ترد عند الكتاب الغربيين كنتيجة لرأيهم المبسوط في الحاشية السابقة . وهم في ذلك مخطئون خطأ مبنياً على التعصب فقط ، ذلك لأننا لو حملناهم على الدليل العقلي في شأن الانبياء جميعاً لكان تعبيرهم هذا خارجاً على الادب في حق « محمد » وخارجاً على العلم ايضاً . [ع.ف.]

** ان هذه الموازنة بين « محمد » صلى الله عليه وسلم وبين الكهان موازنة اثارها كفار مكة في ايام محمد نفسه يوم قالوا عنه كاهن ، شاعر ، مجنون ، كما ورد ذلك على لسانهم في القرآن الكريم. على ان كل دراسة علمية وتاريخية تدل على خطل هذا الرأي ، لو لجأنا فقط إلى نتيجة ما انكشفت عنه الكهانة وإلى الأثر الذي تركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم في العالم . [ع . ف .]

حساب يُبعث فيه كل فرد على حدة ، فيجازى بما قدّمت يداه . ولقد خشي هو نفسه هذا اليوم ، كما خشيه المسيحيون الأول ، وكما كان اتباع الفرق المسيحية في عصره لا يزالون يخشونه ، في أغلب الظن . ولم يتكلم إلا في ما بعد، عن يوم حساب شامل ينتظم أفراد شعبه جميعاً ، ويمحو اعداء الله واعداءه عن وجه الأرض ؛ معارضاً هذه الصور المخوفة بصور مقابلة تمثل نعيم الفردوس ومباهجه في ألوان زاهية . والواقع أن المعتقدات الفارسية لزمته، كما لزمت المسيحيين الآراميين . وبالمناسبة ، نذكر أن أحد التماثيل المنحوتة في تدمر يمثل الموتى وهم يتناولون الطعام في ثياب العيد .

وإنما يظهر هذا السمو الروحي الذي عرفه النبي في تلك السنوات الأولى من بعثته في أسلوب الآيات نفسه ، فهي زاخرة بالصور الرائعة ، عابقة بالنفس الخطابي الذي يضج بين جنباته التناغم الموسيقي ، والاحساس الشعري الأصيل . ثم إنها كانت ، كنفثات الكهان الوثنيين ، قصيرة جداً ، في العادة ، ومقدماً لها بصيغ قَسَمية غير مألوفة .

المؤمنون السابقون

واقتفى إثر زوج محمّد وبناته، في الايمان برسالته ابنُ عمه عليٌ، ومولاه وعتيقه زيد ، وصديقاه أبو بكر وسَعْد بن أبي وقّاص . والحقُ أن ترتيب هؤلاء المؤمنين الصادقين الأول ، من حيث السبْقُ إلى الدخول في الدين الجديد ، أمرٌ مختلفٌ فيه ، وكثيراً

ما خَضَع للتقديم والتأخير تَبعاً لاعتبارات سياسية ، في مابعد.[١٠]
أما اتباع محمد الآخرون فكانوا في هذه الفترة كلهم أرقّاء وفقراء، على الرغم من أنه كان أوّلَ الأمر ، في ما يبدو ، على صلات حسنة بالطبقة الحاكمة أيضاً ، تلك الطبقة التي شاركها افتخارَها بالحرَم المقدّسِ القائم في مكة . والواقع أن هذه الطبقة لم تستشعر الخطر إلا بعدَ أن هاجم النبيّ الايمان بآلهة آبائه وأجداده . ولقد اعتبرت ان أكثرَ تعاليمه كراهية إلى نفسها الاعتقادُ بأنّ الأجساد سوف تُحشر يوم القيامة . وفضلاً عن ذلك فقد كره أفراد هذه الطبقة الحاكمة أن يرَوْا إلى محمد ، وهو الذي ينتسب إلى بيتٍ دون بيوتهم مقاماً ، على رأس جماعة تشكّل ، على صِغَرها ، دولة ضمنَ الدولة. ومن هنا كان عليه أن يدفعَ كيدَ خصومه في آياتٍ تزايدَ عنفها مع الأيام، حتى لقد انتهت إلى أن تُصبح لعنات عليهم ؛ ولقد سمّى عَمّهُ ، أبا لهَبٍ نفسه ، في إحداها .

ودعا محمدٌ أتباعه إلى أن يُقرّوا بوحدانية الله، وإلى أن يُسْلِموا أمرهم الى الله ، فعُرف دينه بالاسلام . ولعله جمع منهم ، في وقت مبكر جداً ، اموال الصدقة ، او الزكاة ، لتنفق في إعالة المعوزين من أتباعه . ولكن هـــذا الفرض لم يصبح له شأنه العظيم إلا في المدينة ، في ما بعد . وكان واجب المؤمنين الرئيسي، الذي يعلنون بواسطته انتماءهم الى الجماعة الجديدة ، الصلاة مرتين ، اول الأمر ، ثم ثلاث مرات ، واخيراً خمس مرات في اليوم الواحد. أما الشعائر

---

(١٠) راجع نولدكه؛ Th. Nôldeke, *Zur tendenziôsen Gestaltung der Urgeschichte des Islams*, Z D M G , 52 (1898) ,pp. 16 - 38

الدينية الاخرى ، كالدعاء الى الله – وبخاصة في الصلوات الليلية – الذي كان محمد يمارسه في حرارة ، على منوال الزهّاد النصارى ، فكانت تعتبر مسائل خاصة . ولكن الذي لا شك فيه ان هذه الصلوات كان يقدم لها ، منذ البدء ، بالوضوء ، الذي كان مألوفاً ايضاً عند بعض الفرق النصرانية *

في غمرة هذا النضال الناصب المخفق ، ضد جحود مواطنيه الارستقراطيين وإنكارهم ، كان محمد يعزّي نفسه بالانبياء السابقين الذين لم تكن مهمتهم مع أقوامهم أسهل من مهمته . وهكذا نجده ، في عهده الاول ، يكثر من الاشارة الى قصص هؤلاء الانبياء ، والى قصة موسى بخاصة . وليس من شك في ان معرفته بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية الى أبعد الحدود ، وحافلة بالاخطاء ، وقد يكون مديناً ببعض هذه الاخطاء للاساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي ** ، ولكنه مدين بذلك ، ديناً اكبر ، للمعلمين المسيحيين الذين عرّفوه بانجيل الطفولة ، وبحديث أهل الكهف السبعة ، وحديث الاسكندر ، وغيرها من الموضوعات التي تتواتر في كتب العصر الوسيط *** . وكان إلى جانب ذلك قصص عربية ،

---

* يعلن القرآن الكريم في غير ما آية من آياته ان الاسلام ليس ديناً جديداً كله ، بل فيه إحياء لفروض جميلة في الاديان السابقة عفى عليها الزمن . ولكن الملاحظ ان تعبير الكتاب الغربيين عن هذا الأحياء يراد منه القول بان الاسلام «أخذ» ذلك عن الاديان المعاصرة تزيداً واحتياجاً اوجمعاً من غير تخير [ع.ف]

** Haggadah وهي القصص التلمودي المفسر لحوادث التوراة [المعربان]

*** القصص في القرآن الكريم للعبرة في الدرجة الاولى وللتاريخ في الدرجة الثانية ، . من اجل ذلك لم يلجأ القرآن الكريم الى « تفصيل السرد التاريخي »

كتلك التي تتحدث عن هلاك قبيلة ثمود ، التي قد يكون وضع لها قصة النبي صالح الثانوية ، كملحق ضروري . وهنا ، في هـذه القصص ، نجد ان اسلوبه ينزع الى ان يكون اكثر اسهاباً وأقل توقداً ، كما نجد انه كان يوشّح هذه القصص بمناقشات خطابية تدور على محور اثبات وجود الله بمختلف الدلائل التي تقدمها الطبيعة .

الهجرة الى الحبشة

بيد أن اعداءه ما لبثوا ان تخطوا مرحلة الانكار المجرد لتعاليمه . لقد استشعروا خطر انتشار دينه الجديد على مصالحهم العامة ، فأنشأوا يضطهدون الموالي والمُعْتَقين الذين أظهروا ايمانهم به ، ويسومونهم سوء العذاب . أما النبي نفسه فظل في نجوة من ذلك كله ، بفضل حماية عشيرته له . والواقع أن ابا بكر ، صديق محمد ، أنفق في ما يقال جزءاً كبيراً من أمواله في شراء حرية الشهداء ، ولكن امكانياته كانت اعجز من ان تدفع الاهانة عن جميع اخوانه المؤمنين ، ما في ذلك شك . من أجل هـذا عزم النبي على ان يقي بعض اتباعه ، على الاقل ، من أذى مضطهديهم ، بواسطة الهجرة . وإذ كان لا يعتبر ، في ذلك الوقت ، ان دينه يختلف اختلافاً كبيراً عن النصرانية ، فقد وجه اتباعه إلى اراضي النجاشي ، اقرب ممثل سياسي للنصرانية يمكن ان يحتمى به . وكانت لمواطني محمد الوثنيين علاقات ببلاد العرب الجنوبية الخاضعة آنذاك

ولكنه رمى الى « العظة » من الحوادث فأوجز وأجمل وضرب الامثال فقط ليحمل البشر على الاعتبار بما اصاب اسلافهم الاقدمين . أما ما يظنه الكتاب الغربيون خطأً في فهم الاسلام لمادة الانجيل فراجع الى ان القرآن قد تضمن آراء طوائف مسيحية اضطهدها ملوك النصارى وباباواتهم. [ع.ف]

لسلطان الامبراطورية الفارسية . ولكن فارس كانت عدواً قديماً للدول المسيحية . وكان مواطنو محمد المكيّون قد تلقوا نبأ انتصار الفرس على البيزنطيين في سورية، سنة ٦١٤ ، بالبشر والابتهاج ، في حين انذر هو الفرس ، في السورة الثلاثين من القرآن ، بانهم سيُغلبون في بضع سنين . ومن هنا لم يخطيء النبي الحساب عندما افترض أن النجاشي النصراني سينزل في حماه، اتباعه الهاربين من اضطهاد الوثنيين . والمعروف أن هذه الهجرة كانت في السنة الخامسة من بعثة محمد النبوية ، وأنه كان بين المهاجرين – وعدّتهم اثنان وثمانون رجلًا ، وبضع نساء – بنت الرسول رُقَيّة وزوجها عثمان ،الذي صار في ما بعد الخليفة الثالث .

اسلام عمر

وفي هذه الأثناء ، كان ازر المسلمين الذين تخلفوا في مكة يشتد ويقوى بأسلام شخصية جديدة ذات شأن ، أعني عمر ابن الخطاب ، الذي ينتسب من جهة امه الى « مخزوم » ، البيت القوي الغني ، والذي احلّته سجاياه وفضائله مكاناً علياً في البلدة. والواقع أن هذا الحدَث كان له دويّ عظيم بين المكيين ، وقد زاد من خطره أن عمر كان حتى ذلك الوقت من ابرز خصوم محمد واشدهم عليه . وكان من آثار ذلك أن قرّر المكيون التعويض عن هذه الخسارة باللجوء الى تدابير جديدة أقسى . فقاطعوا محمداً وجميع اتباعه وحاصروهم في الحي الذي يسكنونه في شِعب أبي طالب . وعلى الرغم من أن أبا طالب ، عمّ النبي وكافله ، لم

يدخل في الدين الجديد فقـــد رفض ، في غضب وغيظ ، اقتراح المكيين بان يتخلى عن حماية محمد .

والواقع أن المكيين مالبثوا أن اضطُرّوا إلى أن يرفعوا الحصار بعد أن أخفقوا في تنفيذه بصورة مُجدية، ولكن رُزئ ثقيلين نزلا بالنبي عقب ذلك بقليل ، ففقَد في السنة نفسها ، ٦١٩ ، زوجه [خديجة] وعمه أبا طالب جميعاً. وكان على أبي لهب أن يحـــل محل أخيه أبي طالب في حماية النبيّ ، على الرغم من خصومته له ، وعلى الرغم من أن النبي لعنه في إحدى السّوَر، لأنّ رئاسة البيت الهاشمي كانت قد آلت إلى أبي لهب بعد وفاة أبي طالب ، فهو مكلّف بحماية ابن أخيه ، بحكم الشرف والقرابة . ومهما يكن من شيء ، فقد كان من غير الطبيعي أن تدوم هذه الصلة زمناً طويلاً ..

هذا الوضع اليائس أوقع في نفس محمـــد أن عليه أن يلتمس الخلاص خارج مكة . وبعد أن قام بمحاولات عابثـــة لاكتساب الأتباع في الأسواق الكبرى المجاورة ، توجّه إلى الطائف ، وهي مدينة تقع إلى جنوبي مكة ، وتربط سكانها ، بني ثقيف ، روابط تجارية وثيقة بالمكيين . ولكنه لم يجد عند هؤلاء أكثر مما وجده عند أبنـــاء بلده من الاستعداد لقَبول رسالته ، فسَخِروا به ، وأغروا به سفهاءَهم فحصبوه بالحصا ، فاضطُرّ إلى أن يلتجيء إلى حمى رجل وثنيّ من أبناء قبيلته . ولم يجرؤ على العودة إلى مكة إلا بعد أن أجاره أحد أشراف عشيرته *

وفي آذار سنة ٦٢٠ ، إبان موسم الحج التالي ، حاول محمدٌ أن

* هو المطعم بن عدي [المعربان]

ينشر دعوته بين جماهير العرب المتدفقين على مكة كالسيل ، من أطراف الجزيرة كلها . وفيما هو منصرف الى ذلك التقى أفراداً من قبيلة الخَزْرج المقيمة في المدينة . وكان في المدينة جالية كبيرة من اليهود ، بينها وبين الوثنيين ضغائن متطاولة ، فكانت في أغلب الظن تتوعد الوثنيين بقرب ظهور المسيح الذي سينتقم لها من مضطهديها. ومن هنا أَلِفَ المدنيون فكرة الرسول الآلهي، فدخلوا في الاسلام ، لأنهم كانوا قبل كل شيء معدّين للافكار الدينية ، بحكم الوضع في مدينتهم ، إعداداً يختلف كل الاختلاف عن إعداد المكيين الآخذين باسباب النّعمة والترف.

المدينة

وإنما تقع بلدتهم، التي كانت حتى ذلك الحين تُعرف بـ « يثرب » لا بـ « المدينة » (مدينة رسول الله) كما دُعيت بعد ، في سهل وافر المياه في شمالي الحجاز ، قرب سلسلة الجبال التي تفصل نجداً عن تهامة . وكانت يثرب ، كسائر المدن المتحضرة في واحات بلاد العرب الشمالية الغربية ، تتألف من أراضٍ محروثة وبيوت مستقرة ، متناثرة بين اشجار النخيل ، والحدائق ، والحقول المزروعة . وكانت السيادة في هذه الواحة لقبيلتي الأوس والخزرج اللتين شرّفهما النبي بعد بلقب « الأنصار » الجامع . وكان الاوس والخزرج يعتبرون أنفسهم من عرب الجنوب . والمفروض أن المدينة كانت ، قبل هجرتهم اليها ، في أيدي اليهود. ولكن سلطان اليهود الاقتصادي تضاءل في ما يبدو بسبب من حملة الحاكم الحبشي

أبرهة ، على بلاد اليمن ؛ ومن ذلك الحين كان على اليهود أن يعيشوا موزعين بين أفراد الأوس والخزرج الذين بدأوا حياتهم اول الأمر ، دُخلاء على يثرب . والواقع أن بني قَينُقاع هم القبيلة اليهودية الوحيدة التي احتفظت بمساكنها المجتمعة المنعزلة ، ولكنها خسرت كذلك أرضها . ولم يحتفظ بالارض ، من اليهود ، غير بني النضير وبني قُريظة الذين عاشوا مع الأوس ، وانتهوا قبيل بعثة النبي بقليل ، الى أن ينشئوا علاقات سياسية معهم ، على قدم المساواة .

ونحضّر عرب يثرب فصاروا يحرثون الارض ويسكنون في دور مسيّجة ، ولكنهم لم يكونوا قد تجردوا بعد من عادات الحياة البدوية الحرة . فكانوا غير خاضعين لسلطة مركزية ما ، ولكنهم لم يعودوا قادرين – بسبب من حياتهم المستقرة – أن يتجنبوا الخلافات الدائمة في ما بينهم ، كما تجنبوها في الأيام السابقة . وهكذا كانوا ابداً في صراع داخلي انتهى أخيراً إلى فتنة أهلية نشبت بين قبيلتي الاوس والخزرج فقسمت المدينة الى معسكرين متنابذين . وخضع الأوس للخزرج ، وارتضى فريقٌ منهم صُلحاً ذليلا جعلهم في منزلة الدخلاء بعد أن خسروا أرضهم ، في حين آثر فريق منهم الرحيل عن الأرض ، في إباء وشمم . بيد ان الاوسيين ما لبثوا أن اتحدوا ، وعقدوا حِلفاً مع قبيلتي النضير وقريظة اليهوديتين ، ومن ثم تغلبوا على الخزرج في معركة كبيرة حاسمة جرت في بُعاث ، بعد صراع طويل . ولم يعقب هذه المعركة صلح شريف بين الفريقين . بل استمر النزاع بينهما عنيفاً مميتاً ، حتى لقد اصبح الرجل منهم لا

يستطيع ان يخرج في حاجة دون ان يعرّض نفسه للموت. والذي لا ريب فيه ان كلتا القبيلتين قد وجدت آخر الامر ان مثل هذه الحال لا يمكن ان تُطاق طويلاً، خاصة وانهما لم تكونا قد فقدتا بعدُ الشعورَ بالوحدة التي تشدّهما برباطها. ولكن احداً من افرادهما لم يكن يملك من النفوذ الادبي قدراً كافياً لجمع الصفوف وتقريب وجهات النظر. والواقع ان الحَكَم، الذي طالما تاقت اليه القبيلتان، كان لا بد له ان يأتي من الخارج. ولقد كان من الجائز ان تقع هذه المهمة على عاتق كاهن وثنيّ ما، ولكن شيئاً مثل ذلك لم يحدث، فاذا الخلاف الدموي بين ابناء العُمومة يمهّد السبيل امام النبي.

ورجع الخزرجيون الستة الذين التقاهم محمدٌ في موسم الحج من سنة ٦٢٠ الى ديارهم وانشأوا يبثون الدعوة للدين الجديد، يساعدهم في ذلك أحد المسلمين الذين سبق لهم ان هاجروا الى الحبشة. حتى اذا حال الحَوْلُ رجع خمسة منهم الى مكة، وفي صحبتهم سبعة من المؤمنين الجُدد، فاجتمعوا بمحمد في العَقَبة، وهي مجازٌ بين مِنى ومكة. وهناك فَرَض عليهم أركان الاسلام، ثم وجههم الى المدينة، مرة ثانية، بعد ان ارسل معهم مُقرئاً يجيد تلاوة القرآن.

في هذه الاثناء كان مسلمو مكة، على ما تقول الروايات، يعانون أزمة جديدة. ذلك ان حديثَ محمد عن إسرائه العجيب، برفقة جبريل، الى بيت المقدس ومن ثم الى السماء، كان قد أوقع موجة من الشك في نفوس بعض المؤمنين. ولكن أبا بكر ضرب بايمانه الراسخ مثلاً طيباً لهؤلاء المتشككين، فزايلتهم الريَب

والظنون . ومن الجائز ان تكون هذه الرحلة السماوية التي كثيراً ما أشير اليها بَعْدُ في الاساطير الشعرية التي خلّفتها لنا الكتب الاسلامية جميعها أقدم من ذلك عهداً ، ولعلها ترجع الى الايام الاولى للبعثة النبوية * . وأمثال هذه الرؤى في اثناء تهجّد العرّاف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية . حتى اذا كان موسم الحج من سنة ٦٢٢ اقبل عدد كبير من المؤمنين الجدد من المدينة الى مكة ، وبعضهم من الأوس ، وبعضهم من الخزرج ، فاجتمع بهم النبي في العقبه ايضاً ، ومعه عمّه العبّاس . وفي هذا الاجتماع اعلنَ العباسُ القومَ ان محمداً في عزّ من قومه ومنعة في بلده ، وانهم ان لم يكونوا على استعداد للوفاء له فمن الخير ان يدعوه بين آله وعشيرته ، فبايعوه على ان يمنعوه ولا يخذلوه .

الهجرة

وفي صيف ٦٢٢ غادر اتباع محمد مكة ووجهتهم المدينة ، في غير ما ضجة ولا اعلان . اما النبي نفسه ، وابو بكر معه ، فلم يلحق بهم حتى الخريف اذ كان عليه ان يسوّي بعض شؤون اتباعه التجارية . وفي ٢٠ ايلول سنة ٦٢٢ وصل الى قُباء ، وهي ضاحية تقع على نحو ثلاثة

(*) كان الاسراء في الدور المكي لا ريب في ذلك ، ولكن في النصف الثاني منه على الارجح . وصفة الاسراء موضع خلاف بين علماء المسلمين ايضاً. وافضل هذه الصفات ما اشار اليه احمد شوقي :

يتساءلون وانت اطهر هيكل بالروح أم بالهيكل الاسراء
بهما سموت مطهرين كلاهما نور وروحانية وبهاء

[ع. ف.]

ارباع الميل جنوبي المدينة. ولبث النبي في قُباء خمسة أيام قبل ان ينتقل الى المدينة . ثم انه سار على راحلته ، فكان كلما مر على قبيلة ناداه رئيسها ان أقم عندنا فكان يقول لهم خلوا سبيلها فانها مأمورة ، حتى بركت في حي الخزرج ، فنزل في بيت أحدهم . والواقع ان هذه الهجرة ، التي تمثل انقضاء عهد غير مستقر، وبدء حياة جديدة ، كانت حدثاً هاماً جداً في تاريخ المسلمين ، حتى لقد اتخذوا في عهد عمر بن الخطاب مطلع تلك السنة بداءةً للتاريخ الاسلامي.

ولم يلبث النبي ان أنشأ منزلا له خاصا . وكان يتألف ، كمنازل أتباعه الجدد المدنيين، من عدد من الغرف، بعضها للشؤون المعاشية وبعضها للاعمال، في وسط فِناء تحيط به جدران من اللبن. وانما شيدت الغرف من سعف النخل ، وسقفت بالخوص المغطى بطبقة من الكلس . ثم أضيف الى مساكن النبي فيما بعد خباء ذو أثاث فخم قد فرشت ارضه بالبسط ، لاستقبال وفود القبائل استقبالاً لائقاً . ولقد ظل هذا الخباء ، طوال حياة النبي ، الفناء الذي يجتمع فيه المؤمنون لأداء الصلوات اليومية .

وكان اعتماد محمد الرئيسي ، في موطنه الجديد ، على مواطنيه الذين هاجروا معه من مكة . وفي حين ان المكيين ذوي اليسار انتشروا في أحياء البلدة ، فقد ظل عدد كبير من المهاجرين المعوزين الذين لا مال لهم ولا بيوت عندهم، في جوار النبي ، فكانوا يبيتون في الصُفّة ، وهي موضع مظلل في فناء المسجد . ولقد كان أهل الصفة هؤلاء يشكلون حَرَس الرسول ، كما كانوا عاملا مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد .

وفي السنة الثانية للهجرة نهض النبي بمهمة إصلاح ذات البين التي وقعت على عاتقه بطبيعة الحال ، وكانت الحرب مع المكيين على وشك الوقوع ، وذلك عندما عقـــد معاهدة مسهبة بين المدنيين ، حفظ لنا التاريخ نصها . فاتفقت القبائل المختلفـــة على ان تؤلف جماعة واحـدة في ظل الحماية الالهية . بيد انه لما كان المؤمنون هم روح الجماعة المحركة ، ولما كانت أعمالهم بحسب عرف العرب القديم ملزمة للجميع ، فقد انتهوا آلياً الى ان يحتلوا مقام الصدارة والغلبة . والغي نظام الثأر العام . كان على القاتل ان يدفع دمه ثمن جريمته ، ولكن احداً لم يعد يجوز له ان ينتصر له . وصار على الجماعة ان تقف صفاً واحداً في وجـه الاعداء الخارجيين . اما اليهود فكان عليهم ان يسهموا في نفقات الحرب ، دون الاشتراك بها عملياً ، الا في الاحوال التي تكون فيها المدينة نفسها موضع الهجوم .

موقف النبي من اليهود

وتأثرت اتجاهات النبيّ الدينية ، في الأيام الأولى من مقامه في المدينة ، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود [١١] . وأغلب الظنّ أنه كان يرجو ، عقب وصوله إلى المدينة ، أن يدخل اليهود في دينه . وهكذا حـــاول أن يكسبهم من طريق تكييف شعائر الاسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي * ، فشرع صوم العاشوراء

(١١) انظر فنسنك؛ A. J. Wensinck, *Mohammed en de Joden te Medina*, Leiden, 1908.

(*) لاريب في ان رسول الله قـد أصبح في المدينة « ولي أمر المسلمين » فوق ما كان له من « مقام الرسالة » . ولقد عالج قضية اليهود بطرق مختلفة ،

وهو اليوم العاشر من المحرّم ، على غرار الصوم اليهودي في يوم الكفّارة الذي يقـــع عندهم في العاشر من شهر تِشري . وبينما كان المؤمنون في مكة لا يصلّون إلا مرّتين في اليوم ، أدخل في المدينة ، على غرار اليهودية أيضاً ، صلاة ثالثة عند الظهر . وإذ كان في وسعه ووُسع أتباعه أن يقيموا الصلوات منذ عهـده بالمدينة ، جهاراً ومن غير إزعاج ، فقد عين منادياً للصلاة يُعرف بالمؤذن . وليس من شك في أنه قد بدأ بذلك معارضته لكل من الديانتين الموحدتين. فبينما كان النفخ في الابواق هو وسيلة الدعوة إلى الصلاة في كُنُس اليهود الشرقية ، كان النّصارى يصطنعون النواقيس الخشبية بدلا من أجراس الكنيسة . أما محمّد ، فقد وقع اختياره على الصوت البشريّ لدعوة أتباعه إلى الصلاة . كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار « السبت » اليهوديّ ، ولكنه خالف اليهود حين سمح للمؤمنين بأن ينصرفوا في ذلك النهار، إلى شؤونهم الدنيوية ، قبل أداء الصلاة وبعدها .

ولم يطل العهد بمحمّد حتى شجر النزاع بينه وبين أحبار اليهود. فالواقع أنهم على الرغم مما تمّ لهم من علم هزيل في تلك البقعة النائية ،

ولكنه لم « يبدل شعائر الاسلام حتى يرضى عنها اليهود » . ويزعم المؤلف ان الرسول شرع صلاة الجمعة تشبهاً باليهود مع انه بعد أسطر سيقول بأنه خالفهم في السماح للمسلمين بالعمل قبل صلاة الجمعة (الظهر) وبعدها . إن فكرة « الجمعة » مخالفة تمام المخالفة لما عند النصارى واليهود معاً . إنها ظاهرة اجتماعية لا دينية ، ولذلك لا تجوز صلاة الجمعة إلا في المصر (البلد) الذي يجتمع في مسجده أربعون رجلاً بالغاً ، وإلا لم تجب الجمعة في ذلك البلد . بينما اليهود « يسبتون » منذ عشية السبت إلى مساء السبت لا يعملون عملا . [ع . ف .]

كانوا يفوقون النبي الاميّ في المعلومات الوضعية وفي حدّة الادراك* فالفجوات المختلفة التي تكشّف عنها علمه « بالعهد القديم » ، والتي كان قد تركها عارية، في السّوَر المكية ، لم يَعد من الممكن أن تظل خافية عليهم * . ولكن إشاراتهم الساخرة إلى هذه الفجوات كانت أعجز من أن تزعزع إيمانه بصحة ما يوحى اليه . بل إن معارضة اليهود لتعاليمه حملته على أن يستنتج أنهم قد ضلوا عن طريق الايمان الصحيح ، وأنهم قد حرّفوا الكتاب المقدّس الذي اعتقد هو نفسه بأنه مُنزل من عند الله .

ولم يلبث هذا الصراع مع اليهود أن جرّ ذيولا عملية أيضاً . فمنذ ذلك الحين شرع النبي يؤكد تأكيداً متزايداً على الطابع العربي القومي الذي يطبع دينه . صحيح أنه لم يُلغِ صوم العاشوراء ، الذي اقتبسه عن اليهود ، والذي لا يزال بعض المسلمين اليوم يؤدّونه ، جرياً على العادة ، تطوّعاً واختياراً ، ولكنه أضاف إلى هذا الصوم صوماً آخر ، معمولا به حتى اليوم ، يستغرق شهر رمضان بكامله ، وهو الشهر التاسع من أشهر السنة القمرية . وبينما يكتفي النصارى بمجرّد الامتناع عن أكل اللحم خلال صومهم الكبير ، نجد أن محمّداً يكلّف اتباعه الامتناع عن كل ضرب من ضروب الغذاء طوال النهار ، مانحاً إياهم ، مقابل

(*) إن الرسول قد علم ان التوراة مبدلة لأن فرق اليهود كانت مختلفة ، وان السامريين (اليهود الذين يسكنون اليوم في نابلس) يقولون إن لديهم توراة هي الصحيحة ، بينما التوراة التي يملكها سائر اليهود غير صحيحة . ثم إن في العهد القديم أساطير كثيرة ، فاذا كان محمد قد رفضها فانه قد فعل ذلك على أساس علمي ، و « رفض الخطأ ليس جهلا . » [ع. ف.]

ذلك ، حرية الطعام بعد المغيب . ولسنا نعرف حتى الآن ما اذا كان محمد قد اقتبس هذه الفريضة عن إحدى الفرق الغنوستية أم عن المانيين الذين نفذ مبشروهم الى بلاد العرب ايضاً . فقد كان لا يعرف شيئاً ، أو يكاد ، عن الحرّانيين في العراق ، الذين كانوا يصومون كذلك في شهر آذار ، تمجيداً للقمر .

وبعد أن قطع النبي الرجاء من ادخال اليهود في الاسلام ، أصبحت الاخبار المتداولة في مكة في مقدمة معتقداته الدينية . ولكي يزيد هذه الاخبار قيمة وشأناً رقى بها الى ابراهيم الذي صار يعدّه الآن مؤسس الدين الاسلامي الحق نفسه ، لا مجرد نبي من أنبياء الماضي المتعددين . لقد قرر أن ابراهيم هو الذي أسس الكعبة المقدسة في مكة لابنه اسماعيل ، وسنّ الحج اليها . ولا تحتاج هذه الكعبة ، لكي تشد شداً محكماً الى ملة ابراهيم الأهلية ، إلا إلى أن تُطهر من تلك الانحرافات الوثنية الطارئة عليها في عصرٍ متأخر .

وبهذه الطريقة عين النبي ايضاً الهدف الاول والأبعد شأناً في سياسته الخارجية ، أعني إخضاع أبناء قومه الوثنيين . ولكن الظروف حالت بينه وبين الشروع في شنّ حملة نظامية مباشرة عليهم . فقد كانت فكرة الشرف العربية القديمة تمسك المهاجرين عن محاربة أخوانهم من قريش ، في حين كان المدنيون غير شديدي الميل إلى تعكير صفو السلم مع جيرانهم الأقوياء . بيد أن القوافل المكية التي كانت تمر بالمدينة لم تلبث أن اثارت الرغبة في الغنيمة عند فقراء المؤمنين الذين عرفوا طعمَ الفاقة الملحّة ، بوصفهم

مهاجرين الى المدينة المزدحمة بالسكان ، والذين ظل النبي يذكرهم بالمظالم التي نزلت بهم . والمفروض أن محمداً قد قام بعدة محاولات مخفقة لاعتراض هذه القوافل ، منذ السنة الأولى وأوائل السنة الثانية للهجرة . حتى إذا كان شهر رجب الحرام وجّه جماعة من الغزاة ، باوامر سرية ، فوفقت الى مباغته ١٢ قافلة مكية مثقلة بالعروض ، كانت حاميتها العسكرية تتقدمها مطمئنة إلى حُرمة الشهر ، فأصابت غنائم عظيمة عادت بها إلى المدينة . ولكن هذا النقض للقانون الخُلقي القَبلي لم يلبث ان أثار عاصفة من الاستنكار في المدينة نفسها ، فما كان من محمد إلا أن انكر صنيع اتباعه ، الذي تمّ وفقاً لرغباته ، بلا خلاف ، وعزاه إلى سوء فهمٍ لأوامره . ولم يجرؤ على إعلان شرعية الحرب ضدّ المشركين ، وتوزيع الغنائم ، حتى في الشهر الحرام ، إلا في آيات متأخرة ، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية . *

---

(١٢) في وادي نخلة شرقي مكة.

(*) لقد عرض لرسول الله أن يقاتل في الاشهر الحرم على أساس واحد : « لا يجوز » ان يبدأ المسلمون القتال في الشهر الحرام ولكن « يجب » أن يدافع المسلمون عن انفسهم حتى في الشهر الحرام . إن القرآن الكريم يذكر ذلك صراحةً ولكن المؤلف يحب ان يتهكم فقط ويعلل الأمور تعليلاً ناقصاً . جاء في القرآن الكريم :

(البقرة ١٩٤ وما بعدها) : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ... ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ..... الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ... الخ .

فبدء القتال في الشهر الحرام إذن حرام، ولكن رد العدوان واجب. [ع.ف]

وبعد شهرين اثنين سنحت فرصة أخرى للهجوم على المشركين. وتفصيل ذلك أن القافلة الشامية العائدة من غزّة، والـــتي أسهمت فيها جميع المصالح التجارية المكيّـــة تقريباً، كانت في طريقها الى مكة. وكان على رأس هـذه القافلة ابو سفيان، زعيم البيت الأموي. فأمر محمدٌ ثلاثمائة متطوّع، من المهاجرين والانصـار، بالأغارة على القافـــلة. ولكنّ أبا سفيان كان مستعداً لمثل هذه الغارة، فقاد رجاله على طول الساحل في طريق غير الطريق المعتادة. ثم إنه بعث رسولاً خاصاً فأنـــذر المكيّين بالخطر المداهم، فانطلقوا إلى الطريق الشمالية، وعددهم في ما تقول الروايات يبلغ ثلاثة أضعاف عدد المسلمين. واعتزم محمدٌ ان يتربص لأبي سفيان في بدر، وهو موضع عـــلى طريق القوافل، ذو ماء سائغ للشاربين. وبدلا من أن يجد حامية ضعيفة ألفى جيشاً قوياً كامل العدة يخرج للقائه. وكان عـــلى النبي أن يحشد جميع قواه المُلْهِمَة ليحمل أتباعه على خوض هذه المعركة التي لم تتكافأ فيها القوى. حتى إذا وفق الى ذلك، استطاعت روح الطاعة والنظام التي اكتسبها أتباعه من شعائرهم الدينية اليومية، أن تُحرز النصرَ على التفوق العددي الذي كان للمكيّين، غير المنظمين.

وكان لهذا الفوز الاول أثرٌ معنوي عظيم جداً. لقد فجعت كل اسرة من الاسر المكيّة تقريباً بأحد أفرادها، فهي تندبه وتبكيه، أو منيت بأسر احـــد أعضائها فهي مضطرة إلى أن تفتديه. وفي

المدينة ، قوّى هذا الفوز من نفوذ النبيّ شيئاً كثيراً ، وساعده على أن يتخذ إجراءات حازمة ضد مناوئيه ، الذين كان عليه ، حتى ذلك الحين ، أن يتحمل أذاهم ، ويصبر عليه . ومن هنا صار على اولئك المدنيين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية أن يدخلوا في الاسلام . وليس من شك في أن كثيراً منهم قد أسلموا ، ولما يدخلِ الايمان في قلوبهم . ولقد ظلّ هؤلاء المنافقون مصدر قلق للنبي فترة من الزمان .

وكان موقف النبي من اليهود أقسى وأعنف . وكان على بني قينقاع ، وهم من الصاغة ، أن يستشعروا ، قبل غيرهم ، قوّته وحزمه . فلم يكد ينقضي شهرٌ على معركة بدر حتى وجّه محمد رجاله عليهم – لقتلهم ، في الظاهر ، رجلاً مسلماً كان قد قتل يهودياً إثر خلاف جرى بينهما – فاضطرّهم إلى الاستسلام ، بعد أن حاصرهم في حيّهم عدة أسابيع . وكان محمدٌ قد أصدر حكمه بالقضاء عليهم ، ولكنه عدَل عن ذلك ، بناء على توسط سيد الخزرج ، إلى إخراجهم من ديارهم والاستيلاء على جميع ممتلكاتهم .

موقعة احد

وواصل المسلمون هجماتهم على قوافل المكيين التجارية . فما كان من هؤلاء إلا أن وطنوا النفس ، مع جيرانهم بني ثقيف اهل الطائف ، وبعض القبائل البدوية ، على أن يثأروا لهزيمتهم في بدر ، فجمعوا جيشاً قوياً جداً – بالنسبة الى ظروف العرب آنذاك – يبلغ عدده ، على ما تقول الروايات ، ثلاثة آلاف رجل ، بينهم

سبعمائة دارع ، ومائتا فَرَس ، وثلاثة آلاف بعـــير . وإذ كانوا يصطحبون في هـذه الغارة جمهرة من النساء ومتاعاً كثيراً ، فقد اضطروا الى أن يتقدموا في أناة بالغة . حتى اذا وافت سنة ٦٢٤، وصلوا الى السهل المنبسط من شمالي المدينة ، إلى جبل أحُد ، على مسافة نصف ساعة من البلدة . وعلى الرغم من أن محمداً اعتزم بادىء الرأي، حسب وصية سيد الخزرج ، ان لا يبرح المدينة حتى يقبل المهاجمون، فأنه لم يلبث ان ساير روح رجاله الحربية، فاقتنع بضرورة الهجوم. ولكن همة المؤمنين ما لبثت ان اعتورها الضعف أمام هذا الجيش القوي ، ومع ذلك فقد أصرّ النبي على خوض المعركة في الميـدان الطلق ، ولم يعرف اليأس سبيلاً الى نفسه ، حتى عنـدما رأى الى سيد الخزرج ينسحب بثلاثمائة رجل الى المدينـة . وعلى الرغم من هذه البداءة السيئة ، فقد كانت كفة المسلمين هي الراجحة ، اول الامر، فاندفعوا الى معسكر العـــدو نفسه . ولكن الرماة ، الذين كان يفترض فيهم ان يحموا جناح محمـد الايسر ، ما لبثوا ان غادروا مراكزهم واندفعوا مع المنـدفعين ، خشيةَ ان يفوتهم نصيبهم من الغنيمة . وكان خالد بن الوليـــد ، الذي أظهر كثيراً من أعمال البطولة في خدمة الاسلام بعد ، على رأس فرقة الفرسان المكية ، فاغتنم هـذه الفرصة واجتاح ميسرة المسلمين المكشوفة . وهكذا خسر المسلمون تلك المعركة . ولقد أصيب محمد نفسه بجراح طفيفة ، وسرى بين أصحابه نبأ كاذب زعم انـــه توفي ، فأسقط في أيديهم وفقدوا كل قدرة على المقـــاومة . وكان من حسن طالعهم ، ان المكيين عجزوا عن استثمار انتصارهم ، فقنعوا من الغنيمة بالاياب

الى بلدهم ، فرحين بالفوز .

ولم تؤثر هـذه الهزيمة في مركز النبي ، ومكانته عند أتباعه ، خاصة وانهم استشعروا خطأهم اذ لم يطيعوا الامر الصادر اليهم . ولكنها أثرت في مركزه ومكانته عند البـدو المحليين . وانما يظهر ذلك ، مثلا ، في مقتل اربعين من رسله في ربوع قبيـلة هوازن . وكان على محمد ان يعوّض هذه الخسارة التي أصابت مجده العسكري ، من طريق آخر . ففكر في القضاء على اليهود ، فهاجم بني النضير ، لسبب واه * وحاصرهم في حيّهم . واذ لم يجرؤ اخوانهم في الدين ، من بني قريظة ، ان يسعفوهم ، فقـد اضطروا الى الاستسلام بعد حصار دام بضعة اسابيع . ثم انهم هاجروا الى واحة خيبر ، التي تقع على مسافة عشرين ميلاً شمالي المدينة . والتي كانت تنزل فيها جالية كبيرة من اليهود . ووزع النبي أراضي بني النضير ، على المهاجرين .

وعقب ذلك بقليل ، حرّمت على المسلمين الخمر ، وكانت بعض الآيات (سورة ١٦ : ٦٩) ** قد اشادت بها كعطية من عطايا الله

(*) كانت مهاجمة بني النضير حلقة في سلسلة حروب المسلمين ضد اليهود . ذلك لان اليهود كانوا يتجسسون للمشركين وكانوا يساعدونهم على قتال المسلمين مع ان بينهم وبين الرسول معاهدات على لزوم الحياد . فلما كانوا يخرقون هذا الحياد مرة بعد مرة فقد أراد الرسول ان يجليهم عن مساكنهم حتى يأمن كل شر منهم في المستقبل . [ع. ف.]

** « ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً (بفتح ففتح) ورزقاً حسناً » وجاء في « جامع البيان في تفسير القرآن » للطبري (مصر ، ١٣٢١) ج ١٤ ص ٨٢ — ٨٥ ما خـلاصته : « قال بعضهم عنى بالسكر الخمر ، وبالرزق الحسن التمر والزبيب » وقال إنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت . [المعربان]

الكبرى. وحُرم الميسر ، او القمار على لحم الابل ، وكان سبباً في إفقار كثير من البدو . والواقع ان تحريم الخمر (سورة ٢ : ٢١٦ وسورة ٥ : ٩٢) كان يهدف الى تقييد الشعراء الذين كانوا كثيراً ما يتغنون بمجالسهم الخمرية المعربدة ، هذه المجالس التي كانت خليقة بان تفسد روح النظام العسكري الصارم الذي أراده محمد لأتباعه . ولكن بعض المسلمين لم يلبث ان خرج على القانون ، فعاقر الخمرة.

حصار المدينة

ووفق المكيون ، في الوقت نفسه ، الى تكوين حِلف عظيم ضد محمد . ففي آذار سنة ٦٢٧ تحرك الى المدينة جيش مؤلف من حوالي عشرة آلاف رجل ، بينهم اربعة آلاف قرشي بقيادة أبي سفيان . وكانت حركة هذا الجيش سريعة فوق العادة ، هذه المرة، مما اضطر محمداً إلى أن يتعجّل الاستعداد لملاقاته في مدى اسبوع واحد . وإذ كان المهاجمون يفوقون جند محمد عدداً فلم يكن ثمة ادنى مجال للتصدي لهم في معركة مكشوفة من معارك الميدان . لقد تعيّن على محمد أن يتربص في المدينة نفسها ويحسّن مواقعه الحربية ، خاصة وأن مثل هذا الوضع يُلزم جميع السكان بالخدمة العسكرية . وكانت المدينة محاطة بصفوف متصلة من المنازل ، من ثلاث جهات ، ولم تكن مفتوحة إلا من جهة الشمال . والمعروف أن محمداً حفر في هذه الجهة – باشارة سلمان ، وكان من قبل مولىً فارسياً – خندقاً عريضاً يقيه وجنوده من هجمات الفرسان . ولم تكن هذه الطريقة الدفاعية مألوفة قبل ذلك ، في بلاد العرب .

ولقد أثارت بلبلة واضطراباً شديدين حتى لقد سميّت المعركة بسببها « وقعة الخندق » . والواقع أنها قد حققت للنبي غايته كاملة غير منقوصة ، فقد احس العدو بوطأة الحصار عليه ، فلم يلبث أن تداخله الضعف والكلال ، لصعوبة حصوله على الأمـــداد في تلك البقاع الجرداء . حتى إذا اخفقت المفاوضات مع بني قريظـة الذين كانوا يسكنون في طرف المدينة بسبب من تردد هؤلاء وتذبذبهم ، ورأى المحاصَرون إلى مواشيهم وأنعامهم ، وهي أثمن ما يملكون ، تبيـــد زرافات زرافات من شدة القيظ ، وطـّنوا النفس على الانسحاب . وفي اليوم نفسه هاجم المسلمون بني قريظة الذين كان سلوكهم غامضاً ، على كل حال . فاستسلموا بعـــد حصار دام اسبوعـــين . وأمر النبي بقتل محاربيهم (وعددهم ستمائة) ، وباسترقاق نسائهم واطفالهم ، ليكون في مصيرهم هـــذا عبرة لأمثالهم .

حديث الافك

وقام النبي ، خلال سنة ٦٢٧ ايضاً ، بحملات عـدة على بعض القبائل البدوية ، ولقد أبعد في إحداها حتى لقاربَ مكة . وكانت هذه الغزوات آمنة الى حد ساعده على ان يصطحب فيها اثنتـين من أزواجه . فاتفق مرة أن أضاعت زوجه المفضّلة ، عائشة بنت ابي بكر – وكانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها – قلادتهـا فخرجت تبحث عنها مساء ، ففاتتها قوافل الغزاة ، ولم تعـد إلى المعسكر إلا في اليوم التالي ، وبرفقتها شابٌ كانت قد عرفته من

قبل .* وتطرق الشك ، في إخلاص عائشة ، الى نفس النبي، فردها الى بيت أبويها ،ولكن الله لم يلبث ان برّأها ، بعد شهر واحد ،في إحـدى الآيات الموحاة الى النبي ، مضيفاً في الوقت نفسه أن أي اتهام لامرأة بالخيانة الزوجية لا يؤيده اربعة شهود عيان يُعتبر فرية أو قذفاً يستحق عليه صاحبه مائة جلدة . وكان عليّ صهر النبي،أحد خصوم عائشة الذين ألحوا عليه في طلاقها . وليس من شك في أن جذور العداء الذي تكشفت عنه عائشة لعلي ، بعد ان استخلف على المسلمين ، ترجع الى هذه الحقبة . ومهما يكن من شيء ، فلم يكن لحادثة العقد هذه أدنى تأثير في وضع المرأة الاجتماعي في الاسلام ، كما قد يظن : فالحجاب الذي تصطنعه النساء المتزوجات كان عـادة عربية قديمة وكان النبي قد فرضه،قبل هذه الحادثة،لاسباب اخرى . والواقع أن الحجاب لم يحل بين النساء ، في الجاهلية وفي الاسلام أيضاً ، حتى عهد الامويين ، وبين الظهور في الناس في كثـير من الحرية،والتأثير في المجتمع العربي تأثيراً مذكوراً في بعض الاحيان. إن مؤسسة « الحريم » التي وضع قواعدها العباسيون عـلى غرار النموذج المسيحي – البيزنطي هي وحدها المسؤولة عن انحطاط المرأة في الشرق .

الحديبية

ومنذ ان اعترف محمد وهو في المدينة ، بقداسة الكعبة ، اصبح

---

* ان كل تاريخ — وتاريخ الاسلام على الاخص — كان عرضة لمؤآمرات وافتراءات كثار هذه واحدة منها . [ع . ف .]

الاستيلاء عليها هدفه السياسي الاسمى . وليس من شك في أنه قد حاول اول الأمر ، أن يعتمر مع أتباعه سنة ٦٢٧ . وعلى الرغم من ان حلفاءه البدو خيبوا آماله فلم يجيبوه الى ما كان يرغب فيه من مرافقتهم ، فقد خرج الى مكة في ثياب الحج على رأس الف وخمسمائة رجل ليس معهم من السلاح إلا سيف واحد . حتى إذا صار على مسافة عشرة أميال من مكة علم ان المكيين وأحلافهم قد رابطوا أمام الباب الشمالي، وبعثوا بفرسانهم في طريق المدينة. فلم يكن من محمد إلا ان اتجه غرباً ، وغافل طلائع الفرسان سالكاً طريقاً مختصراً حتى وصل الى الحُدَيبية ، على تخوم المنطقة الحرام وهناك عسكرَ ، وشرع في مفاوضة المكيين ،باعثاً الى مكة صهره عثمان الذي كان ، بوصفه اموياً ، ذا نفوذ عظيم . وانقضت ثلاثة أيام من غير ان يرجع عثمان فسرت شائعة بأنه قتل . وعلى الرغم من ان محمداً لم يكن مستعداً للمعركة فلم يكن في وسعه أن يرى الى المكيين يخرقون القانون القبلي على هذا الشكل دون أن يثأر للقتيل. فدعا أصحابه الى البيعة فجددوا عهدهم له ، تحت شجرة كبيرة ، فعرفت هذه البيعة ببيعة الرضوان وصارت بعد مفخراً يعتز به من تشرف بها . ولكن تلك الاشاعة لم تلبث ان تبين بطلانها ، واظهر المكيون رغبة أكيدة في الوصول الى اتفاق سلمي . فبعثوا رسولاً من قبلهم الى معسكر النبي. فعقد النبي معه صلحاً مدته عشر سنوات. وكان على النبي ، بموجب هذا الصلح أن يرجع من عامه فلا يدخل مكة ، حتى اذا كان العام القابل دخلها مع المسلمين ، وكان على المكيين مقابل ذلك أن يخلوا مدينتهم ثلاثة ايام في العام حتى يستطيع

المسلمون ان يؤدوا حجتهم في طمأنينة وأمن . ولقد تعهد محمد بأن يرد على قريش كل من يجيئه من شبابها ، طوال مدة الصلح ، من غير إذن وليه ، في حين ان من جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه اليه . والواقع ان هذا التنازل قد زاد في غيظ المسلمين ، خاصة وان محمداً قد رضي عند كتابة وثيقة الصلح بأن يُغفل النص على صفته كرسول الله . ولكن المستقبل ما عتم ان برر موقفه هذا . صحيح أنه ، على اساس هذه المعاهدة ، قد رد الى بني زهرة أحد مواليهم ولكن هذا الاخير لم يلبث أن قتل ، في الطريق الى مكة ، احد الرجلين اللذين كانا يحرسانه ، وفر الى الساحل . فما كان من اللاجئين المكيين الكثر ، الذين كانوا في الوضع نفسه ، الا ان اجتمعوا تحت قيادته وطفقوا يهاجمون القوافل المكية . فلم يجد المكيون بداً من أن يطلبوا هم إلى النبي أن يلغي تلك المادة الخطرة من المعـــاهدة ، وان يتولى أمر هؤلاء العُصاة بنفسه .

وفي نوّار من سنة ٦٢٨ حـــاول النبي أن يعوّض من فشله الظاهري * في الحديبية ، فقاد المسلمين في حملة على المستعمرة اليهودية الغنية في خَيبَر . فاستعان اليهود بأربعة آلاف بدوي من غطفان لحمايتهم ، حتى إذا جَبُن أهل خيبر عن مواجهة النبي في ميدان المعركة ، وآثروا أن يعتصموا في حصونهم ، لم يكن من الغطفانيين إلا أن انسحبوا بدورهم . وإذ كان المسلمون غير مزوّدين بالسلاح الذي يقتضيه الحصار فقـــد عجزوا باديء الأمر عن التغلب على اليهود . ولكن الحيانة مكّنتهم أخيراً من أن يدخلوا أحد الأحياء .

(*) راجع الحاشية الأولى على ص ٦٠ [ع. ف.]

عندئذ أفادوا من السلاح الذي وجدوه هناك في مهاجمة الحصون الاخرى، فاستسلم اليهود وصالحهم النبي على ان يخرجوا مع نسائهم واولادهم ، ويخلّوا له جميع ممتلكاتهم . ومهما يكن من أمر ، فقد بدا للنبي ، بعد ذلك ، أن من الخير أن لا يقيم المسلمون بعيداً عن المدينة ، لما في ذلك من إضعاف للجماعة الناشئة ، فسمح لليهود باستثمار اراضيهم على ان يدفعوا نصف ما يخرج منها للمسلمين . ولم يلبث يهود فدك ، ووادي القرى ، وتيماء أن استسلموا بالشروط نفسها ، من غير مقاومة حيناً ، وبعد مقاومة يسيرة حيناً ، ولكن النبي ضم فدك إلى ملكه الخاص .

وكان في ميسور محمد ، بحكم المعاهدة، أن يدخل مكة في موسم الحج القابل . ومع ان المشركين من المكيين غادروا البلدة ، فقد ظل فيها ذوو قرباه وعلى رأسهم عمه العباس . ولقد تركت هذه الحجة انطباعة قوية في نفوس اعداء محمد حتى لقد توجه عدد من زعمائهم الى المدينة ، سنة ٦٢٩ ، فأعلنوا اسلامهم ، نخص بالذكر من هؤلاء خالد بن الوليد بطل أحُد ، الذي عُرف بعد بـ «سيف الاسلام» وعمرو بن العاص الأموي، أول أمير على مصر، فيما بعد.

العلاقات مع البيزنطيين في مصر وسورية

واسترعت هذه القوة العربية ، الناشئة حديثاً ، انتباه حكام الولايات البيزنطية المجاورة . وكان البيزنطيون قد انتزعوا مصر ، منذ قريب ، من أيدي الفرس الذين استولوا عليها في عهد الامبراطور هرقل . فبعث كورش ، حاكم مصر البيزنطي الجديد

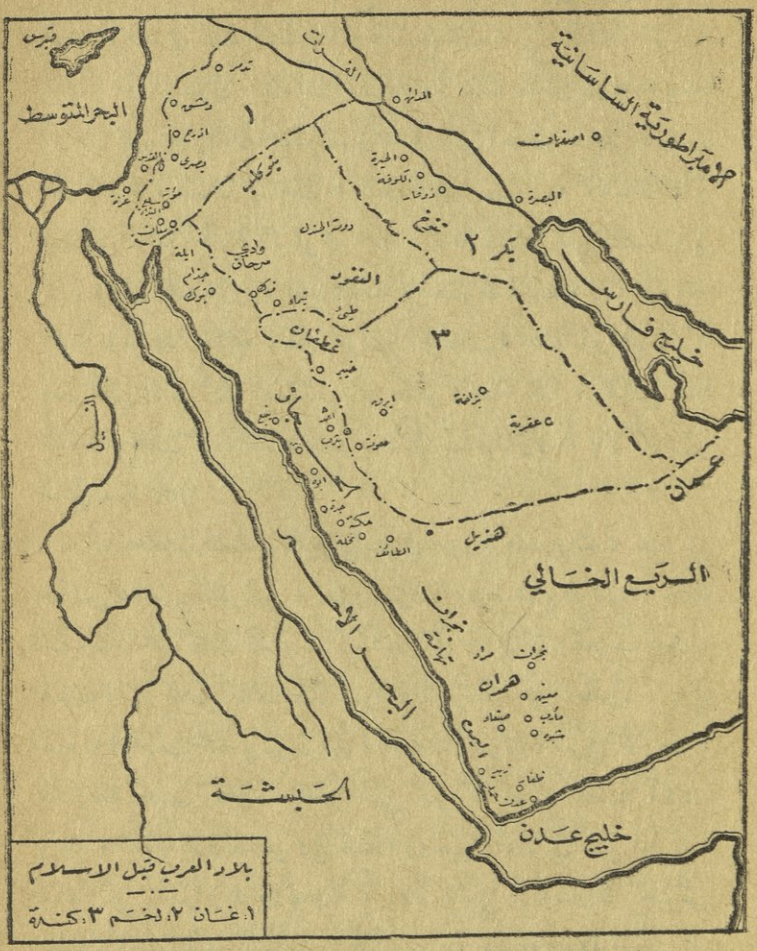
الإمبراطورية الساسانية
قبرص
البحر المتوسط
الفرات
الحيرة
الكوفة
البصرة
أصفهان
بكر
تغلب
دومة الجندل
القصيم
١
٢
٣
خليج فارس
عمان
الربع الخالي
الحبشة
خليج عدن
بلاد العرب قبل الإسلام
١: غسان ٢: لخم ٣: كندة

(الذي دعاه عرب الاسكندرية « المقوقس » متوهمين ان هـذا اللفظ لقب من القاب الحاكم مع انه اطلق على سبيل التهكم على البطريق الذي كان يضطلع ايام الفتح الاسلامي بالسلطة الزمنية أيضاً) الى الرسول - بعد ان استطلع ولا شك حقيقة ذوقه - بهدايا كثيرة بينها جاريتان جميلتان. واهدى النبي احدى هاتين الجاريتين الى شاعره ، حسان بن ثابت ، الذي كانت مهمتـه الاشادة بمآثر المسلمين . اما الجارية الاخرى ، مارية ، فاستبقاها النبي لنفسه وبنى بها . وكم كان سروره عظيما عندما وضعت له غلاماً ، لان ازواجه جميعاً ، ما عدا خديجة ، بقين عواقر . ولقـد سماه ابراهيم تيمّناً باسم النبي الذي كان يستشعر انه مدعو لاحياء ملته ، ولكن هذا الغلام لم يلبث أن مات ، وهو بعدُ في سنته الأولى ، ٢٧ كانون الثاني سنة ٦٣٢ .

أما علاقات المسلمين بالبيزنطيين في سورية فتطورت ، عـلى عكس علاقتهم بالمقوقس ، تطوراً يؤذن باصطـدام قريب . ذلك ان رسالة محمد كانت تغزو قبائل البدو في شمالي بلاد العرب ايضاً، فكان لا بدّ له من الاحتكاك بالمواقع البيزنطية على الحدود . وفي سنة ٦٢٩ بعث محمد برسول الى قائد قلعة بصرى ، شرقي الاردن ، فاعترضه بعضهم وقتلوه . فجهز النبي سَرِيّة عِدتها ثلاثـة آلاف رجل ، ابتغاء الاقتصاص ممن قتله ، ووجهها شمالا في شهر ايلول ، جاعلاً على رأسها زيد بن حارثة ، ابنه بالتبني . وسارت جيوش الحدود الغسانية على المسلمين ، فالتقتهم على مسافة بضعة اميـال شمالي المدينة ، فنشبت بين الفريقين معركة كان النصر فيها حليف

المؤمنين . ثم إنهم اندفعوا إلى الشمال حتى بلغوا مؤتة ، قرب الطرف الجنوبي من البحر الميت . وهنا التقى المسلمون بجيش كثيف كان قد حشده الروم تحت قيادة البطريق ، [اي القائد] ثيودوروس وكان عدد الروم يفوق عدد المسلمين إلى حد بعيد ، فلم تكن المعركة متكافئة ، على الرغم من شجاعة المسلمين البالغة . وبعد أن قتل زيد ، وقتل بعده رجلان * كان محمد قد عينهما خلفين له في القيادة ، أخذ الراية خالد بن الوليد فأفرغ جهده في تخليص المسلمين ، بعد ان نهكهم التعب ، وصار يتأخر بهم قليلا قليلا إلى المدينة . ثم إن النبي حاول ان يخفف من الأثر السيء الذي خلّفته هذه الهزيمة ، فوجّه ، بعد مدة وجيزة ، عمرو بن العاص لقتال البدو في الصحراء الشمالية فأبلى عمرو بلاء حسناً ، ودخلت معظم هذه القبائل في الاسلام ، في العام نفسه .

فتح مكة

وكان القرشيون قد يئسوا ، منذ زمان ، من التغلب على النبي مرةً ثانية ، فهم يحصرون اهتمامهم بالمحافظة على صلح الحُديبية حتى لا تتعرض تجارتهم لأخطار جديدة ، بعد الذي مُنيت به من نكبات . أما محمد فكان يترقب الفرص ليصفي حسابه معهم ، جملة واحدة . واتفق أن نشأت مشادة بين احدى القبائل البدوية الداخلة في الاسلام وبين بعض مشايعي قريش ، اشترك فيها على ما يقال نفر من أهل مكة . وهكذا رأى محمد نفسه في حلٍّ من

(*) هما جعفر بن ابي طالب وعبد الله بن رواحة [المعربان]

صلح الحديبية بعد أن نقضته قريش .

وفي رمضان من السنة الثامنة للهجرة ، مطلع سنة ٦٣٠ للميلاد توجه محمد إلى مكة في جيش عظيم من المدنيين والبدو تبلغ عدّته عشرة آلاف رجل . حتى إذا أصبح على منتصف الطريق الى مكة خرج اليه جماعة من اهلها ، وفيهم عمه العباس ، وانضووا تحت لوائه . ولم يتخلف في مكة إلا فئة قليلة اعتزمت أن تقاوم المسلمين مقاومة جدية . وبينما الرسول يعسكر بمر الظّهران ، شمال غربي مكة ، جاءه ابو سفيان نفسه ، الذي كان من قبل قلب المعارضة ، وأسلم . فأمن الرسول أسرته وجميع من دخل داره ومن اغلق عليه بابه ، ثم رجع إلى مكة ، فنصح لأهلها أن لا يعارضوا النبي في الدخول اليها ، فوجدت نصيحته أذناً مصغية عند مواطنيه ، ولم يتمسك بنظرية الحرب إلا نفرٌ ضئيل من المتعنتين . وأمر محمدٌ جنوده بالتقدم إلى مكة من جهتين ، في وقت معاً ، فلم يلقوا شيئاً من المقاومة الا عند الباب الجنوبي ، الذي كان يحتله حزب الحرب ، ولعلهم احتلوه للاحتفاظ بخط الرجعة فيشقون طريقهم منه الى اليمن ، ولكن خالد بن الوليد قضى على هذه المقاومة في يُسْر كثير . وهكذا القت مكة بنفسها ، دونما صراع جدّي ، على قدمي ابنها العظيم الذي آذته واتباعه ، قبل ثماني سنوات ، واضطرتهم الى الهجرة .

وعندما بلغ محمدٌ الكعبة طاف بها سَبْعاً على راحلته ، لامساً الحجر الأسود بعصاه في كل مرة . وبذلك ضمّ هذا الطقس الوثني

الى دينه . ثم انه امر بأزالة ما في الكعبة من الصور والتماثيل وتحطيمها ، وطلب الى المكيين ان ينزعوا ما قد يكون في بيوتهم الخاصة من صور وتماثيل ويسلموها الى المسلمين ، على الرغم من انه لم يعتبر قبول مواطنيه الاسلامَ امراً واقعاً بعد . ولم يعاقب بالقتل من خصومه القدماء الا افراداً قلائل ذوي جرائم خاصة بهم ، بينهم مغنيتان سبق لهما ان أنشدتا بعض الاغاني في السخرية به ؛ مُظهراً من التساهل والتسامح مع الآخرين قدراً عظيما أثار حسد المدنيين ، على الرغم من ان الايام لم تلبث ان برهنت لهم ان تخوفهم من بقاء النبي في مكة كان في غير محله .

موقعة حنين

بيد ان النبي لم يسعد بهذا الظفر ، في مكة ، الا خمسة عشر يوماً . كانت سحابة مشحونة بالخطر تجتمع في هذه الاثناء ضدّه . فقد تحالف بنو ثقيف اهلُ الطائف — وهي المدينة التي تقع الى جنوب مكة مباشرة — مع انسبائهم بطون هوازن المنتشرين انتشاراً واسعاً في نجد ، فألّفوا جيشاً من ثلاثين الف مقاتل — وهو عدد هائل ، بالنسبة الى ظروف العرب يومذاك — وعسكروا في أوطاس ، فلما خرج محمدٌ اليهم هاجموه في حُنَين ، وشدّوا عليه شدّة رجل واحد . وكان البدو يؤلفون مقدمة جيش محمد فتراجعوا ، اول الامر ، ولكن قوّاته المدنية المختارة أبت إلا الثبات في وجه الاحلاف الذين يفوقونها عدداً . ومهما يكن من أمر ، فقد وُفّق معظم المقاتلين من هوازن الى الفرار الى الطائف ،

لان البدو ذكروا في أحرج الاوقات صلات الدم والقربى التي تشدّهم بالاعداء فلم يجدّوا في اثرهم . ولكن غنائم معسكرهم الوافرة سقطت في ايدي المنتصرين ، فكان فيها ما ساعد النبيّ بعدُ على تأليف قلوب المكيين الداخلين حديثاً في الاسلام ، من طريق العطايا والهبات .

حصار الطائف

وكانت خطط النبي ضد الطائف نفسها أقلّ نصيباً من النجاح . فتقدّم ، في غير ما ابطاء ، ومن غير ان يفرغ لتقسيم الغنائم ، من ميدان المعركة في حُنين ، الى خارج اسوارها مباشرة . ولكنّ ثقيفاً واجهته بمقاومة عنيدة لم يكن في طوقه القضاء عليها ، بعد ان اشتعلت النيران في آلات الحصار البدائية ، التي كان يستعملها فحطمتها . وما هي الا ثلاثة اسابيع حتى اطّرح محمد هذا المشروع المملّ ، ورجع الى الغنائم التي كانت مكدسة في معسكر قرب ميدان المعركة . وكان عدد من البدو الذين سبق لهم ان فروا الى الطائف ، قد اجتمعوا هناك ليفتدوا اقرباءهم ويستعيدوا ممتلكاتهم مقابل الدخول في الاسلام . وهكذا استطاع النبي في سهولة ويسر ، ان يترك الوثنيين محصورين في الطائف ، ويعهد بالتضييق عليهم الى حلفائهم السابقين .

وبعد ان رجع النبي الى المدينة ، اخذت الوفود تقبل عليه من جميع القبائل البدوية تقريباً ، خلال السنتين اللتين تلتا ، معلنةً اسلامها طوعاً واختياراً . ولم يُضطرّ في هذه الفترة ، الا

في القليل النـــادر ، الى ان يشنّ حملات تأديبيـــة اثئاراً لرُسله الدينيين او لجباة الضرائب المسلمين في حال الاعتداء عليهم. وفي سنة ٦٣٠ استسلمت الطائف ايضاً بعد ان شدد البدو عليها الخناق، وانتهى أمر بني ثقيف فيها الى الجوع والاستجداء . وعبثاً حاول رسلهم الذين جاؤوا معلنين استسلامهم ان يلتمسوا مهـــلة قصيرة لألاهتهم ، اللات ، فقد أبى النبي ذلك عليهم اشد الاباء . ثم إن أحد افرادهم ، المغيرة بن شعبة ،الذي سبق له أن قصد الى المدينة ، والذي سنراه بعدُ انتهازيا لا ذمـــة له ولا ذمام ، كلف بتحطيم صنم إلاهة البلدة . ومن ذلك الحين انقضت مقاومة الوثنية للنبي ، من الوجهة الروحيـــة . وانما خضع العرب لسلطانه السياسي كقبائل مفردة . حتى بعض النصارى في بلاد العرب الشمالية نزلوا عن دينهم في سهولة ويسر ، على الرغم من ان كنيسة نجران ، في جنوبي بلاد العرب — التي سبق لهـــا ان برهنت عن تعلقها بايمانها خلال فترة الاضطهاد العنيف في ظل احد ملوك اليمن اليهود — قد عضت هذه المرة ايضاً على نصرانيتها بالنواجذ . ولقد استنفد النبي كل ما اوتيه من قوة الحجة ليقنع اسقف هذه الكنيسة ، ابا الحارث ، والامير عبد المسيح ، بالدخول في الاسلام ، وكانا قد قدما المدينة لمفاوضته وجهاً لوجه ، فلم يوفق الى ذلك . واخيراً اكتفى محمد بان يعقـــد معهما معاهدة تمنح نصارى نجران حرية المعتقد، مقابل جزية ضخمة .

محمد والشعراء

والحق ان النبي انتهى ، في هذه الفترة ، الى ان يبسط سلطته الجازمة على رقاع واسعة من بلاد العرب . وإنما يتجلى لنا ذلك من

اعتراف معظم الشعراء الكبار ، في تلك الفترة ، بسلطانه . ونحن نعرف ان الشعراء لم يكونوا في العهد الوثني مفخرة قبائلهم فحسب بل كانوا يلعبون ادواراً سياسية هامة ايضاً ، من طريق مقدرتهم البيانية. ولقد دخل في الاسلام اثنان من أشهر شعراء ذلك العصر ، هما لبيد والاعشى . وكان لبيد قد حظي بشهرة واسعة ، حتى في ايام شبابه ، كناطق بلسان قبيلته ، كِلاب ، احدى قبائل هوازن. ولقد كان في جملة اعضاء الوفد الذي وجهته تلك القبيلة الى المدينة ، سنة ٦٣١ ، ليفاوض في مسألة الانضمام الى الجماعة السياسية الجديدة ، وفي ذلك الحين أعلن اسلامه . والواقع ان قصائد لبيد كانت تتميز دائماً بنفحة دينية ، فلما أسلم غلبت على شعره مسحة الدين ، فجاء نموذجاً للشعر الديني الاسلامي. أما الاعشى الذي جاب اطراف بلاد العرب كلها كشاعر طوّاف يتكسب بشعره المدحي ، ينظمه في الامراء المختلفين ، فقد مدح النبي في قصيدة عصماء ، وان تكن صحة روايتها ، كما وصلت الينا ، موضعاً للاعتراض . ولم يكن النبي ، في أعماقه ، شديد الميل الى شعرهما ، باعتبار ان الشعر من اجمل مظاهر الحياة الوثنية القديمة. صحيح انه هو نفسه قد اصطنع شاعراً خاصاً ، هو حسان بن ثابت الذي سبقت الاشارة اليه ، ليردّ على بلغاء البدو في اسلوبهم نفسه ، ولكنه كان شديداً على الشعراء الذين يجرأون على تسخير شعرهم للاساءة الى الاسلام . وكان كعب بن زهير — وزهير هذا من أعظم الشعراء في الجاهلية — يحيا آنذاك مع قبيلة مزينة . وكان قد ورث فن ابيه الشعري ، ولاحظ في كراهية انتشارَ الدين الجديد ، الذي نفذ بتكاليفه الثقيلة نفاذاً

عميقاً الى تقاليد الحيـــاة . فلما دخل اخوه بُجير في الاسلام ازداد غماً على غمّ ، وأطلق لمشاعره العنـــان في قصيدة ساخرة مريرة . ولم يكن في وسع النبي ان يترك كعباً بلا عقاب ، فأهدر دمه، فهو في خطر دائم الى ان يُوفق لنيـــل العفو من الرسول . ثم انه أفرغ كامل براعته الفنيـــة في قصيدة رنانة مدح بها سيد العالم العربي الجديد ، وقصد الى المدينة فوفق الى دخولها سالماً ، وراح يلتمس الوسيلةَ للمثول بـــين يدي محمد، فحظيَ آخر الامر بذلك . وعلى الرغم من أن قصيدته كانت مطبوعة على غرار الشعر القديم تماماً ، وخالية من اي نفحة دينية أو نَفَسٍ روحي فقـــد تركت أثراً عميقاً في نفس محمد حتى لقد خلع عليه بُردته الخاصة ؛ وكانت البردة في بلاد العرب ، كما كانت في فرنسا خلال العصور الوسطى ، كثيراً ما تقدّم جائزة للشعراء والمغنين . والواقع أن كعباً كان شديد الاعتزاز بالهدية النبوية فرفض النزول عنها ، حتى عندما قدّم له الخليفة معاوية ، بعدُ ، عشرة آلاف درهم فيها ، فكان على معاوية أن ينتظر حتى يتوفى كعب فيشتري البردة المباركة من ورثته . ومن ذلك الحين صارت تحفظ في خزانة امير المؤمنين ، بوصفها احدى النفائس الغالية التي تضمها هذه الخزانة ، في دمشق اولا ، ثم في بغداد حتى عام ١٢٥٨ عندما التهمتها السنة النيران اثناء غزو المغول للعاصمة العبّاسية .

تبوك

ولم يُقدّر لمحمد نفسه أن يخوض غمرات القتال من جديد إلا مرة واحدة . ذلك بأن الهزيمة التي انزلها البيزنطيون بجيوشه ، في مؤته،

ظلت على كل حال بلا ثأر . ومن هنا أمر أصحابه ، في أشد ايام الصيف قيظاً من سنة ٦٣٠ ، بأن يحملوا على البيزنطيين . ولسنا نعرف على اليقين ما الذي دعاه إلى انتهاج هذه السبيل في ذلك الوقت بالذات ، فقد يكون قصد الى ان يشغل اتباعه المدنيين الذين كانوا لا يزالون في حالٍ من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم « حُنين » . ولعله كان يرجو إخضاع ما بقي من نصارى العرب ، الذين كانت بيزنطة من ورائهم ، تمدّهم وتساندهم . ثم إنه خرج بجيش عظيم يبلغ عدد رجاله ثلاثين الفاً ووجهته الشمال ، حتى إذا بلغ تَبوك ، وهي واحة تزهو بما ينبت فيها من حنطة ونخيل ، قرب الحدود البيزنطية ، توقف بعد أن نال منه الجهد ، واستشعر وطأة السنّ العالية ، ولعله اقتنع بأن خططه للهجوم على الروم أمست غير ذات غناء . وهناك جاءه صاحب أيلة (العقبة اليوم) عند الطرف الشمالي الشرقي من جانب البحر الأحمر الايمن ، وكان نصرانياً ، فأقسم له يمين الطاعة ، فمنح الرسول نصارى تلك المنطقة حرّية العبادة ايضاً مقابل تعهدهم بأداء الجزية .

وكان على الوثنية أن تخسر ، وشيكا ، آخر معاقلها . فبعد فتح مكة ، تحمّل النبي صابراً ، اول الامر ، الاحتفال بموسم الحج على الطريقة الوثنية القديمة . وفي سنة ٦٣٠ أرسل ابا بكر من المدينة الى مكة كأمير للحاج ، ولعله قصد بذلك إلى أن يتجنب شهود الاساليب الملتوية الشائعة هناك ، فيكون في شهوده لها معنى إقرارها . حتى إذا فرغ الناس من حجهم وانتهوا الى مِنى ، تلا عليهم عليٌّ صهر النبي ، بأمر منه ، نصاً شرعياً لا يزال محفوظاً في

مطلع السورة التاسعة من القرآن ، وبه تبرّأ النبي، نهائيـــاً، من المشركين : فلن يجوز ، منذ اليوم ، لكائن غـير مؤمن أن يؤدي الحج داخل المنطقة المقدسة، أما العهود التي عقدها النبي مع المشركين فتظل سارية حتى تستوفي آجالهـــا المتفق عليها ، شرط أن يلتزم المشركون نصوصها في دقة . اما من لم يكن لديه عهد من النبي فليس له إلا ان يختار الاسلام ، او القتال حتى الموت . وكان للوثنيين أن ينقلبوا الى منـازلهم ، آمنين مطمئنين ، إلى ختام الاشهر الحُرُم ، فاذا انسلخ الاشهرُ الحُرُم فعندئذ يتعيّنُ على المسلمين ان يقاتلوهم حيث وجدوهم . والحق ان هذه البراءة كانت فعالة . فلم يضطر المسلمون ، الا في الاحوال النادرة ، الى ان يلجأوا الى اصطناع القوة ضمن بلاد العرب نفسها .

حجة الوداع

وفي أواخر السنة العاشرة للهجرة ، ربيع سنة ٦٣٢ ، أصبح في وسع محمد ان يعتبر ان رسالته في بلاد العرب قد تحققت . والدلالة على ذلك حج الى مكة مع نسائه جميعاً وعدد عظيم من المؤمنين ، حجة الوداع ، كما تسمى في كتب السيرة . ولقد نقل الينا المسلمون كل ما قام به النبي من أعمال ، صغيرة كانت أم كبيرة ، في تلك الايام ، بدقة واسهاب . وانما يعتبر المسلمون هذه الحجة، الى اليوم، نموذجاً يحتذونه في اداء الشعائر المقدسة اداء صحيحاً . والمفروض ان محمداً القى في اليوم الثاني أو الثالث خطبة في الناس احدث فيها، بصورة خاصة ، تقويماً قمرياً يتألف من اثني عشر شهراً ، وفرض فرائض الاسلام الاساسية على المؤمنين .

ولم يكد النبي يقضي حجه ويرجع الى المدينة حتى أخذت مختلف الانباء المقلقة ترشح اليها . ففي أواسط بلاد العرب أعلن مسيلمة ، أحد زعماء بني حنيفة ، العصيان ، وبعث الى النبي برسالة وقحة يسأله فيها أن يعترف بأن له من الحقوق مثل ما له . كذلك ظهرت في الجانب الشرقي الاقصى من الجزيرة ، حيث بنو أسد ، حركة مريبة . ومع ذلك فقد اجتمع رأي النبي على أن يوجه حملة جديدة ضد البيزنطيين . وفي آذار سنة ٦٣٢ عهد بقيادة الجيوش التي أعدها لمحاربة النصارى ، الى أسامة بن زيد ، أي الى ابن قائد مؤتة الذي قتل في ميدانها . وبينا المسلمون يتخذون الأهبة لهذه الغزوة ، مرض النبي بداء الملاريا ، على الارجح ، وكان من امراض المدينة المألوفة . وعلى الرغم من ان سنيه لم تكن قد تجاوزت الستين ، على الاكثر ، فقد تطرّق الضعف الى نشاطه بسبب من المصاعب التي حفلت بها سنواته الاخيرة ، وبسبب من الحياة الزوجية الواسعة التي عاشها* . وما هي الا فترة قصيرة حتى استأذن نساءه ، وكان يبيت عند كل منهن ليلة ، أن يتمرض في بيت زوجه المفضلة ، عائشة . ثم انه اضطر بعد أن حث المؤمنين الذين أثارهم اختيار أسامة الشاب لرئاسة الحملة ، على الطاعة ، الى ان يتخلى عن الصلاة بالناس ، وأن يعهد بذلك الى حميه وصديقه القديم أبي بكر . وألح المرض على النبي

(*) عاش النبي ثلاثاً وستين سنة . ولا ريب ان المصاعب السياسية والاجتماعية التي حفلت بها سنواته الاخيرة قد أثرت في صحته . أما « الحياة الزوجية الواسعة » فتعبير بعيد عن التاريخ والعلم ، وهو تكهن لا يمكن الوصول الى حقيقته . اضف الى ذلك ان الرسول مرض فجأة وكان مرضه الحمى ، مما لا صلة له بما يذهب اليه المؤلف . [ع . ف .]

واشتد ، فصار يهذي في حال وعيه . وفي يوم الاحد ، ٧ تموز ، حاول ان يملي وصيته الاخيرة ، ولكن عمر رأى من الخير ان يمنعه من ذلك خشية ان يكون في صدور بعض الاوامر عن النبي ، في تلك الحال التي لا تساعد على التفكير الصافي، ما يتهدد بالخطر قضية المسلمين . وفي الليلة التالية زايلته الحمى بعض الشيء ، وبدا النبي في الصباح وعلى أساريره أمارات التقدم نحو العافية . حتى اذا اجتمع المؤمنون للصلاة انطلق محمد من بيت عائشة ليكحل عينيه بمرأى أصحابه كرّةً اخرى . ولكنه لم يكد يأوي الى فراشه حتى عاودته الحمى من جديد ، وأخذته آلام النزع . فلما كان الظهر ، شعرت عائشة بيده ترتخي في يدها . وطرق سمعها لآخر مرة ، دعاء رفيق : « اللهم اغفر لي ، وارحمني ، وألحقني بالرفيق الاعلى * » .

(*) مالك ، « الموطأ » جنائز : ٤٥ [المعربان].

محمّد وتعاليمه

إذا كانت الحماسة الدينية قد غلبت في مكة على محمّـــد الذي أحسّ في ذات نفسه أنه رسول و « نذير » إلى أبناء موطنه ، فقد انتهى في المدينة إلى أن يُصبح زعيم جماعة سياسية ، ورجل دولة موهوباً لا ينثني عن هدفه النهائي ، وهو السيطرة على بلاد العرب ، ولا يجعل للاخفاق الموقّت ، من مثل معاهدة الحُدَيبية ، سبيلا إلى إعاقته عمّا وقف نفسه له . ولقد كان يُعلن أحكامه السياسية ، في المدينة ، بوصفهـــا جزءاً من القرآن * ، أي جزءاً من الوحي الالهي . ولكن كان لا بدّ من تعديل الاسلوب ليتلاءم مع المادة ، بينا ظلت الفاصلة (القافية) — وكثيراً مـا كانت ضعيفة — هي علامة الاسلوب القرآني .

وليس يجوز ان نُطلق الحكم على دين محمد ، على أساس القرآن

---

* كانت الأحكام السياسية اذا نزلت في القران اعتبرت جزءاً منه ؛ أما مفردات خطط النبي وسياسته فكانت أموراً دنيوية بحتاً . وقد سئل في معركة بدر فيما إذا كان ترتيب المعركة ، على الشكل الذي اتخذه ، وحياً من الله أم أنه كان من عنده هو ، فأعلن ان ذلك من عنده هو . ولما اقترح عليه ان يبدل ترتيب المعركة فعل . [ع. ف.]

وحده طبعاً . وليست المسألة مسألة نظام مرتب ، إذ لم تكن الدقة والتماسك الفكري اقوى جوانبه ،على الاطلاق .ولم يكن عالَمُهُ الفكري من ابداعه الخاص إلا إلى حد صغير * . فقد انبثق في الدرجة الاولى عن اليهودية والنصرانية ، فكيّفه محمد تكييفاً بارعاً وَفقاً لحاجات شعبه الدينية . وبذلك ارتفع بهم إلى مستوىً أعلى من الايمان الفطري والحساسية الخلقية .

الجانب اللاهوتي

وإلـٰه محمد هو الرب الاله اولا وآخراً . فمنذ العهد البابليّ والساميّ يتمثل إلهه سيداً عنيداً غريب الاطوار قاسياً لا يُسبرُ غور إرادته لأنها متقلبة غير مستقرة كأرادة طاغية شرقيّ . إنّ الله لا يفرض أحكامه لأنها مقدسة وعادلة ، بل يفرضها لأنه يُسعده أن يفعل ذلك . ففي مقدوره أن يعدّلها أو ينسخها كما يراه موافقاً ، وفي أيّ ساعة يشاء . ولكنّ اله محمد هو إلى ذلك لطيف رحيم . لقد استشعر النبي نفسه هذا اللطف . فعرف أنه تعالى لا يرغب في إرهاق المؤمنين بالفروض الدينية بل يريد أن يخفّف عنهم ، لِما يعلم من أن الانسان خُلق ضعيفاً . (سورة ٤ : ٣٢) . ومهما يكن من شيء ، فليس ثمة من اطّراد في ما يتعلق بهذه الناحية . فأحياناً يُعيّن الله ، من الازل وإلى الأبد ، مَن مِنَ البشر سينال

(*) يبدو من هذا المكان ومن الصفحات التالية ان معلومات بروكلمن ضعيفة في ناحية الفقه والعبادات (وهذا غير مستغرب فالرجل لغوي في الدرجة الاولى) . من أجل ذلك احب ان الفت نظر القاريء الكريم الى التفطن لذلك من غير ان اعلق على كل شيء ، والا اضطررت الى ان ابسط حقائق الدين الاسلامي من جديد .
[ع. ف.]

النعمة والخلاص بواسطة الايمان، ومن سيتسكّع في الكفر ويكون مصيره الهلاك الأبدي ؛ وأحياناً يحاول القرآن أن ينفي إرادة الانسان الحرة . فلا عجب إذا ما وجدنا بعدُ أن أعنف الخلافات الكلامية إنما احتدمت حول هذه النقطة بالذات . وأخيراً سادت العقيدة القائلة بالقضاء والقدر المطلقين، وساد معها الجَبر الذي أمسى منذ ذلك الحين أحد العناصر الأساسية في نظرة الاسلام الشاملة .

ليس هذا فحسب ، بل إن الوحدانية التجريدية التي كانت إلى حدّ كبير أساس قوّة الاسلام على غزو القلوب واكتساب الاتباع لم تنشأ إلا تدريجاً . ولقد سبقت منا الاشارة إلى نزوع النبيّ الأوّليّ إلى الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسية "شفعاءَ عند الله . وفيما كان المفهوم الالهي يتبلور في وجدان محمد كانت بعض الصفات التشبيهية تجد سبيلها إلى هذا المفهوم . ولقد أدّى هذا ايضاً إلى نشوء اختلافات عنيفة في العقيدة ، خرج منها فريقُ السنة ، بما قال به من تفسير ظاهريّ لجميع الآيات القرآنية المتصلة بهذا الموضوع ، ظافراً آخرَ الأمر ، ظفراً يتوافق وروح واضع الشريعة نفسه .

والعقيدة الاساسية الثانية في الاسلام : أن محمداً رسول الله . لقد اقتبس النبي عن التوراة فكرة الخطيئة الاصلية *، وعلّم

(*) الخطيئة الاصلية ، أو الخطيئة المميتة ، أو الخطيئة باطلاق « مفهوم » مسيحي ولا صلة له بالاسلام . إن خروج آدم من الجنة مع حواء لم يحمل الجنس البشري إثماً معيناً. ولقد أخرج آدم من الجنة قصاصاً له هو . أما سائر المسلمين فلا يعذبون عن آدم ولا بسبب آدم . والنبوة في الاسلام ليست نتيجة لخروج آدم من الجنة ، بل هي « ظاهرة اجتماعية » إذ ان الامم تحتاج بين عصر وعصر الى من يهديها ويدلها على الصراط المستقيم. [ع . ف.]

أن الله قد بعث الى كل شعب ، في اوقات معينة - ابتغاء تحذير الجنس البشري من الخطيئة ،وبخاصة خطيئة عبادة الاوثان - برسل اوحى اليهم بمشيئته من طريق المَلَك جبريل . وإنما تنتظم كتب اليهود والنصارى المقدسة هذا الوحي الالهي ، ولكنْ محرّفاً عن مواضعه ، من غير شك. ويُعتبر يسوع (عيسى) الرسول المبعوث قبل صاحب الشريعة الاسلامية . وهو كأسلافه الانبياء قد تنبأ بظهور محمد الذي هو على كل حال خاتم الرسل والنبيين . ولقد بُعث محمد إلى العرب قبل كل شيء ،ولكن كان على دينه الاسلام ، أن يعمل لاحياء ملة ابراهيم الخالصة ،التي حرّفها اليهود والنصارى ، ونَشْرِها في أرجاء العالم كله . وليس من الميسور ان نقرّر ، على وجه الدقة ، ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعوٌ لمثل هذه الرسالة العالمية * ، وفي أية فترة من فترات حياته كان ذلك . وكلمة الله إلى محمد هي القرآن . ولقد كان هذا الاسم يطلق ، اول الأمر ، على كل قطعة مفردة من الوحي ، ولم تُستعمل هذه اللفظة (ومعناها : القراءة) عَلَماً على مجموع الوحي ، الا في ما بعد . والواقع ان القرآن ، بوصفه قانون الحياة ومحكّها ، إنما أكمِل للمسلمين بسنة النبي ، اي باقواله واعماله كما وصلتنا في الحديث من طريق الصحابة .

(*) الحق ان الرسول قد دعا جميع الناس الى الاسلام منذ اللحظة الأولى . فقد جاء في سورة المدثر ، وهي الثانية من حيث الترتيب التاريخي لسور القرآن ، « نذيراً للبشر » . وجاء في سورة الفرقان وهي ايضاً سورة مكية: « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » [ع. ف.]

ولكن القسم الاعظم من الحديث المتصل بسنّة الرسول لم ينشأ إلا بعد قرنين من ظهور الاسلام . ومن هنا تعيّن اصطناعه كمصدر لعقيدة النبي نفسه في كثير من الاحتياط والحذر .

اليوم الآخر

وفي مكة دارت فكرات محمد الدينية ، اول ما دارت ، على محور الآخرة . وانما ترجع معتقداته في ما يتعلق بالعالم الآخر الى مصادر يهودية ، وهكذا تتصل بصورة غير مباشرة بمصادر فارسية وبابلية قديمة . ولقد اعتقد باديء الرأي أن القيامة على وشك الحلول ، ليجد نفسه مضطراً ، بعد ، الى ان يُغفل تحديد ميقات لها ، لأن الله احتفظ بعلم ذلك لنفسه . وتوقع محمد ان تُعلن ساعة الحساب بنفخة هائلة او دوي عظيم ، ثم تحدّث بعد عن النفخ في الصور او عن نداء يوجهه احد الملائكة إيذاناً بقيام الساعة : وعندئذ تُزلزل الارض في الحال ، وتُسيّر الجبال كالسراب او تتطاير فهي تمرّ مرّ السحاب فتنقلب هباء منثوراً ، وعندئذ ايضاً تُفجّر البحار ، وتدور الشمس على محورها ، ويخسف القمر وينشق وتنتثر الكواكب ، وتُفتح السماء فهي واهية ، لتكشف عن العالم الآخر وتعرضه على اعين البشر .

وفي يوم الحشر ، على ما جاء في السور القرآنية الأولى ، يُفتح الكتاب الالهي الذي ينتظم بين دفتيه جميعَ اعمال البشر ويبدأ الحساب على هذا الاساس . فيتلقى كل امريء بياناً باعماله ليقرأه بنفسه في صوت جهير ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فهو في عيشة راضية ، واما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيَه .

ثم ان المتّقين يقفون الى يمين الله فهم اصحاب الميمنة، ويقف المجرمون الى شماله، فهم أصحاب المشأمة، ويقف حذاء العرش الأتقَون، وهؤلاء هم المقربون، جموعاً ثلاثة. أما في السور التي تلت فيرسم القرآن هذا المشهد في الوان اكثر زهواً واكثر حياة. هناك يزن الله الاعمال بالقسطاس المستقيم، فيحاول المجرمون ان يجـــدوا لانفسهم المعاذير، ولكن رسلهم، الذين بُعثوا في ازمانهم، يشهدون عليهم. ويعقب الحساب مباشرة الثواب او العقاب. ويساق الذين اتقوا ربهم الى جنـــة عَدْن التي تمثلها محمد، وهو الذي نشأ وسط حاضرة عربية تقع في واد يلفح الوجوه بحرارته المحرقة، قائمةً على رأس جبل بارد. وهناك، في الجنة، عين جارية، فيها سُرر مرفوعة وأكواب وزرابيّ مصفوفة حولها. وفي الجنة يرتع الصالحون ووجوههم تطفح بشراً، وعليهم ثياب خضر من سندس واستبرق، ومناطق من فضة، ويشربون من عين كان مزاجها كافوراً، وزنجبيلا، او من رحيق مختوم بالمسك. وتحيط بالجنة أشجار دانيـــة الظلال، مذللة القطوف فهم يتخيرون من فاكهتها الكثيرة ما يشتهون. ليس هذا فقط. بل انهم لينعمون بمصاحبة الابكار ذوات العيون الشديدة السواد (الحور) الـــلواتي وهبهنّ الله شباباً سرمديا. ومباهج الجنة هذه، كما هو واضح، تتوجه الى خيال الرجال دون غيرهم. اما النساء اللواتي منّاهنّ النبي الجنـــة ايضاً، فقد وُعدن بالتحرر من البغض والحسد، وبمتعة الاحاديث الدينية، ورضوان من الله اكبر.

وفيما تُفتح ابواب الجنة لاصحاب اليمين، يساق اصحاب الشمال

الى جهنم ، وهي هوة سحيقة مليئة بالنيران الحامية . ويتوعد محمد الآثمين باهوال اخرى غير النار ، ولكن من غير تدرّج نظامي في العقوبات كما هي الحال في التخيلات اليهودية والنصرانية للجحيم . واذا كانت في الجنة عين كالتي وصفنا ففي جهنم عين آنية يشرب المجرمون من حميمها المنتن فيقطّع أمعاءهم . وبدلا من الفاكهة يقدم اليهم نبات كريه الرائحة لا يسمن ولا يغني من جوع . ولقد سمى القرآن ، في ما بعد ، هذه الشجرة شجرة الزّقوم التي « تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين » (سورة ٣٧ : ٦٢ - ٦٣) . وفي مواطن أخرى يصور القرآن الجحيم موطناً للتعذيب ، فيه سلاسل وأغلال ، يشرف عليه تسعة عشر من الملائكة تحت إمرة قائد لهم . والى جانب عذاب الجسد يلقى أهل النار عذاب الروح ، واتهام الذات ، واللعنات ، والتوسلات المخفقة في سبيل النجاة . وعقوبات الجحيم سرمدية كمباهج الجنة . ولقد لقيت آمال اليهود في ان يقتصر عقاب الآثمين من شعب اسرائيل على عذاب موقت ، معارضةً شديدة الى أبعد الحدود ، من محمد في المدينة .

الشعائر الدينية

وفرائض القرآن الدينية ليس لها صلة ملازمة بعقيدة المؤمن . ان لها ، كما هو الحال في اليهودية المتأخرة ، صفة الطقوس الخارجية . ونحن نجد بعض السنن الطقسية ، من مثل الوضوء قبل الصلاة ، تحتل عين المكان الذي تحتله الوصايا ذات القيم الاخلاقية الرفيعة ، كالامانة مثلا . والواقع ان الوضوء اول الواجبات

الدينية المفروضة على المؤمنين . اما إذا تعذر وجود الماء ففي الامكان الاستعاضة عنه بالرمل . وثاني الواجبات الصلاةُ نفسها . وهي تتألف من سلسلة من الصِيَغ الثابتة غير المتغيرة ، والآيات القرآنية التي تُردّد في حركات جسمانية تتعاقب في اطّراد وثبات . وتُجماع هذه الصِيَغ والحركات يُدعى « رَكعَة » . ويجب ان تُكرّر مرتين على الأقل في كل صلاة . وبينما كان محمد واصحابه يصلون مرتين في اليوم ، في مكة ، وثلاث مرات في المدينة ، كاليهود ، فقد جعلت الطقوس المتأخرة ، المتأثرة بالفرس ، عدد الصلوات المفروضة في اليوم الواحد خمساً : الاولى قبل الفجر ، والثانية عند الظهر ، والثالثة من الاصيل حتى غروب الشمس ، والرابعة عند المغرب ، والخامسة في العشاء . والمؤذّن هو الذي يدعو الناس الى الصلاة ، في مواقيتها ، من مِئذنة المسجد . وانما عرف العرب هذه المآذن ، أولَ ما عرفوها ، في البلدان المفتوحة ، التي استعاروا منها طُرُزَها المعمارية . وكانت النماذج التي نقلوا عنها في بلدان البحر المتوسط المنائرَ ، وفي الشام ابراجَ الكنائس وابراج الحراسة ، وفي فارس والهند ابراج الاشارات . وكانت المآذن بادىء الامر غير متصلة اتصالا وثيقاً بالمساجد . والواقع ان العثمانيين هم أول من ضم المئذنة الى المسجد في آسية الصغرى . وفي يوم الجمعة يؤدي المسلمون صلاة الظهر جماعةً . وهي تُرفق بالخطبة ، التي يلقيها إمام المصلّين ، او احد المبشرين الرسميين في ما بعد ، والتي تُختم ، بعد صلاة صامتة ، بالشهادة والدعاء لمحمد وآل بيته ، وللعُصبة المختارة من السابقين الاولين الى الاسلام ، ولجميع المؤمنين ،

وبالتماس التأييد الالهي للجيوش الاسلامية ، وبخاصة للامير الحاكم – في التقليد المتأخر – الذي تعترف بولايته جماعة المصلين . وليس منبر المسجد الذي تُلقى من عليه الخطبة الا شكلاً متطوراً من اشكال السُدّة التي اعتاد النبي ، وفقاً للتقليد الشرقي القديم ، ان يرقاها في المناسبات الرسمية . وكان اول من اصطنع هذا المنبر عمّال الامصار الذين كانوا يؤمون الناس في ايام الجمعة ، في الصلاة العامة ، بانفسهم . ولم يُصبح ارتقاء المنبر للخطابة في الناس عادةً شائعة الا في المائة الثانية للهجرة . وبسبيل التميز عن اليهود ، لم يحظر النبي ، كما رأينا سابقاً ، على اتباعه العمل في الجمَع ، بل ترك لهم حرية التجارة والسعي وراء الرزق .

وثالث الواجبات الدينية الرئيسية الصوم ، أي الامتناع عن الطعام والشراب وجميع المتَع الاخرى كالروائح الزكية مثلاً ، من الفجر حتى غروب الشمس ، طوال شهر رمضان . واذ كان هذا الشهر ، يقع بحكم السنة القمرية ، في الشتاء حيناً وفي الصيف حيناً فقد صار القيام بهذا الفرض ، وبخاصة في بلدان المناطق الحارة ، عملاً جاهداً كثيراً ما يقتضي المؤمنين تضحيات قاسية . وتعتبر ليلة السابع والعشرين من رمضان مباركةً بشكل خاص ؛ إنها « ليلة القَدْر » التي دُعي فيها النبي الى اداء الرسالة من طريق السورة السادسة والتسعين . وليس يُعفى من واجب الصيام الا المرضى والمسافرون والجنود السائرون الى الميدان ، ولكن عليهم ان يعوّضوا عن كل يوم يُفطرون فيه بيوم آخر يصومونه بعد .

ورابع الواجبات الدينية التي يُفرَض اداؤها على كل مسلم [ومسلمة] مرة في العمر ، على الأقل ، هو الحج الى مكة [١٣] . ولا مبرر للتخلف عن القيام به الا الفقر ، او المرض ، أو الأسر . وعندما يصل الحاج إلى حدود المنطقة المقدسة يستبدل بثيابه لباس الحج [الإحرام] وهو يتألف من قطعتين من القماش ، كائناً ما كان ، تُطرح احداهما حول الكتفين ، وتحيط الاخرى بالخصر . ولا يجوز ان يضاف إلى ذلك غير نعل للرجل . أما الرأس فيتعيّن أن يظلّ حاسراً حتى في قيظ الصيف ولهيبه . ذلك هو اللباس الذي كان يُصطنع في أطوار المدنية الأولى المنقضية ، وهو طقسٌ لا يزال باقياً في الاسلام بقاءَه في الأديان الأخرى . وفي مكة نفسها يزور الحاج ، أولَ ما يزور ، الكعبةَ . والكعبةُ بناء يكاد يكون مكعّب الشكل ، إذ يبلغ طوله أربعين قدماً ، ويبلغ عرضه ثلاثين قدماً ، ويتراوح ارتفاعه بين خمسة وثلاثين وبين أربعين قدماً . وهي مكسوّة بالقماش من جوانبها الأربعة جميعاً . وتقوم الكعبةُ في وسط رقعة من الارض المكشوفة ، أو أقرب ما يكون إلى وسطها ، تبلغ حوالي مائتي خطوة طولاً ، ومائة وخمسين خطوة عرضاً ، وليس عليها اليوم إلا بعض الابنية الصغيرة المنشأة على أطرافها ، يُحيط بها صفّان من الاعمدة . وكانت الكعبة ، قبل الفتح ، تنتظم صوراً للآلهة ،

(١٣) انظر سنوك هورجرونيه Snouck Hurgronje , *Het mekkaansche Feest* , Leiden , 1880 .

أما الآن فلعلها لا تحتوي غير الثريات وأسباب النظافة . وزوايا الكعبة تشير ، على وجه التقريب ، إلى الجهات الاربع . ويضمّ الحائط اليماني ، على ارتفاع خمسة أقـــدام عن سطح الارض ، الحجرَ الاسود الشهير الذي يتألف اليوم من عـــدد من الحجارة الصغيرة وثلاثة احجار اكبر منها ، والذي يشدّ بعضَ اجزائه إلى بعض شريطٌ فضّي . ولعلّ هذا الحجر أقدم الاوثان التي عرفتها مكة قبل الاسلام * ، وهو يشبه الحجارة المقدّسة الاخرى التي كثيراً ما نجدها عند الساميين. ولقد أخذ محمدٌ عادة تقبيله أثناء الحج دون أن يضع لها أساساً معيناً . والحق اننا لا نجد منذ فجر الاسلام ضعفاً في معارضة كل تقديس للحجارة والانصاب ، على اعتبار أن ذلك ضرب من الوثنية . وإلى جانب الكعبة تقوم بئر زمزم التي تذهب الرواية إلى أنها قد أنقذت اسماعيل ، جـدّ عرب الشمال ، وأمه هاجر ، من الموت عطشاً . وبعد أن يطوف المؤمنون حول الكعبة يشربون من مائها ، في احتفـال وإعظام . ثم يعقب ذلك السعيُ بين الصّفا والمَرْوة ، وهما عَلمان على تلّين ، لا يبدو انهما يرتفعان اليوم إلا قليلا عن سطح الارض . وتمتـاز الصفا ، وتقع على بُعد خمسين خطوةً تقريباً من جنوب شرقيّ المسجد ، بثلاثة عقود يُرتقى إليها بثلاث درجاتٍ حجرية . أمـا المروة فتقع على نحو ستمائة قدم ، بعيداً عن الصفا ، ولها منبر يُرتقى اليه أيضاً على درجات . وعلى المسلم أن يجتاز المسافة بين التلّين سبعَ مرات

* مر معنا أن تقبيل الحجر الأسود عمل رمزي تاريخي لا دخل له في العقيدة الايمانية ولا في العبادة . [ع. ف.]

مهرولاً ، بحيث ينتهي عنـــد المروة . وبذلك تتم شعائر الحج الاصغر ،العُمرة. ولقد اضيف هذا الحج إلى الكعبة في شهر رجب ، قبل محمد بزمن طويل ، على ما يظهر ، الى الحج في شهر ذي الحجة (آخر أشهر السنة) الذي كان في الاصل مقتصراً على الاجتماع في عَرَفات .

وفي الحج السنوي الكبير ، في الثامن من ذي الحجـــة ، يمرّ الحجّاج ، بعد الطواف الأوّل حول الكعبة ، بمِنى ، حيث كان يجب أن يبيتوا ليلتهم السابقـة ، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ؛ ومن ثمّ يُفيضون الى السهل الواسع الممتدّ عند سفح جبل عرفات ، وهو مرتفعٌ صخريّ يقع شرقي مكة ، على مسافة تجتازها الابل في مدى أربع ساعات . وتذهب الروايات الاسلامية الى ان جبريل قد علّم آدمَ الصلاةَ على قمّـة عرفات . وإحياءً لهذه الذكرى ، يستغرق الحجّاج في التأمل ، هناك ،فترة طويلة ، تبدأ ظهر التاسع من ذي الحجّة ،وتنتهي عند غروب الشمس. حتى اذا هبط الليل عادوا ليقضوا ليلتهم في المزدَلفة ، بين عرفات ومنى . وفي صباح اليـوم التالي يقصدون الى منى . وبعد ان ينالوا قسطاً من الراحة فيهـا يجتمعون امام ركام من الحجارة [وهي جمرة العَقَبة] يتعين عـلى كل حاج ان يرميه بسبعٍ من الحصى . والمفروض ان يكون ذلك احياء لذكرى ابراهيم الذي طرد مرة ، بهذه الطريقة ، الشيطانَ الذي اعترض سبيله . وها هنا يُختم العيـد بشعيرة التضحية . من اجل ذلك يسوق البدو الى مِنى قطعـــاناً عظيمة من الخِراف ، [الهَدْي] ، فيولّي كل من الحجاج وجهه قِبلَ مكة ويذبح أحد

هذه الخراف وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . الله اكبر ! » ثم إن الحجاج يخلعون ثيـــاب الأحرام ويقصّون شعورهم التي لم يكن جائزاً أن تقربها الموسى خلال الفترة المقدسة . وعندئذ يعودون الى مكة ، فيطوفون حولهـــا سبع مرات أخر ، ويسعَوْن بين الصفا والمروة ، اذا لم يكونوا قد سعَوا بينهما عند وصولهم مباشرة الى مكة ، بعد تقبيل الكعبة . ويقضي الحجاج فـــترةَ ما بين الحادي عشر والثالث عشر من ذي الحجة في مِنى ، فيختلفون الى الموائد الغنية ، فرحين مستبشرين . والواقع ان الصيـــام الذي يُعتبر عملاً صالحاً يستحق عليه فاعله المثوبةَ ، في كل حين ، يُحرم تحريماً صريحاً خلال هذه الايام . وليس يبقى بعد ذلك من شعائر الحج غير القاء سبع حصَيات ، كل يوم ، عـــلى جمرة [العَقَبة] المشار اليها آنفاً وعلى اثنتين صُغْرَيين ، غيرَ بعيد عنها .

وهذه الايام الثلاثة تُعتبر عيداً ، ايضاً ، لاولئك المسلمين الذين لم يشاركوا في الحج . انه العيـــد الكبير الذي يدعوه الاتراك « قربان بَيرَم » ، او عيـــد الاضحى ، ويتعين اثناءه انْ يُذبح خروف في كل بيت من بيوت المسلمين .

أما الفرض الخامس من فروض الاسلام ، الزكاة ، فقد انتهى إلى ان يكون ضريبة للدولة خلال تطور المجتمع الاسلامي ، على ما سنرى بعد . ولا تنبثق الصدقات من رغبة المسلم التقي في أن يسعف اخوانه المعوزين ، فحسب ، ولكنهـا تعتبر كذلك وسيلة تحرّره من جزء من امواله التي تشده الى الدنيا الفانيـــة ، وتبعدُه عن السعادة الأخروية .

والى جانب هذه الفروض الدينيّة الخمسة التي تعتبر مقدسة ، نجد حياة المسلم الخاصة والعامة ، كلها محاطة بسلسلة طويلة من الواجبات التي يتعين عليه العمل بها كجزء من الدين . ولن نعرض هنا إلا لأهم هذه الواجبات عرضاً موجزاً .

يتحتم على المسلم ان يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم : لأن محاربة غير المسلمين * واجبٌ ديني . فأما اهل الوثنية فيجب أن يهاجموا في غير ما تردد ، وأما النصارى واليهود فلا تجوز مهاجمتهم الا بعد ان يُدعوا الى الدخول في الاسلام ، فيرفضوا ثلاث مرات متواليات . حتى اذا هُزم اعداء الدين كان نصيب رجالهم القتل ونصيب نسائهم واطفالهم البيع في سوق الرقيق . وكل من يقتل في الجهاد من المسلمين يكون مأواه الجنة ، بوصفه شهيداً من الشهداء . ولكنّ من الجائز أن يعقد المسلمون المعاهدات مع اليهود والنصارى أسوة بالنبي . ولقد عومل الفرس اتباع زرادشت في ما بعد ، معاملة اليهود والنصارى اذ اعتبرهم المسلمون من « اهل الكتاب » . ولكن امثال هذه العقود والمعاهدات إنما ترجيء

---

* يخلط المؤلف بين الكفار وبين اهل الكتاب . الكفار هم عبدة الاوثان (واشارة القرآن الكريم إنما هي الى العرب من عبدة الاوثان) فهؤلاء يجب أن يقاتلوا (بالبناء للمجهول) لأن العربي لا يجوز ان يبقى وثنياً . اما اهل الكتاب كالنصارى واليهود (اينما كانوا) فلا سبيل عليهم . انهم احرار في دينهم وشؤونهم ولكن الاسلام يقاتلهم اذا نقضوا عهده او حاربوه ، مما هو داخل في باب السياسة والحرب لا في باب الدين والدعوة . [ع.ف.]

واجب الجهاد ، ولا تنسخه .

وفي الحياة اليومية يخضع الطعام والشراب ، بخاصة ، لقواعد وقيود تتفق بعض الشيء وما جاء في التوراة . فجميع الحيوانات غير المذبوحة او المقتنصة في الصيد لا يجوز أن تؤكل لانها نجسٌ . كذلك يتنجس الدم واللحم اذا لامسهما شيء غير نظيف ، كالكافر مثلاً * . ولقد حرّم الاسلام على اتباعه أكل جوارح الوحوش والكلاب والقطط والخنازير جميعاً ، كما حرّم جميع انواع الشراب المسكر . وعلى الرغم من ان القرآن لا يذكر غير الخمرة ، فقد وسّع الفقهاء ، في ما بعد ، نطاق التحريم ، بالقياس ، حتى لشمل الكحولَ في مختلف اشكالها ، ولكن دونما نجاح مطرد في جميع الاحيان . وبالاضافة الى الخمر ، يحرّم القرآن الميسر الذي كان ، بوصفه اقتراعاً على جزور الجمال والنياق ، بصورة خاصة ، شائعاً جداً في بلاد العرب قبل الاسلام ، ومسؤولا عن افقار الكثيرين . اما تحريم التماثيل فقائم على اعتقاد خرافي مشترك بين عدد من شعوب الارض ، لا يذكره [الاسلام] الا في الحديث ** . ومع ان المسلمين كثيراً ما خرجوا على هذا التحريم في اوج الحضارة الاسلامية فقد حال التحريم دون نموّ فن النحت وازدهاره .

(*) الصواب : إذا ذبحها كافر . [ع . ف .]

(**) جاء في الحديث : « إن اصحاب الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم » (سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات : ٥) وجاء ايضاً « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة » (صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق : ١٧) . [المعربان]

ومع أن نظام الزواج الاسلامي قد وضع حداً لحرية الاتصال الجنسي بين الرجال والنساء ، هذه الحرية التي كانت عامة في بلاد العرب الجاهلية ، فانه لم يلغ تعدّد الزوجات ، بل حدّد عدد هؤلاء الزوجات باربع ، بالاضافة الى ما تملكه يمين الرجل من الرقيق . ولم يجز النبي لاحد غيره ان يتزوج عدداً غير محدود من النساء . ولكن الشرع ينص على ضرورة إعالة كل امرأة حسب مركزها الاجتماعي . ومن هنا وجب على الكثرة المطلقة من المسلمين ان يكتفوا بزوجة واحدة ، لأسباب اقتصادية على الاقل . والطلاق في الاسلام امر ميسور جداً * ، غيرَ شك ، ولكنه في الواقع لا يعدو ان يكون تعويضاً ضرورياً عما تفرضه العادة من الفصل بين الجنسين ، فصلاً ينتفي معه امكان زواج الحب ، أو يكاد . ولما كان في استطاعة كل مسلم ان يجمع ، الى زوجاته الاربع الشرعيات ،العددَ الذي يروق له من السراري **،

(*) الطلاق في الاسلام صعب جداً . ولكن غاب عن المؤلف ان الزواج في الاسلام « نظام اجتماعي » لا عقيدة دينية . وكم من دولة غربية راقية اليوم قد رفضت الزواج كعقيدة دينية وأقرته كنظام اجتماعي (زواج مدني) وجعلت الطلاق فيه اهون مما هو في الاسلام اضعافاً مضاعفة . [ع . ف]

** ان الجمع بين اربع زوجات امر عسير جداً (حتى في الدين) ، وللسراري نظام اشد عسراً . وكل ما فعله الاسلام انه سمح (بعد حرب أو زيادة عظيمة في عدد النساء) ان يدخل المسلم في « عصمته » عدداً من النساء يعولهن ويحفظ شرفهن ويهب اسمه لابنائهن فلا ينصرفن الى التزين لجميع انواع الرجال وامتهان عرضهن في سبيل سد حاجاتهن الاقتصادية والنفسانية ،ثم ملء العالم بنسل طبيعي غير شرعي يلقي على عاتق المجتمع اعباء كثاراً . [ع.ف.]

فقد اشتدت نزعة ابناء الاسر الموسرة الى الاستخفاف بالحياة العائلية الهادئة . وشرعية الطفل لا تعتمد على الوضع الذي تكون عليه امه ، بل على اعتراف والده به ، فحسب، الامر الذي يساوي بين حقوق أبناء الجارية وأبناء الحرة في الميراث . ومهما يكن من شيء ، فقد كانت نبالة النسب ، خلال القرون الاولى من الاسلام، تتأثر الى حد بعيد بالحؤولة ايضاً، في أوساط الارستقراطية العربية على الاقل . وليس من شك في ان نظام الحريم الذي ظهر ، أول ما ظهر ، في العصر العباسي ، هو الذي فتح باب الهجانة على مصراعيه .

الرق في الاسلام

ولم يتعرض محمدٌ لنظام الرقيق باكثر مما تعرّضت الكنيسة المسيحية الاولى لهذا الاساس الذي قامت عليه الحياة الاقتصادية عند القدماء ، ولكنه لطّف من حدّة هذا النظام بطرائق مختلفات. وعلى كل حال فالرقيق في الاسلام ، سواء أُولد في منزل صاحبه او اشتري من سوق النخاسة أو أسر في احدى الحروب ، يُعتبر من الناحية الشرعية متاعاً يمكن ان يُورّث او يُعتَق . والحق ان لمالك الرقيق حرية التصرف بشخص رقيقه وعمله ، ولكن يتعين عليه ان يحسن معاملته . اما اذا رغب السيّد في ان تكون له ذرّية من احدى جواريه فعندئذ لا يجوز له ان يبعثها الى خارج بيته ، حتى اذا توفي اكتسبت حريتها. وعلى الجملة فعَتْقُ العبد يُعتبر في الاسلام عملاً صالحاً . كذلك يستطيع العبد أن يشتري حريته اذا وفّق الى ان يجمع ثمنها بعرق جبينه ، ولكن العتيق يظل في مثل هذه

الحال مرتبطاً بعض الارتباط بسيده كمولى من مواليه .

قانون الجزاء

أما القانون الجزائي في الاسلام فقد ظلّ على مستوى يقرب من السذاجة ، وهو لا يمثّل الا تقدماً ضئيلاً بالنسبة الى مفاهيم القانون الوثنية القديمة . فالقاتل عرضةٌ للموت من طريق الثأر . والقتلُ من غير تعمّد يُعوّض عنه بالدّية تُدفع الى أهل القتيل . وقد يُقتصّ لضروب الاذى الجسماني التي يُلحقها شخصٌ بآخر وفقاً لمباديء المقابلة بالمثل — « عينٌ بعين ، وسن بسنّ » — ولكن المجرم يستطيع أيضاً أن يفتدي نفسه بالتعويض على غريمه بالمال . وعقاب السارق قطع يده اليمنى ، حتى اذا عاود السرقة خضع لتشويه جسدي آخر . وعقوبة الزنا مائة جلدة بالسّوْط ؛ بيد انه اذا أغوى رجل غير مسلم امرأةً مسلمة فعندئذ يصبح عرضة لعقوبة الموت . أما من جدّف على الله ، أو على النبي واسلافه ، فيعاقب بالموت ، كالمرتدّ عن الاسلام ، اذا ما أصرّ على كفره . *

* الكلام على « القانون » يطلب تفنيداً واسعاً أشير هنا اليه فقط . إن المؤلف قد جمع كل شيء في « قانون الجزاء الاسلامي » في بضعة اسطر كثيرة الخطأ . ان القاتل في الاسلام لا يثأر منه ولكن الدولة تقتله (كما تفعل الدول اليوم) . اما التجديف ففكرة مسيحية لا إسلامية ، وقد حشرها المؤلف هنا حشراً . إن القتل عقاب المرتد عن الاسلام ، والارتداد عن الاسلام لا يكون إلا بشيئين فقط : جحد الله وانكار نبوة محمد . وكل ما عدا ذلك لا يخرج عن الاسلام كما قال الغزالي . [ع . ف .]

الخلفاء الاربعة الاول

•

ما كاد الرسول يلحق بالرفيق الاعلى حتى احدقت الاخطار بالرسالة التي وقف عليها حياته ، أعني توحيد بلاد العرب دينياً وسياسياً . ففي المدينة نفسها أحدث النبأ الذي لم يتوقّعه أحد اضطراباً هائلاً شغل الناس عن كل شيء ، حتى عن جثمان الرسول نفسه ، فلم يُدفن الا في اليوم التالي ، في بيت عائشة . والحق ان جميع الاحقاد السياسية التي كان النبي قد كبتها بنفوذه الادبي لم تلبث ان ذرّت قرنها . فمن ناحية كان عدد المنافقين لا يزال في المدينة كبيراً جداً . ومن ناحية ثانية كان الانصار العربقون في المدينة يتوقون الى التحرر من سلطان الاغلبية المتمثلة في المهاجرين ، ليصبحوا اسياد موطنهم الوحيدين ، كرّة اخرى . ثم إن عليّاً ، ابن عم النبي وزوج بنته ، ادّعى لنفسه الحقّ في خلافته كرئيس للدولة ، بوصفه اقرب الناس رحماً اليه . ولكنه كان ، كسعد بن عُبادة سيد الانصار ، الذي طمع في الخلافة ايضاً ، لا يملك من القوة او من النفوذ ما يساعده على تحقيق طلبته . ومن هنا لم يلبث اصحاب محمد السابقون ان وُفقوا الى اقناع الناس بالاعتراف بأبي

بكر – والد عائشة زوج النبي ، وكان يتمتع مع عمر بن الخطّاب وابي عبيدة بن الجرّاح بنفوذ كبير عند محمد – خليفةً له ، فلم يعد في وسع الانصار الا ان يبايعوا الامير الجديد .

ارتداد البدو

ولكن موجة من الارتداد ما لبثت ان طغت على الحياة في بلاد العرب. والواقع ان الدوافع الدينية لم تكن مسؤولة عن هذه الموجة الا نادراً؛ كل ما في الامر ان بعض العرب رغبوا في ان يتخلصوا من سلطة المسلمين المتعبة، في المدينة. ومما تجدر ملاحظته ان الانبياء الذين تزعموا حركات الثورة عملوا ، كما عمل محمد ، باسم الله ، لا باسم أي من الآلهة القديمة . ولقد أعلن بعض المرتدّين انهم لا يزالون راغبين في ان يعبدوا الله ، ولكنهم يرفضون ان يدفعوا الزكاة . وانما استاءوا بخاصة من الرسل الدينيين الذين كان محمد يبعث بهم في السنوات السالفة الى كثير من القبائل ليعلّموها الدين الجديد ويجمعوا من افرادها الزكاة . فقد كان هؤلاء الرسل العاملون في خدمة الحكومة المدنية ، مصدر إزعاج وإعنات في نظر القبائل البدوية التي كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها في مراعيها الخاصة .

وكان النبي قد شغل نفسه ، في ايامه الاخيرة ، بأعداد الجيوش للانتقام من البيزنطيين الذين هزموا المسلمين في مؤتة . فوجد أبو بكر نفسه مسؤولا عن إنفاذ خطة النبي الاخيرة هذه ، على الرغم من ان الانباء المخوفة عن شيوع الاضطراب في انحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة من كل حدب وصوب . وهكذا وجّه

ابو بكر نخبة جيوش الاسلام الى الشمال تحت قيـــادة أسامة ؛ ولكننا لا نعرف شيئاً عما استطاعت هذه الحمـــلة ان تحققه من الاعمال ، بل لسنا نعرف ما اذا كانت قد اجتازت الحدود البيزنطية ام لا . ومهما يكن ، فقـــد قضى أسامة وجنوده شهرين خارج المدينة ، وبذلك اصبحت عاصمة المسلمين في مركز لا يساعدها كثيراً على الدفاع عن نفسها . والواقع ان أسداً وغطفان ، النازلين غير بعيد من المدينة ، كانوا اول من افاد من هذا الوضع ، فهاجموا المسلمين . ولكن أبا بكر استطاع ان يثبت لهم ويصدّهم عن اهدافهم ريثما عادت حملة أسامة الى المدينة ، فعَهِد عندئذ بالقيادة الى « سيف الله » المجرّب ، خالد بن الوليد ، الذي هزم كلتا القبيلتين عند بئر بُزاخة هزيمة حاسمة اضطرتهما الى الاستسلام في الحال .

مسيلمة وسجاح

اما فتنة بني حَنيفة في اليمامة فقد كانت أمرّ عوداً وأشدّ خطراً . ففيما كان محمد لا يزال على قيد الحياة ظهر في تلك البلاد رجل اسمه مَسْلَمَة - وقد دعاه المسلمون مُسيلمة من باب التصغير الذي يقصد به التحقير - وادعى النبوّة ، مطالباً حكومة المدينة بان تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها . وطبيعي ان لا تحمل الينا الروايات الاسلامية غير نتف صغيرة من تفكيره الديني . والذي يبدو ان مسلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديداً خاصاً ، فأوصى بالصيام ، وحرّم الخمرة ، وحض اتباعه على الطهارة والعفة سامحاً لكل منهم بالاتصال الجنسي الى أن يرزق ابناً ذكراً ، فحسب . وفي الواقع اننا نقع في خطبه على أصداء من الافكار المسيحية باكثر مما نجد

في احاديث محمد. فقد افرغت في لغة رجل بدوي يحرث الارض ، فهو يتكلم عن « الشاء السود ، وعن اللبن الابيض ، وعن الطاحنات والخابزات ، وعن الضفدعة التي تعيش في المـــاء والطين ، ولكنه يتكلم ايضاً عن مملكة السماء ، وعن ذاك الذي سيأتي من السماء . » ولقد كان لهذا الرجـــل ، على الرغم من سذاجته ، اثر كبير في نفوس أتباعه حتى ان كثيراً منهم ظل يؤمن به بعـــد سنوات من سقوطه .

وفي شمالي الجزيرة أضرمت امرأة تدعى « سَجاح » نيران حركة تشبه حركة مسلمة ، بين افراد قبيلة تميم ، النازلة على مقربة من الحـدود الفارسية . وانما ظهرت سجاح ، اول ما ظهرت ، بين اخوالهـــا بـني تغلب في العراق ، وكانت النصرانيـــة واسعة الانتشار فيهم . حـــتى اذا جاءها نبأ وفاة النبي سارت مع عدد كبير من اتباعها الى انسبائها من قبيـــلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافي أدنى من مستوى غـــيرهم من العرب ، فهم يؤلهون الشمس ، على الخصوص . ولم يؤيدها اولَ الامر غير اقربائها الادنين ، بني حنظلة ، ولكنها ما لبثت ان بسطت سلطانها على القبيلة برمتها . وتذهب الروايات الى أنها اتجهت بعدُ الى الجنوب وعقدت حلفاً مع مسلمة ، ولكنهما لم يوفقا الى توحيد قوى اتباعهما في نضال مشترك ضدّ المدينة . وهكذا لم يعتم الحليفان أن افترقا ، فرجعت سجاح الى العراق ، حيث اختتمت نشاطها العام . وفي الاخبار أنها ماتت على الاسلام . والواقع انه عندما ظهر خالد بن الوليد في اراضي تميم تقدم اليه القوم بالطاعـة في كل

مكان تقريباً ، ولم يشذّ عن هذا الاجماع ويخلص لايمانه بسجاح ، حتى النهاية ، الا مالك بن نويرة سيد بني يربوع ، من حنظلة ، الذي ارتد عن الاسلام ، عقب وفـــاة النبي مباشرة . ولكن خالداً ما لبث ان طوّقه وجنوده فاضطر الى الاستسلام ايضاً . ومع ذلك فقد أمر خالد بقتله ، وبقتل جميع أتباعه طمعاً منه في زوجة مالك الجميلة ، على ما تقول الرواية .

وبعد اخضاع تميم انقلب خالد الى اليمامة لقتال اصحاب مسلمة ، وكانوا قد هزموا قوة إسلامية يقودها عِكرِمة . وسار مسلمة بعد هذا النجاح الاولي حتى بلغ حدود اليمامة الشمالية حيث وقعت معركة حاسمة ، في عَقْرَبَة ، لم تعرف بلاد العرب كلهـــا اعنف منها من قبل. ولكي يُلهب خالد طموح رجاله ، فقد جعل كلا من المهاجرين والانصار والبدو يحـارب مستقلا عن الآخر . وكانت قوة مسلمة التي تتألف من بني حنيفة تفوق قوة خالد عـــدداً ، فقاتلت قتالا شديداً ،فانكشف المسلمون واشرفوا على الهزيمة. ولكن سخرية بني حنيفة بهم دعتهم الى ان يبذلوا أقصى مـــا يستطيعون من جهد ، فوقفوا اولا الى ان يضعوا حـداً لتقدم العدو ، وما لبثوا ان ردّوه على عقبيه شيئاً بعد شيء . فلما رأى بنو حنيفة ان الهزيمة لا بد واقعة بهم تراجعوا الى حديقة واسعة ، ابتغاء ان يجـــدوا في حيطانها المنيعة ما يقوي مركزهم ويقيهم عـادية هجوم المسلمين . غير ان هذا العمل بالذات هو الذي انتهى بهم الى الهزيمة ، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت ، كما تدعوهـــا الروايات ، وفتكوا باعدائهم فتكاً ذريعاً لم ينج منه احد ، حتى مسلمة نفسه . ولم تكن

خسائر المسلمين يسيرة ، فقد استشهد من المهاجرين والانصار وحدهم سبعمائة رجل ، بينهم كثير من أصحـــاب الرسول السابقين الى الاسلام ، وكبار حفظة القرآن .

والحق ان هذه الغلبة التي اشتراها المسلمون بثمن غال، لم تقرر مصاير بني حنيفة فحسب ، بل مصاير العرب على الجملة، فقد احتمت فلول قوات مسلمة، المشتتة، في حصونها ثم استسلمت حذرَ الموت. وبذلك قضي هناك على الثورة قضاء مبرماً .

فتح البحرين وعمـــان

وعرفت البحرين ، وهي المنطقة الساحلية التي تمتد عـلى طول الخليج الفارسي والتي تم اخضاعها قبيل وفاة النبي ، محاولةً اخرى للتخلص من سلطان المسلمين . ففي هَجَر ، العاصمـة ، تزعم حركة الردة رجل من نسل المناذرة الذين سبق لهم ان بسطوا سلطتهم على هذه المقاطعات . ولكن العلاء [الحَضْرَمي] ، وهو العامـــل الذي عيّنه محمد نفسه على البحرين ، اعتصم في حصن يقع الى الشمال من هَجَر ،وثبت هناك يقاوم المرتدين حتى أقبل خالد لنجدته بعد ان قضى على مَسلمة . ثم ان خالداً سـار بنفسه على هجر ، فأخضع الثورة في غير مشقة . أما سكان السواحل، ومعظمهم من الفرس ، فقد ابدوا مقاومة أطول وأعنف . والواقع ان زعيمهم فيروز ظل معتصماً في الزارة ، الواقعة على ساحل البحر (ولعلهـــا القطيف اليوم) حتى أوائل خلافة عمر . وعندئذ فقط استطاع عامـــل المنطقة ، العـــلاء ، ان يُكرهه على الاستسلام ، بعد ان قطع عنه الماء .

فاذا انتقلنا الى عُمان نجد ان السكان، ومعظمهم من صيادي الاسماك وقرصان البحر، قد وفقوا الى الاحتفاظ باستقلالهم طوال العصور الوسطى كلها، تقريباً، حتى عهد سلاطين مَسْقَط الحاليين. وفي ذلك الحين نشبت ثورة على سلالة الجُلَنْدَى الحاكمة التي سيطرت على تلك المنطقة، فاغتنمها المسلمون فرصة للتدخل. وكان الملك عمرو قد دخل في الاسلام، ولكن الاعراب في الداخل ثاروا على جباة الضرائب الذين وجههم اليهم، بناء على امر الحكومة المركزية. فطلب ابو بكر الى عكرمة، الذي ابلى بلاء حسناً في مقاتلة مسلمة، ولكن على غير طائل، ان يخف الى نجدة الملك، فاضطر الاعراب الى الخضوع لقوات المسلمين المشتركة.

فتح حضرموت واليمن

ومن عُمان سار عكرمة الى حضرموت واليمن، حيث كانت الثورة قد نشبت في وقت مبكر جداً، وكانت عنيفة قضى المسلمون في اطفاء نيرانها مدة طويلة لم يقضوا مثلها في المناطق الاخرى. وفي الوقت الذي اخذ الاسلام ينتشر اثناءه في البلاد كان الاعراب النازلون في الجزء الشمالي منها، أي تِهامة، قد قضوا — او كادوا — على السكان السَبَئِيين القدماء القاطنين في الجزء الجنوبي الخصب، الواقع تحت نفوذ الفرس. واذ قد اصاب الانحطاط السريع الامبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى الثاني (ابَرْوِيز) الساساني، سنة ٦٢٨، فقد تُركت الولايات العربية، وبخاصة اليمن النائية، لتدبر شؤونها بنفسها. وفي غمرة من هذه الفوضى العامة التي اجتاحت البلاد، اعلنت قبائل كثيرة اسلامها، من

طريق الوفود التي بعثت بها الى المدينة ، عقب فتح مكة . ولقد رُفق النبي ، قبيل وفاته ، الى اقرار النظام في البلاد ، والى تعيين ما يجب ان تؤديه من الضرائب تعييناً صار في ما بعد مثلا يحتذى . ومع ذلك ، فلم يقضِ عماله على صغار الحكام المحليين المتعددين ، بل عاضدوهم كما يعاضد ممثلو الدول الاستعمارية اليوم الامراء الوطنيين . ولقد انشأوا نظاماً للمراقبة عاماً ، ونظموا شؤون التشريع والعبادة ، وجبوا الضرائب ، قبل كل شيء . واذ كان هذا المظهر غير الشعبي من مظاهر سلطة العمال الرسمية ، كثيراً ما يحملهم على اصطناع تدابير قاسية ، فقد ثار عليهم الناس في حضرموت ، والنبي لا يزال على قيد الحياة ، ثورة لم تلبث ان قمعت بأقصى الشدة . وحتى قبل هذه الثورة ، ظهر في قبيلة الاوس رجل ادّعى النبوّة اسمه عَبْهلة*ذو الحمار «أي راكب الحمار» (منذ القدم والحمار يعتبر في الشرق ، عموماً ، الدابة التي يمتطيها المخلّص المنتظر [زكريا ٩ : ٩] . وهذا هو السبب الذي من اجله دخل يسوع الى القدس وهو راكب على اتان ، والذي من اجله سُمّيَ مؤسس احدى الفرق المتعصبة الناشئة في شمالي افريقية في القرن العاشر « ذا الحمار » ، بل ان احد الذين ثاروا في مطلع هذا القرن على سلطان مراكش اشتهر بلقب « بو حمارة ») . وكانت الوحدانية منتشرة انتشاراً واسعاً على أيدي اليهود والمسيحيين في جنوبي بلاد العرب ، ومن هنا لم يدعُ ، ذو الحمار ، الناس الى عبادة صنم ما ، أو وثن ما ، ولكنه دعاهم الى ان يعبدوا الله الرحيم . وجاءته الانباء

* هو الاسود العنسي [المعربان]

بمرض النبي محمد بعيد عودته من حجة الوداع ، فشجعه ذلك على اعلان دعوته ، فهاجم من نجران العامل الفارسي الذي كان لا يزال مقيما في صنعاء . حتى اذا هزمه أمست اليمن كلها منطرحة على قدميه . ولكن محمداً استطاع ، برغم مرضه ، ان يفيد من نفوذه هناك ، من طريق رسله ورسائله ، حتى لقد اجتمع المخلصون له على حرب النبي الكاذب . ثم ان [الابناء ، وهم] ارستوقراطيو صنعاء الفُرس ، اتفقوا في ما بينهم ، بتحريض من احد الرسل المسلمين ، على قتل عبهلة ، فتم ذلك على ما تقول الروايات قبل وفاة محمد بيوم واحد . ولكن ردّة اخرى ما لبثت ان عقبت هذا النصر الاسلامي الموقت . ذلك بأن رجلاً اسمه قيس [بن عبد يغوث] ، وكان احد اصحاب عبهله واعلاهم مقاماً ، اعلن الثورة على الفُرس بمعاونة العرب وتأييدهم . فما كان من ابي بكر الا ان وجّه اليه جيشاً يقوده عاملٌ كان محمدٌ نفسه قد عينه على جزء من حضر موت ، فقضى على الفتنة وأقر الأمن في البلاد .

وهكذا ، وبعد ان خضعت بلاد العرب كلها في هذه الفترة القصيرة من الوقت ، نسبياً ، لسلطة الاسلام ، صار في مقدور ابي بكر ان ينفذ خطة النبي الاخيرة ، تلك التي تقضي بنشر الأيمان في ما وراء حدود الوطن الام . ذلك بانه كان عليه ان يوجد فرصةً من النشاط الخارجي لهذه القوى التي كانت في الماضي على استعداد دائم لأن تتفانى في منازعات لا نهاية لها . ولكنه بدلا من ان يهاجم بيزنطة — كما حاول النبي من قبله ، اذ غالى في تقويم قوة اصحابه ولم يخالفه التوفيق في الحكم على الحالة الدولية ، وبخاصة في ما يتعلق

ببيزنطة – تطّلع اول الأمر الى المشرق ، نحـــو الامبراطورية الفارسية ، بعد ان رأى الى ضعفها البيّن ، منذ عهد غير قصير .

فارس في ظل الساسانيين

وكانت فارس وروما تتنازعان السيادة على الشرق الادنى منذ قرون عديدة . وكان الساسانيون قد صدّوا تقـــدّم الدولة الرومانية الشرقية في الجزيرة ، كما صدّه أسلافهم الفرتيون في عهد الارساكيين . وفي عهد كسرى الثاني (٥٩٠ – ٦٢٨) اندفـع الفرس في هجوم قوي على اعدائهم ففتحوا القدس ، واستولوا على مصر نفسها[١٤] . ولكن الامبراطور هرقل لم يلبث ان انتزع من كسرى ثمرات النصر الذي تمّ له ، وتعقّبه حتى عاصمـــة مُلكه بعينها . وهناك قُتل الملك الفارسيّ ، بيد ابنه قُباذ الذي ما لبث ان فاوض الامبراطور في الصلح . ومن ذلك الحين والامبراطورية الساسانية تسير قُدماً نحو مصيرها النهائي المحتوم الى الدمار . والواقع ان هـــذه الامبراطورية لم تقم في يوم من الايام على اساس عنصري متناغم ، ثابت . فالآريون الذين هاجروا الى البلاد في عصر ما قبل التاريخ كانوا أقل جداً من سكان الشرق الادنى الاصليين ، الذين استغرقوهم في وقت وجيز ، على الرغم من ان التعاليم الدينية الزرادشتية قـد ذهبت الى أبعد الحدود في سبيل الاحتفاظ بالصفاء العنصري ، فأوصت بالزواج من الاقارب دون غيرهم . وقد ساد الشكل الجسماني

---

(١٤) هلل المكيون لهذه الانتصارات الفارسية . ولكن محمداً ، الذي (كان لا يزال يشعر وقتئـذ ان بينه وبين المسيحيين صلة قوية ، اعلن اتباعه سورة ٣٠ : ١ — ٤) أن الهزيمة لا بد ان تحل بالفرس في وقت قريب .

الخاص بجنس الشرق الادنى سيادة تامة ، وتأثرت اللغة التي فرضها المهاجرون على اتباعهم تأثراً قوياً بلغة هؤلاء الاتباع . ومنذ تلك اللحظة التي نقل فيها الساسانيون مركز الثقل في امبراطوريتهم الى بابل ، جاعلين العاصمة في المدائن ، والآراميون المسيحيون يورثونهم ضروب المتاعب والوان القلق . حتى إذا أنشأ النساطرة في الامبراطورية الساسانية كنيسة مستقلة عن بيزنطة ، سنة ٤٨٤ استطاعوا أن يكسبوا نفوذاً أعظم ، بين الايرانيين ايضاً ، لان هؤلاء كانوا كثيراً ما يساموون سوء العذاب ، بين الفينة والفينة ، بسبب من تعصب كهنة النار الزرادشتيين .

وحاول الفرس مرّتين ، في التاريخ ، أن يشقوا عصا الطاعة على هؤلاء الكهنة ، ولكن على غير جدوى . ففي عهد سابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢) ظهر ماني كمؤسس لديانة غنوسية جديدة متأثرة بالنصرانية ، من ناحية ، وببابل وايران من ناحية ثانية ، فوفق في مابيدو الى أن يستميل اليه الملك الكبير نفسه . فلما انقضى عهد سابور ، وخلفه بهرام الاول ، القى ماني في غياهب السجن ، حيث قطع بقية أيامه . ثم كان عهد سابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩) فاضطهد أتباع ماني في جميع أنحاء الامبراطورية . أما النجاح الذي قُدّر للمانوية في الامبراطورية الرومانية فكان أعظم جداً ، وبخاصة عند الاتراك ، جيران الفرس الشرقيين ، حيث تنافست مع البوذية في التمكين لحضارة محبة للسلام ، وتعميم بركاتها . ولكن المانوية ظلت ذات اثر فعال في موطنها الاصلي ، بابل ، حيث سنقع بعد على أثرها في الاسلام . وبعد قرنين من الزمان ، وفي فترة الفوضى التي عقبت

هزيمة الملك فيروز ومصرعه في المعركة التي خاضها ضد الهون البيض سنة ٤٨٤ ، ظهر معلم ديني آخر هو مزدك الذي واصل ، فعل ماني من قبل ، النزعة الغنوسية في إيران ، ولكن تعاليمه أدت عند التطبيق الى الاشتراكية في الزوجات والاموال. واعتنق الملك الجديد قباذ الاول مذهب مزدك سنة ٤٨٨ رجاء أن يضع حداً ، من غير شك ، لنفوذ رجال الدين وطبقة النبلاء الذي كان يتهدد النظام الملكي . ولكن رجال هاتين الطبقتين كانوا لا يزالون من القوة بمحل استطاعوا معه أن يخلعوا قباذ هذا . حتى اذا خلفه ابنه كسرى الاول جعل الزرادشتية الرشيدة مذهب الدولة الرسمي ، من جديد ، فخلع عليه كهانها الشاكرون لصنيعه لقب « أنو شروان » ، اي الروح الخالدة . وكانت طبقة النبلاء قد تكوّنت ، في حالات كثيرة ، من امراء المقاطعات الذين كانوا مستقلين ، عملياً ، على عهد الأرساكيين ، والذين استطاع الساسانيون أن يحدّوا من استقلالهم ، وان لم يقدروا على إخضاعهم بالكلية . والواقع ان الدولة ما كان في ميسورها ان تستغني عن النبلاء ، لان الفلاحين العاملين في أراضي هؤلاء كانوا يشكلون قلب الجيش ، أعني الفرسان المدججين بضروب الاسلحة والدروع الثقيلة . ومن ثم كانت مراتب القيادة العسكرية العليا ، كما كانت بعض مناصب البلاط ، وقفاً على أسر معينة ، يتوارثها الابناء عن الآباء . وبعد وفاة قباذ الثاني في طاعون سنة ٦٢٨ تدخل هؤلاء النبلاء في شؤون الدولة ، كدأبهم من قبل ، تدخلا لم يكن في صالحها ، فخلعوا سلسلة من الملوك بينهم بنتان من بنات كسرى الثاني . ولم يعد

في مكنة امير الجيوش الامبراطورية نفسه أن يثبت دعائم الملك المتداعية على الرغم من ان سلطته طغت في وقت من الاوقات على جميع مرافق الدولة وقواها . حتى اذا رقي العرش ، سنة ٦٣٢ ، يزْدَجرْد ، آخر ملوك الساسانيين ، كان العرب على أهبة الهجوم على الفرس ، والقضاء على استقلالهم بضربة حاسمة .

سقوط الحيرة

وكان المُثنى بن حارثة ، أحد قواد ابي بكر ، الذين اشتركوا في اخضاع ثوار البحرين ، قد شرع يشن الغزوات ، من تلك المنطقة ، على الحدود الفارسية . فلما تم لخالد بن الوليد القضاء على فتنة مسلمة في اليمامة أمره الخليفة بان يتعاون والمثنى على غزو الفرس . فاتجها اول الامر الى الحيرة ، وكانت وقتئذ قد فقدت منذ زمن طويل ، مكانتها السالفة كسدّ خارجي يقي الفرس غزوات البدو ، بعد ان عزَل كسرى الثاني ، سنة ٦٠٢ ، المنذرَ الخامسَ آخر اللخميين . فهُزِم قائد حامية الحيرة الفارسي ، في أُلَيْس . (بضم الهمزة وفتح اللام) وفي سنة ٦٣٣ سقطت الحيرة نفسها في ايدي المسلمين دون مقاومة اخرى .

غزو فلسطين

فلما تم لجند ابي بكر فتح جنوبي العراق في سهولة ويسر غير متوقعَين ، تذكر المسلمون ، في حماسة شديدة ، الهدف الذي سبق للنبي ان عيّنه لهم ، وهو احتلال الارض المقدسة [١٥] . ومهما يكن من امر ، فقد كان فريق من العرب يعيشون في ظل الامبراطورية

(١٥) راجع دي غويه M. J.de Goeje, *Mémoire sur la conquête de la Syrie*, 2 éd., *Mém. d'hist. et de géog. arabe* II, Leiden, 1901.

البيزنطية كما كان فريق منهم يعيشون في ظل الامبراطورية الفارسية ، فمن الضروري ان يحمل اليهم اخوانهم المؤمنون بركات الاسلام وآلاءه ، ويضموهم الى الدولة القومية التي انشأوها منذ وقت قريب . اما العرب اتباع البيزنطيين في دمشق فلم يعد لهم قوة تخشى لأن الكنيسة الملكية التي كانت تقوم بنفقات جيوش الامبراطور هرقل امتنعت عن تقديمها لما رزحت تحته من الديون الثقيلة الناشئة عن الحرب الفارسية . وبالنظر الى صعوبة المشروع الذي سبق للمسلمين ان حاولوا تحقيقه مرتين ، دونما نجاح ، في عهد النبي ، فقد استعدّت حكومة المدينة منذ البدء استعداداً خاصاً لهذه الحملة على بلاد الشام . وفي ربيع سنة ٦٣٤ جهز ابو بكر جيشين أحدهما تحت قيادة عمرو بن العاص ومهمته الهجوم على جنوب شرقي فلسطين ، والآخر تحت قيادة يزيد بن ابي سفيان وشرحبيل بن حسنة ومهمته الهجوم على مقاطعة مؤاب القديمة (البلقاء) . ولم توجّه الحكومة البيزنطية جيشاً كثيفاً لملاقاة عمرو الا بعد ان تقدم في البلاد شوطاً حسناً . حتى اذا تمت هذه الانتصارات للمسلمين في الغرب أسرع خالد من العراق الى شرقي الاردن وتولى إمرة الجيش العليا هناك ، ومن ثم سار لمساعدة عمرو .

موقعة اجنادين

وفي تموز أو آب نشبت بين الفريقين معركة تدعوها الروايات معركة اجنادين [١٦] ، في فلسطين بين الرملة وبيت جبرين ، كتب

(١٦) انظر الهامش رقم ١٧ .

فيها النصر لجيوش المسلمين الموحدة على قوات بيزنطة التي كان يقودها ارطيون *. وفيما كان ارطيون هذا يلجأ الى بيت المقدس استطاع قواده ، في جهد كبير ، ان يضعوا حداً لتراجع قواتهم المنهزمة ، وان يحشدوها على الضفة الاخرى من الاردن . وكانوا قد فجّروا السدود في بيسان معطلين المخاضات عبر الاردن ، ولكن خالداً استطاع العبور على الرغم من ذلك كله . وفي كانون الثاني ٦٣٥ هاجم العدوَ مرة ثانية في فِحل على المنحدرات الغربية من شرقي الاردن ، وطاردهم حتى دمشق . وفي الوقت نفسه كانت فرقة اسلامية صغيرة قد تقدمت الى الشمال عبرَ المناطق الداخلية غير المحمية واستولت على مدينة حمص . وكان الامبراطور هرقل الذي قاد الحملة من هناك في السنة السابقة قد تراجع في الوقت نفسه الى انطاكية . ثم ان خالداً نازل البيزنطيين في معركة اخرى على ابواب دمشق ، فهزمهم ، وحاصرهم في داخل المدينة . ودام الحصار الذي القاه خالد على دمشق نصف عام استسلمت بعده في ايلول ٦٣٥ . ولأسباب نجهلها انتقلت القيادة العليا من خالد الى ابي عبيدة ، ومع ذلك فقد ظل خالد في الواقع هو القوة الدافعة في الحملة . وكان هرقل قد بعث في هذه الاثناء بجيش جديد من انطاكية الى سورية ، مهمته في أغلب الظن انقاذ دمشق . ولكن أوان الانقاذ كان قد فات ، ومع ذلك فقد استطاع هذا الجيش ان ينقذ حمص على الاقل . حتى اذا اقبل الخريف ، وعقبه الشتاء توقفت فيما يبدو العمليات الحربية بين الفريقين ، بعد صلح اتفقا عليه .

* في المصادر العربية « الارطبون » وهو تصحيف ظاهر [المعربان]

اليرموك

وفي صيف ٦٣٦ افتتح البيزنطيون المعركة ، من جديد ، بجيش عظيم يقوده توذر البطريق فالتقاهم المسلمون في اليرموك ، وهو رافد من روافد الاردن ، منشأه في حوران ومصبه في أدنى بحيرة طبرية [١٧] ، فانزلوا بهم هناك ، في ٢٠ آب ، هزيمة شنعاء ، ذلك لأن الارمن الذين كانوا يؤلفون نصف جيش الروم كانوا حاقدين على الدولة البيزنطية ، غير راغبين في القتال . ثم ان المسلمين تقدموا شمالاً ، يحف بهم النصر من كل جانب ، فاحتلوا حمص للمرة الثانية .

خلافة عمر

وفي الوقت نفسه كانت المعارك ضد الفرس تدور في اتجاه الشرق . فبعد حملة خالد في ربيع ٦٣٤ تولى المثنّى ، البكريّ ، القيادة العليا في الحيرة . وفي تموز من السنة نفسها توفي الخليفة ابو بكر في المدينة ، فتولى الامر من بعده عمر ، وهو أقوى المهاجرين وأعلاهم مقاماً . وكما فعل من قبل في تسهيل الحملة السورية ،

(١٧) تخلط الروايات احياناً بين هذه المعركة ومعركة اجنادين . ومن ثم توهم الناس ان هذه المعركة وقعت في اليرموث الوارد ذكره في التوراة ، اي في خربة يرموك التي تقع اليوم في سهل يهودا . واذ لم يرد اسم اجنادين في اي موطن آخر فقد ذهب العالم الروسي ، ميدنيكوف Myednikov وهو مصيب في ما ذهب اليه ، من غير شك — الى انها تحريف عن « جنابتين » (بتضعيف النون) لان في جوار المكان الذي جرت فيه المعركة موضعين يدعى احدهما جنابة الغربية والآخر جنابة الشرقية ولا يبعد أن يكونا قد جمعا على هذه الصيغة المثناة ، كما يحصل في كثير من الاحيان .

بعث الآن بالامداد والنجدات الى جند المسلمين في العراق ، بقيادة أبي عُبيد الثّقفيّ . ولكن الفرس كانوا كذلك يستعدون لقتال المسلمين وصدّهم عن سبيلهم ، فالتقوا المسلمين عند قُسّ الناطف قرب الحيرة . وهنا عبر ابو عبيد الفرات على جسر من السفن ، فدارت رحى الحرب بين الفريقين ، فهزم المسلمون وقتل أبو عبيد. ثم ان رجلا من المسلمين ، تعمر الحماسة الفائقة صدره ، بادر فقطع الجسر وافسده فوجد المثنّى عسراً شديداً في تأمين خط التراجع للجيوش المنهزمـــة . والواقع ان سياسة الامبراطورية الفارسية الداخلية الشديدة التعقيـــد حالت بين المنتصرين واجتناء ثمرة انتصارهم . هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد كان لهـذه الهزيمة الاولى وقع سيء في نفس عمر زهّده في ميدان الحرب العراقي هذا.

القادسية

ولم يعاود الفرس الهجوم الا في العام التالي . وكان المثنّى في انتظارهم عند البوَيب ، على الضفة المقابلة من احدى قنوات الفرات الغربية . وهناك كتبت الهزيمة على الفرس ، بالرغم مما ابدوه من مقاومة باسلة ، واندفع المسلمون في البلاد غازين ظافرين . وفي مطلع صيف ٦٣٥ استعد الفرس لحوض معركة اخيرة حاسمة . وكان المثنى قد توفي فخلفه في القيادة العليا سعد بن ابي وقاص ، وهو من اسبق الصحابة الى الاسلام ، واشدهم إخلاصاً للنبي . وكان على رأس الجيش الفارسي رُسْتَم نفسه ، قائد الجيش الامبراطوري . وقبيل ذلك ، كان يزدجرد قد تبوأ العرش الساساني ، بعد فترة طويلة من حكم النساء . وكان لا يزال في مقتبـــل العمر فانبرى بحزم

وجدّ الى دفع الخطر الذي كان يتهدد المقاطعة الخارجية على الحدود ، فنشبت في القادسية ، غربي النجف الحاضر ، وعلى ثمانيـــة عشر ميلاً ونصف من معسكر الجيش في الكوفة (التي انشئت بعـد المعركة ثم تطورت الى مدينة) معركة فاصلة بين المسلمين والفرس ، وذلك بعد ان ظل كل من الفريقين يترقب ان يكون عدوه هو البادىء بالهجوم طوال اسابيع عديدة . والواقع ان المصادر حافلة بالتفاصيل الرمانتيكية عن هذه المعركة ، ولكنها لا تكفي كلها لان نكوّن صورة واضحة عن سيرها . وإذ كان من العسير على الفرس ان يحظوا بقيادة ستراتيجية موحدة ، واذ كانت كل قبيـــلة من العرب تحارب مستقلة عن الاخرى فليس من شك في ان المعركة انتظمت سلسلة من المواقع المفردة . وايا ما كان فقد مني الفرس بهزيمة شنيعة ؛ في حين ان خسائر المسلمين ، الذين لم يتحققوا بالنصر الا بفضل الامداد التي تدفقت عليهم من سورية اثناء المعركة ، كانت ثقيـــلة الى درجة اضطرتهم بادىء الامر الى ان يَدعوا العدو ينسحب آمنـــاً . ولكنّ المسلمين ما لبثوا ان تقدموا عبر الفرات ، الى المدائن عاصمة الامـــبراطورية . وبعـد محاولتين فاشلتين لتأخير تقدّم الفاتحين كان عـــلى الفرس ان يتخلوا عن العراق ، فدخـــل العرب عاصمتهم . وكان من الطبيعي ان تصبح الغنائم التي وقعت في ايدي العرب هناك ، والتي تتحدث عنها الروايات حديثاً حافلا بالعجائب ، حافزاً قويا للعرب في الجزيرة ، لا سيما عندما اضطروا الى تجهيز النجدات لتحل محل الخسائر التي ألمت بهم في الارواح . وكان الفرس قد انسحبوا

اول الامر الى حُلوان في سفح سلسلة جبال « الصقر » . وهنا جمع يزدجرد فلول جيشه الامبراطوري ، وعزّزه بقوات جديدة . ثم صار يتقدم شيئاً فشيئاً نحو وادي نهر ديالى ، الذي يصب في دجلة شمالي المدائن ، فوجّه سعد ابن أخيه اليهم على رأس اثني عشر الف مقاتل ، فهزمهم في اواخر سنة ٦٣٧ في جَلُولاء ، على الضفة اليمنى من نهر ديالى ، وعند الطرف الشرقي من الممر الذي يخترق جبل حمرين على طريق القوافل القديمة بين العراق وايران . وعلى الرغم من أن البلاط الامبراطوري حاول الصمود فترة من الزمان في حصون حلوان فقد كانت الاراضي السهلية الممتدة حتى حدود « الجبال » قد سقطت في ايدي المسلمين الذين بادروا الى انشاء مسجد لهم في العاصمة ، ايذاناً بان احتلالهم للبلاد يحمل طابع الاستمرار ، والاستقرار .

فتح الشام

وفي السنة نفسها اكمل فتح الشام ايضاً . وكان مركز القيادة الاسلامية ، في الجابية ، في الجولان على مسيرة يوم واحد الى جنوبي دمشق . وكانت الجابية مقر الامراء الغسانيين من قبل ، وقد احتفظت بأهميتها العسكرية حتى عهد الامويين . ففي سنة ٦٣٧ خرج عمر الى الجابية ومعه جلة الصحابة وخيارهم ، ما عدا عليّاً ، ليوطد الامن في الاراضي المفتوحة . ولعل اسس نظام العطاء [الديوان] الذي ضمن للمشاركين في الحرب ولأعقابهم دخلا ثابتاً من موارد البلاد المفتوحة ، كانت قد وضعت قبل « يوم الجابية » هذا الذي شهده جميع امراء الجيش

العامل في سورية . ومن هناك وجّـــه عمر خالد بنَ ثابت لفتح بيت المقدس ، التي لم تلبث ان طلبت السلام . فتـولى عمر نفسه عقد الصلح مع اهلها ، وكانت شروطه رفيقة غير ثقيلة . فقـــد اعطاهم عمر الامان لانفسهم واموالهم ولكنائسهم كما منحهم الحرية الدينية على أن يعطوا الجزية للمسلمين ، وعلى ان لا يسكن ببيت المقدس معهم أحـدٌ من اليهود . والواقع ان عمر سار بنفسه الى بيت المقدس ، فدخل ساحة الهيكل المهجورة فأزال الردم بيده عن الصخرة المقدسة ، التي يعدّها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً منتصفَ الارض ، وأمر ببناء المسجد هناك .

فتح الجزيرة

أما وقد أصبح المسلمون الآن أسياد سوريـــة والعراق فقد بات من المحقق ان تسقط الجزيرة في ايديهم من تلقـــاء نفسها . وكانت الجيوش البيزنطية لا تزال تحتفظ هنـــاك ببعض المواقع المحصّنة . وكان الآراميون ، سكان البلاد الاصليون ، خاضعين أبداً لاضطهـــاد الكنيسة الارثوذكسية السائدة آنذاك ، بسبب من قولهم بمبدأ الطبيعة الواحـــدة للمسيح ، فلم تكن بهم رغبـة في الاحتفاظ بالوضع الراهن . ليس هذا فحسب بل لقـــد وفّقت قبـائل العرب البدوية ، قبل عهد الاســـلام بقرون ، الى ان تجتـاح البلاد ، والى ان تبسط سلطانها من حـــين الى حين على الرهاء والحضر . وهكذا كانت بلاد الجزيرة على أتمّ الاستعداد للفتح العربيّ .

وابتدأ الهجوم الاسلامي من سورية . وتفصيل الامر أنه بعـد

وفاة أبي عبيدة سنة ٦٣٩ ، بطاعون عَمْواس [١٨] عيّن عمر إياد بن غانم عاملاً على حمص وقِنّسرين وأمره بالتوسع في بلاد الجزيرة . وفي النصف الثاني من السنة تقدم ابن غانم الى تلك البلاد، واضطر — في فترة لا تزيد على عام ونصف — جميع مدنها تقريباً الى الاستسلام. ولم يقاوم المسلمين مقاومة جدية الا مدينة رأس العين ، ولكنها لم تلبث ان خضعت . وفي سنة ٦٤١ قام إياد بغزوة على ارمينية نفسها ، ليقضيَ نحبه بعيد عودته الى مقر امارته بقليل .

فتح مصر

وفيما كان إياد يفتح الجزيرة ، انصرف المسلمون، من جهة ثانية، الى فتح مصر [١٩] ، التي كانت من غير شك ، محط انظار الحكومة الاسلامية الجديدة ، بوصفها اهراء ذا شهرة قديمة ، والتي كان النبي نفسه على علم باضطراب الاحوال فيها. ففي سنة ٦٢٨ حاول الامبراطور هرقل، بعد ان استخلص مصر من الفرس الفاتحين، أن يربط القبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بالكنيسة الامبراطورية . وفي سنة ٦٣١ عين كورش (المعروف عند العرب بالمقَوقس) الذي كان حتى ذلك الحين اسقف « فاسيس » في القبق [القوقاز] بطريركاً على الاسكندرية ورأساً للادارة المدنية في وقت معاً . ولكن سياسة المقوقس الكنسية والحاحه في جباية الضرائب الكثيرة ثقُلا على القبط الى درجة كان من الطبيعي معها ان يرحبوا بالعرب كمنقذين ،

(١٨) لا تزال ذكراه حية اليوم اذ يعتبره الفلسطينيون المسلمون ولياً .

(١٩) راجع بتلر A. J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion*, Oxford , 1902 .

فعلَ السوريين ، وهم اخوانهم في الدين ، من قبل. وتفصيل الأمر أن عمرو بن العاص الأموي ، اول قائد للجيش العربي في فلسطين، هاجم من هناك سهل الفيّوم الخصب في كانون الاول سنة ٦٣٩ ، وليس معه من الجند عددٌ كاف لمثل هذا الصنيع، ومن غير ان يتلقى في ما يبدو ، أمراً بذلك من الخليفة عُمر، فوفق الى احتلال الفرماء في كانون الثاني سنة ٦٤٠ . ولم يجرؤ عمرو أن يتقدّم ، اول الامر، إلى أبعد من ذلك ، بعد أن جمع القائد الاعلى تيودوروس جيشاً عظيما في بابليون ، أي ممفيس القديمة . وعندئذ بعث عمر بالزبير ، احد اصحاب رسول الله المقدمين ، الى مصر على رأس قوة مؤلفة من خمسة آلاف رجل ابتغاء نجدة عمرو ، ومراقبته ايضاً لما عرف عنه من ميل الى الاستقلال بالرأي والعمل . وفي حزيران سنة ٦٤٠ أغرى عمروٌ البيزنطيين بالخروج من حصنهم وخوض المعركة ضدّه فهزمهم في عين شمس ، وكان حصن بابليون لا يزال في الوقت ذاته صامداً في وجه المسلمين . ومن هناك دخل المقوقس نفسه في مفاوضات مع عمرو ، ثم قصد الى بيزنطة ليحظى بموافقة الامبراطور على التسوية التي أرادها مع العرب . ثم ان هرقل ، الذي اعتبر المقوقس خائناً ، توفي في ١١ شباط سنة ٦٤١ . وفي الوقت نفسه كان الغزاة من العرب يجوسون خلال الديار غانمين مخرّبين . وأرسل تيودوروس يلح في طلب الامداد ، ولكن على غير طائل . فقد كان الاوصياء على الامبراطور الجديد ، قسطنطين الثاني ، [٢٠] وكان آنذاك في الحادية عشرة من العمر ، فقط، مضطرين

(٢٠) حفيد هرقل. رقي العرش بعد وفاة أبيه، الذي دام حكمه اربعة اشهر فقط.

إلى ان يتركوا الاحداث في الشرق تتخذ سبيلها المظلم ، وذلك لحاجتهم الماسة الى الاحتفاظ بجيوشهم في العاصمة نفسها ابتغاء القضاء على ثورة كانوا يتوقعونها ، ولانهاكهم من ناحية ثانية بالحرب ضدّ اللومبارديين في ايطالية . وفي يوم الاثنين الذي تلا الفصح ، ٩ نيسان سنة ٦٤١ استسلمت بابليون ، وتقدّم عمرو متمهّلاً ، عبر النيل ، إلى الاسكندرية . فما كان من الحكومة البيزنطية إلا ان بعثت بالمقوقس إلى مصر ، كرّةً أخرى ، ليفاوض عمراً . فتمّ الاتفاق بين الفريقين على أن يُعطي البيزنطيون جزية سنوية معينة ، وعلى أن يترك المسلمون للمسيحيين معابدهم ، ولا يتدخلوا في إدارة شؤونهم الاجتماعية . وعلى أساس هذه المعاهدة أخلى البيزنطيون الاسكندرية في ١٧ ايلول سنة ٦٤٢ فاحتلها العرب . ثم انشأ عمرو ابن العاص المسجد الذي لا يزال يحمل اسمه في الفُسطاط ، معسكر بابليون ، التي أصبحت في ما بعد القاهرة القديمة ، فكان في ذلك إيذانٌ مبدئي باستيلاء الاسلام على وادي النيل . وفي عهد معاوية جُدّد هذا المسجد ، وكان مركزاً للمؤذنين ، فصارت له غُرفٌ صغيرة للحراسة ذات درجات مُنشأة على الزوايا ، وهو الشكل الأقدم للمئذنة ، الذي تطور بعدُ على ضروب من الطُرُز ، والذي لا يزال قائماً إلى الوقت الحاضر في بعض مساجد القرى في مصر وآسية الصغرى [٢١] .

ولم يحاول الاسطول البيزنطي أن يظهر للمرة الثانية في الاسكندرية ابتغاء استردادها من المسلمين إلا في سنة ٦٤٥ .

(٢١) راجع شاخت J. Schacht in *Ars Islamica* V (1938), p. 46 ff.

والواقع أن سكان المدينة فتحوا ابوابها في وجه البيزنطيين ، فما استطاع عمرو أن يُخرجهم منها حتى سنة ٦٤٦ . وكان عمر ابن الخطاب قد عزله ، قبل ذلك ، عن الحكم ، ولكنّ عثمان – خليفة عمر – ما لبث أن أعاده بعد أن اثبت الأمير الجديد عجزه عن النهوض باعباء الأدارة ومواجهة الأحداث في ذلك الظرف .

وتبنى المسلمون في مصر ، شأنهم في البلدان الاخرى ، مادة النظام الاداري الذي اتبعته الحكومات السابقة . بل إنهم ابقوا جميع الموظفين القدماء في مناصبهم ، التي ظلّ يشغلها الاقباط على العموم في ما بعد ايضاً . وكانت للامير ، الذي يمثل الخليفة ، السلطتان العسكرية والادارية ، وكان يعاونه – خشيةَ ان يتسع نفوذه باكثر مما يجب – عامل هو بمثابة مدير للمال . والحق أننا مدينون للمناخ المصري الجافّ بهذه المجموعة الضخمة من ورق البردي التي لا نزال نحتفظ بها ، والتي تلقي نوراً ساطعاً على ماجريات الامور آنذاك . فقد سبق للرومان ، رغبة منهم في توفير الغذاء لحامياتهم ، كما سبق للبيزنطيين رغبة منهم في تموين عاصمتهم ايضاً ، أن اعتادوا تقدير ما يتوجب على كل قرية أن تقدّمه من محصول الحنطة فيها ، وهو لا يزال قيد الدرس بالنورَج . فلما استولى العرب على مصر احتفظوا بالحقوق نفسها لجنودهم وامَرهم . فكان الحاكم المسلم يبعث في اواخر العام ، قُبيل موسم البَذر الجديد ، ببيان سنوي إلى كلّ منطقة ، وفيه نصٌ على مقدار ما يتعيّن عليها تقديمه للدولة من محاصيلها . وكان رؤساء المناطق مسؤولين عن جباية هذه الضرائب عَيناً . وكان يساعدهم في ذلك جُباةٌ

يتقاضَوْن خمسةً في المئة مما يجمعونه للدولة من الغلال ، مقابلَ خدماتهم وتعويضاً عن أيّ نقص قد يحدث . وكان هؤلاء الجباة يقدّمون إلى الدولة ضماناً للحنطة التي ستجبى من الفلاّحين إلى أن تودَع في مخازن الدولة في المناطق المفردة ، وفي عواصم المقاطعات بصورة خاصة . ومن هناك تُنقل الحنطة إلى العاصمة بطريق الماء ، عادةً ، لتوزّع بعد على الجنود وامَرهم . وكان على المناطق أن تعطي ، بالاضافة إلى هذه الرسوم العينيّة ضريبة مالية هي في الدرجة الاولى مقابلَ الحماية وحرية العبادة التي تضمنهما الدولة لها . ولم يكن للفلاحين موردٌ ماليّ غير تجارة الحنطة ، طبعاً . ولكن هذه التجارة كانت تراقب ، على الدوام ، مراقبة دقيقة من قبل الدولة : فقد كانت محاصيل الحنطة كلها تنقل الى بيادر اميرية ، حيث تعقد الصفقات ، في العادة ، ايضاً . ليس هذا فقط . بل لعل الدولة كانت تقبل في كثير من الاحيان ان تأخذ الحنطة بدلا من الرسوم النقديّة المعيّنة ٢٢ .

فتح فارس

وكان مصير الامبراطورية الفارسية قد تقرر ، في الوقت نفسه . ففي سنة ٦٤٠ غادر الملك يزدجرد حلوان حيث لم يعد يستشعر

(٢٢) راجع بيكر : C. H. Becker , *Grundlagen der wirtschaftlichen Entwicklung Agyptens in den ersten Jahrhunderten des Islams, Islamstudien* I, Leipzig, 1924, 201-17.

راجع ايضاً « بل » : H. Bell, *The Administration of Egypt under the Umayyad Khalifate*, in *Byzant. Zeitschrift* XXVII. (1928) , 278ff .

ولامنس H. Lammens, *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930, 303 - 23.

السلامة ، بعد أن سقطت البلاد التي حولهـــا في ايدي العرب ، وانسحب إلى فارس . وهناك أنشأ يستعد للمعركة الاخـــيرة . ولكن عُمر لم يمهله حتى يتهدد بالخطر المقاطعات التي ضمها العرب حديثاً إلى ملكهم ، فوجّه إليه النعمان بن مُقرّن على رأس جيش مؤلف من جميع الجنود الذين كانوا على الحدود آنذاك . ولم تكد تبـدأ الحملة سيرهـا ، سنة ٦٤٢ ، حتى وفّق المسلمون إلى احتـــلال قرميسين * ، شمال شرقي حُلوان ، وبذلك سيطروا على المسالك المؤدية إلى المناطق الجبلية . ثم إنهم احتكّوا في نِهاوَند ، جنوبي هَمَذان (اكبتنا القديمة) بقوات العدوّ وعلى رأسها القائد المحنك الفيرُزان . وكان جيش الفرس يفوق المسلمين عدداً . فاستمرت المعركة يومين اثنين . وحفّ الغموض بادىء الامر بنتيجتها النهائية . فقد سقط في ساحتها النعمان نفسه ، ولكن خَلَفه حذيفة بن اليمان ، الذي اختاره عمر من اوّل الأمر لقيادة الجيش إذا ما قضى النعمان في المعركة ، لم يلبث ان انتزع النصر للمسلمين .

بعد هذه الهزيمة التي حلّت بالفرس لم يعد من الميسور مواصلة المقاومة الموحّدة في قلب الامبراطورية . ومن هنا لجأت فلول الفرس إلى المدن المحصّنة ، وطفقت تدافع عن كل منها دفاعاً مستقلاً في وجه المسلمين الذين كانوا يتابعون تقدّمهم المطّرد في احتـلال البلاد . حتى إذا كانت سنة ٦٤٣ سقطت ، إصفهان ، المدينة الرئيسية التي فزِعَ إليها يَزْدَجرد نفسُهُ بعد المعركة . وهكذا كان عليه الآن

---

* وجاءت ايضاً في المصادر « قرماسين » . [المعربان]

أن يلتمس النجاة في إصطخر، وهي المدينة التي خلفت برسيبولس العاصمة القديمة لمهد الفرس الأول . وهناك حاصره المسلمون فترة من الزمان في غير ما جدوى ، إذ كان أبنـــاء البلاد في جميع المقاطعات ، وبخاصة في « الجبال »، يقومون بمحاولة أخيرة يائسة لصدّ التيّار العربيّ . حتى إذا لم يعد في مقدور الملك أن يثبت ، في إصطخر نفسها، لبّى دعوة جاءته من مرزبان طبرستان لزيارتها — وطبرستان هي المنطقة الجبلية الواقعة عند الطرف الجنوبي من بحر قزوين — علّه يجد عند حكّام المقاطعـــات الشرقية بقيّة من المقاومة الفعّالة. وعلى الرغم من أن أهالي خراسان — وهي المقاطعة التي كانت تفصل قديماً ما بين إيران والبوادي التركية — قد رحّبوا به أحسنَ ترحيب فان أحداً لم يلبّ نداءه إلى خوض الحرب ضد العدوّ . فتجدّدت في شخصه المأساة التي قضت قبل الف سنة على دارا ، آخر الاخيمينيين ، في تلك البلاد نفسها . والحق أن عامله في خراسان لم يكتف بالتنكر له فحسب ، بل عدا ذلك إلى إغراء الامير التركي بمقـــاتلة الامبراطور . وهكذا خسر يزدجرد آخر اتباعه ، ففر بنفسه الى مرو ، ولكن المدينة أوصدت أبوابها في وجهه . فاضطر الى ان يلتمس النجاة في بيت رجل طحّان . وفي سنة ٦٥١ بعث اليه عامل خراسان من فتك به في مخبأه الاخير هذا ؛ فاختتمت بموته السلالة الساسانية . والواقـــع ان ذكرى يزدجرد لا تزال حية الى اليوم بين البقية الباقية من معتنقي الدين الايراني القومي ، أي عبدة النار في الهند ، الذين يعتبرون يوم ارتقاء يزدجرد العرشَ بدءاً لتقويمهم الوطني .

ولكن هذا التوسع العظيم الذي تمّ للدولة العربية في الخارج لم يرافقه تطور داخلي يتكافأ معه عِظماً وتعقيداً . فقد كانت هذه الدولة تقوم على اساس ثيوقراطي من حيث المبدأ ، ولكنها لم تفصل في مسألة عظمى ، هي مسألة الزعامة الزمنية ولمن تكون ، فظلت محلاً للخلاف بين المسلمين . وليس من شك في ان محمداً كانت له في حياته ، بوصفه رسول الله ، سلطة لا تحتمل الجدل . ولكنه تُوفّي من غير ان يعين خليفة له . ولعل المؤمنين كانوا يتوقعون ، اثناء حياة النبي ، ان يظل هو على رأس الجماعة الاسلامية الى يوم الحساب بالذات ، حتى اذا لحق بالرفيق الأعلى نشأت في المدينة منازعات حزبية كادت تهدد كيان العرب السياسي الجديد بالانحلال التام .

وتفصيل الامر انه كان على المسلمين أن يختاروا زعيماً يؤم الناس في الصلاة الجامعة ويشرف على مقدرات النظام الجديد . ولم تكن ثمة حقوقٌ وراثية ، بل لم تكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب . والقرآن نفسه الذي كان دستوراً يسير النبي على ضوئه في الحكم ، لم يشتمل على ايما توجيه يستعين به المسلمون على حلّ مشكلتهم ، ويهديهم سواء السبيل إلى معرفة الرجل الذي يجب أن يُدعى لخلافة الرسول . وما كان لشيء أن ينقذ سفينة الدولة من الغرق ، في غمرة هذا النزاع ، غير قرار جريء . والواقع أن اصحاب النبي المكيين ، المقدمين عنده لسبقهم إلى الاسلام ، كانوا كثيراً ما يستشيرونه في شؤون الدولة ، وكانت خاصتهم تتألف

من أبي بكر ، وعمر بن الخطاب ، وكلاهما حَمُو الرسول ، ومن أبي عبيـــدة عامر بن عبد الله بن الجرّاح ، ذي المواهب العسكرية الممتازة ٢٣ . فلم يكد محمدٌ يموت حتى استولى هؤلاء عـــلى زمام الأمر . وكان عُمر بن الخطاب أعظمهم شأنـاً . والروايات تصوّر لنا دائماً ، هذا الرجل الطويل القامة وهو يحمل سوطاً ينتهر بـه ابنته حفصة ، بل ينتهر سائر أزواج النبي فيخفنه بأكثر مما يخَفنَ محمداً نفسه . وأياً ما كان ، فهو لم يلِ أمر المسلمين مباشرة ، بـل قدّم لهذه الولاية صديق الرسول الاول : أبا بكر . ولم يصبح هو صاحب السلطة بصورة رسمية ، إلا عندما توفي ابو بكر ، بعد عامين . وكان أبو بكر وعمر يُدركان دائماً ، أتمّ الادراك ، أنهما يتولّيان منصبهما كممثّلين للنبيّ ، الذي هو أمير دولة الاسلام الثيوقراطية الأوحد . من أجل ذلك اصطنع أبو بكر لقبَ خليفة رسول الله ، في حين تسمّى عمر ، باديءَ الرأي ، باسم خليفةِ خليفةِ رسول الله . حتى إذا ظهر له أنّ هذا اللقب غير عمليّ في الحياة اليومية اقتصر على لقب الخليفة وأمير المؤمنين .

ومهما يكن من شيء ، فلم يكن أصحاب النبيّ من المهاجرين هم وحدهم أصحابَ النفوذ في الدولة ، بل شاركهم في ذلك نفرٌ من إخوانهم القرشيين الذين لم يُسلموا إلا بعد أن أسلم الناس ، وبعد أن

---

(٢٣) ولقد ذهب لامنس في كتابه « دراسات عن عصر الامويين » ، كما ذهب قبل ذلك في مجموعة الكلية الشرقية (في بيروت) ج ٤ ، ص ١١٣ وما يلي ، إلى أن هذا « المثلث » قد حاول ، حتى في حياة النبي ، أن يحـد من نزعته الاوتوقراطية .

تحقّق لهم أن النصر مكتوبٌ للمسلمين، بلا خلاف . وكان الأنصار ينقمون على القرشيين هذا النفوذَ ، فقد أظهروا احتجاجهم ، حتى في حياة النبيّ ، على محاباته لبني قومه عند توزيع الغنائم ، وبخاصّة الأراضي. ولكن المصالح المشتركة التي كانت تحمل الأوس والخزرج على الاتحاد في وجه المكيين لم تكن قد قضت بعد على ما بينهما من عِداء قديم . ومن هنا كان في استطاعة محمد أن يهدّيءَ من روع الانصار مرّةً بعد مرّة. وفي النهاية كاد الانصار يخسرون مركز الاكثرية في المدينة . حتى إذا توفيّ النبي مُنيت محاولتهم الاخيرة إلى استعادة الاستقلال باخفاق ذريع بسبب من حَزم عمر وسرعة تقريره . وما لبثت الثورات التي نشبت في أنحاء الجزيرة أن وحّدت الانصار والمهاجرين وجمعتهم في وجه الخطر المشترك . فأسهمَ الاوّلون بقسط وافر في حروب الردّة ، وإن لم يبرزوا في المراكز الرئيسية ،وأبلوا فيها بلاءً حسناً . والواقع أن مهمة عمر كانت صعبةً في وسط هذه البيئة التي طالما أثارتها الدسائس والحزازات الصغيرة ، وخاصّةً لأن اصحاب النبي السابقين إلى الاسلام كانوا يحصون عليه أعماله ، وكأنهم مجلس شيوخ الدولة . وإذ كانت المشاكل الجديدة تواجه عمر في كل يوم تقريباً خلال الاثنتي عشرة سنة التي حكم فيها المسلمين فلم يكن في ميسوره أن يبتدع بعدُ نظاماً للدولة أشد إحكاماً .

وبانقضاء حروب الردّة ، رجعت القبائل العربية التي أعلنت العصيان بعد وفاة النبي والتي لم تخضع إلا بعد جُهد ومشقّة ، إلى حظيرة الاسلام ، فَجَنت من ذلك فوائد كثيرة عوّضتها من

ضياع استقلالها المُطلق . ومن ذلك الحين لم يعد يُسمح لدين غير الاسلام بالحياة ضمن شبه جزيرة العرب نفسها . وهكذا نقلَ عمر اليهود ، الذين سمح لهم محمد بالبقاء في خيبر ، إلى سورية [٢٤] . وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربياً بنعمة الاسلام ، فهو يلتحق باحدى القبائل كمولىً من مواليها . ولكن احداً ، اولَ الأمر ، لم يكن يتوقع أن يعتنق غير العرب الاسلام . وعلى هذا الاساس كان الغرض من الحرب المقدسة [الجهاد] اخضاع الأعاجم لسلطان العرب ، قبل كل شيء .

ومن هنا انتظمت الامبراطورية الثيوقراطية — التي نشأت بعد وفاة النبي عن الدولة القومية التي رَفعَ هو قواعدها — طبقتين متميزتين دينياً ، وبالتالي سياسياً . فقد كان المسلمون ، بوصفهم الحكام ، يؤلفون أيضاً طبقة المحاربين . والواقع أن أعمال التقوى اضطرت فترة من الزمان ، إلى أن تُخلي مكان الصدارة للمطالب العسكرية . فلقد عُبىء المسلمون تعبئة كاملة للعمل الحربي ، وصُنّف الرجال الذين بلغوا سنّ الخدمة العسكرية في قوائم الجيش على أساس القبيلة أو العشيرة . فكانوا ينزلون في المدن المفتوحة ، ولذلك دُعُوا أيضاً المهاجرين (وهو الاسم نفسه الذي اتخذه الاتراك النازلون ، بعد ذلك بقرون ، بين النصارى في شبه جزيرة البلقان) . ولكن مستعمرات عسكرية جديدة كانت تشيّد لهم في كثير من الاحوال كالفسطاط (القاهرة القديمة) في مصر ، والقيروان في إفريقية الرومانية في ما بعد ، وكالكوفة

(٢٤) في جنوبي بلاد العرب فقط ظلت الجاليات اليهودية قادرة على البقاء .

والبصرة في العراق ، بشكل خاص .

والحقّ ان السلطة الاسلامية في البـــلاد المغلوبة احتفظت بتنظيمها العسكري الى ما بعـد ذلك بزمن طويل . وكان قوّاد الحاميات ، في الوقت نفسه ، اول حكّام عيّنهم الخليفة . ليس هذا فحسب بل لقد كانوا هم الذين يؤمّون الناس في الصلاة ويعظونهم في الجُمع ، بسببٍ من أن الجند والجماعة كانوا سواء . كذلك كان من مهمّاتهم ، أوّل الأمر ، النظر في المظـــالم والحكم بين المتخاصمين ، وهي مهمّة لم يكن يعيّن لها رجالٌ مخصوصون حتى أيام مؤسس الخلافة الاموية . أما ادارة الضرائب فكانت وحـدها منوطةً ، منذ البدء ، بموظف مسؤول مباشرة تجاه الخليفة .

وكما كانت الحال قديماً في الصحراء، فانّ كثيراً من السلطات التي تتولاّها الحكومة نفسها في الدول القائمة على أساس القانون قد تُركت الآن للقبائل ، تستقلّ في تدبيرها كما تشاء . ولكن بينا كانت العشائر الصغرى في الصحراء هي التي تتـــولى شؤون النظـــام في ما بينها ، كانت الجماعات القبليّة الكبرى في المستعمرات العسكرية [الأجناد] تقوم بدور فعّال بسبب من انها تضم اعضاء المجموعات القبلية الصغرى التي جزّأتها حملات الفتح .

وإذا كان العرب يؤلفون طبقة المحاربين فقـد كان الاعاجم ، من الجهة الثانية ، همُ الرعية ، أي القطيع ، وجمعهـــا رعايا ، كما يدعوهم تشبيه ساميٌ قديم كان مألوفاً حتى عنـد الأشوريين . وفيما كان المسلمون لا يدفعون إلى خزانة الدولة غير الزكاة، كانت الرعية تدفع الجزية ، عاملةً بذلك على إعالة المسلمين . ولكن الدولة كانت

قليلة الاهتمام بشؤون الأعاجم الداخلية ، كما كانت قليلةَ الاهتمام بشؤون القبائل الداخلية ، بل لعلّ اهتمامها بشؤون هذه كان أكبر وأبعد . وكان الاساقفة هم الذين تولّوا شؤون الرعية في البلدان التي كانت من قبلُ مسيحية . أما في فارس فاحتفظ الدهاقنة ،أو رؤساء الاقاليم ، بمكانتهم العليا .

واحتفظت المدن والأرياف التي استسلمت للمسلمين دون قتال بحرّيتها وأملاكها . ولقد عيّنت الجزية التي كان عليها أن تعطيها مقابل ذلك ، تعييناً مباشراً ، كجزءٍ من شروط الاستسلام . أما المقاطعات التي فُتحت عَنوةً فقـــد أصبحت غنيمةً للمسلمين . واستولت الدولة على خُمس هذه المقاطعات ، بالاضافة إلى الأراضي الأميرية السابقة التي هجرها أصحابها ، بَينا توزّع المحاربون الذين شاركوا في الفتح كلّ ما عدا ذلك ، بمـــا فيه مِلكية الأراضي وسكانها . وإذ كان المسلمون لا يستطيعون أن يغادروا المراكز العسكرية ليستقروا على الأرض ويحرثوها ، فقد كان لا بُدّ من إبقاء المالكين الأصليين في مواطنهم ، على كلّ حال . ومن هنا لم يكن وَضْع المقاطعات المفتوحة ، من الوجهة العملية ، ليتميّز تميّزاً جوهرياً عن وضع المناطق التي استسلمت طوعاً واختياراً إلا من حيث أن الجزية المفروضة عليها قابلةٌ لأن تُزاد ، اعتباطاً ، في أي وقت . وأيّاً ما كان فقد احتفظت الدولة بعائدات هـذه الجزية لنفسها ، واكتفت بأن اقتطعت أعطياتٍ ثابتةٍ منها لتوزّع على المحاربين وأعقابهم . ولقد سبقت منا الأشارة إلى أنّ عمرَ هو الذي وضع الخطوط الكبرى لهذا النظام في يوم الجابية .

وفي سنة ٦٤٤، قُتِل عُمر لدُنْ عودته من الحجّ الذي اعتاد أداءَهُ كلّ عام، وهو في عُمرة نضالهِ الجليـــل بسبيل نشر راية الاسلام، وعزم الشباب لما يزل – أو يكاد – ملءَ بُردَيه. ذلك بأنّ غلاماً فارسياً، هو أبو لؤلؤة فيروز – وكان يعمل في المدينة في خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة – جاءَ الخليفة يشتكي اليه شدّة الخراج الذي كان يتعيّن عليه أن يجمعه لسيّده، فلم يسمع منه. فلما كان صباح اليوم التالي وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤمّ الناس في صلاة الصبح طعنـــه الفارسيّ بخنجره طعنتين، كانت احداهما قاتلةً. وإذ قد جاءه الموتُ فجاءةً، فلم يكن في ميسور عمر أن يتخذ أيّ إجراء في ما يتصل بالخلافة. وكان أبو عُبيدة – وهو أقرب الناس إليه بعد أبي بكر – قد توفي قبله. وليس بالأمكان أن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذي عيّن، على فراش الموت، أهل الشورى الذين فصلوا في المسألة بعد وفاته. وكانت وفاته في ٢٣ تشرين الثاني سنة ٦٤٤.

واجتمع للنظر في انتخاب الخليفة الجديد كلٌّ من صِهري النبي عليٌّ وعثمان، وثلاثةٌ من أقرب أصحابه إليه – عبد الرحمن بن عوف والزبير [بن العوّام] وسعد بن أبي وقّاص. أما طلحة الذي كان من المفروض أن يشـــترك في المؤتمر عضواً سادساً فلم يكن في المدينة آنذاك، ولم يستطع بلوغها في الوقت المناسب. وإنما وقع اختيار هذا المجلس الانتخابي على أقلّ أعضائه شأناً، عثمان بن عفّان الأمويّ. ولعلّ أصله الارستوقراطي هذا، الذي عوّضه من قلّة

مقدرته الشخصية حتى في عَيْني النبي، كان له أثره الحاسم في انتخابه. وليس من شك أيضاً في أن أعضاء المجلس آثروا اختياره رغبةً منهم في أن يروا على رأس المسلمين رجلاً يستطيعون توجيهه والتعامل معه، في سهولةٍ ويُسر. ولكنّ الأيام ما لبثت أن خيّبت رجاءَهم هذا، مع العلم بأنّ ذلك لم يكن ناشئاً عن قوّة شخصية الخليفة نفسه، على التحقيق، بقدر ما كان راجعاً إلى عشيرته التي استسلم هو نفسُه لسلطانها استسلاماً مطلقاً. والواقع أن الأمويين هم أنسباء بني هاشم، عشيرة النبيّ، ولكنهم كانوا في العصر الجاهليّ أرفع منهم مكاناً وأشدّ قوةً وبأساً. وكان سيّدهم البارع، أبو سفيان، قلبَ المعارضة القرشية للنبيّ طوالَ سنوات عديدة. حتى إذا تمّ للمسلمين فتح مكة استقرّ معظم الأمويين في المدينة، حيث عمِل النبيّ على إرضائهم وتأليف قلوبهم، بشتّى الطرق والأساليب. وفي عهد أبي بكر وعمر وُفّق يزيد بن أبي سفيان، ووفّقَ أخوه معاوية من بعدِه، إلى أن يبلغا مرتبةً بارزة في الدولة. فلما كانت خلافة عثمان انتهى الأمويون إلى القمّة، لأنّ عهده كان في الواقع عهدَ اسرته وعشيرته. فلقد ترك تصريفَ الشؤون لنسيبه مروان في المدينة، وعيّن أقرباءه حكّاماً على جميع الامارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبي القدماء — الذين أثرَوا ثراءً ضخماً أثناء الفتوح والذين اقتنوا بالاضافة إلى أملاكهم الاصلية في مكة املاكاً مثلها في الطائف وأراضيَ واسعةً أيضاً — أن مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التي تسعى إلى أن تسيطر على كل شيء.

ولقد حاولوا باديء الامر أن يحرّروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالاخفاق .عندئذٍ أعلنوه الخصومةَ شخصيّاً . وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمانُ نفسَه في المدينة وليس حوله إلا نفرٌ من الاصدقاء، وخاصّةً بعد أن وقفت عائشة «أم المؤمنين»، أرملة النبيّ الشابّة ، المحبة للفتنة ، في جانب خصومه . كذلك استطاع أعداء الخليفة أن يستثيروا العرب في الولايات ، فانقلبوا على عثمان .

عثمان والفتنة

وتفصيل الامر أن المحاربين في سبيل الله أخذوا يدركون شيئاً فشيئاً ، بعد ان انقضى صخب السنوات الاولى من حرب الفتح ، انهم عملوا ما يتنافى مع مصلحتهم عندما تركوا الحكومة تستأثر بجميع الغنائم العقارية .ذلك بان هذا الوضع قد مكن الدولة من الاستقلال بنفسها عن الجيش – الذي تدين له بكل شيء على كل حال – بعد أن تفردت بتقرير الاجور الواجب دفعها ، وصارت قادرة على الضرب على أيدي مثيري الشغب بالكلية . والحق أن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الفينة والفينة من طريق الهجوم على صندوق المال الاقليمي وسلبه ، ومن طريق الاحتجاج على ارسال الاموال الفائضة إلى العاصمة ، بوجه خاص .

صحيح أن عمر كان قد أحدث هذا النظام من قبل فلم يجرؤ أحد على رفضه وعصيانه . ولكن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية ، وبخاصة بعد أن اخذت عليه أهواء عماله وأخطاؤهم ، وهم

في الأعم الأغلب من ذوي قرباه . فلم يكد يتخذ بعض الاجراءات الحساسة حتى لقيَ نقداً شائناً في كل مكان . وفي سنة ٦٥٣ ظهر الاختلاف في قراءآت القرآن أثناء غزوة ارمينيـــة بين جيوش الشام وجيوش العراق . وإذ كان التوتر بين سكان هذين القطرين على أشده آنئذ فقد كان من الطبيعي أن يؤدي ذلك الخلاف على أيّ القراءات القرانية أصح، إلى اشتباكات عنيفة بين الجنود . ولكي يحول الخليفة دون تجدّد هذه الحوادث عزم على اعتماد نسخة رسمية من القرآن . والواقع أن أجزاء كثيرة من الوحي كانت قـــد دوّنت بشكل منجّم متفرّق حتى في أيام النبي . فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت ، المدنيّ الشاب الذي كان يكتب الوحي للرسول ، بأن يجمع صحف القرآن كلها . ولكن ذلك لم يعدُ أن يكون عملاً شخصياً ليس له صفة رسمية عامة . حتى اذا توفي عمر انتقلت هذه الصحف الى ابنته حفصة . ثم إن عثمان حَصَلَ على هذه المجموعة الأولى ، فعهد الى زيد ، وثلاثة نفر من جلة القرشيين ، بأن يعيدوا النظر فيها كرّة اخرى . ففرغوا لما نُدِبوا له وأدّوا مهمتهم في عناية فائقة يشهد عليها اقتران عملهم بالقبول والاعظام ، في كل مكان ، من غير معارضة . ومع ذلك فقد وجد الكوفيون في هذا الصنيع مادة خصبة أفادوا منها في إثارة الناس على عثمان ، آنذاك . وكان في جملة الناقمين عبدالله بن مسعود ، وهو من أقدم اصحاب الرسول ، وكان يعتبر نفسه أحد الثقات الكبار في القرآن . ولقد ذهب إلى أن النسخة التي اقرّها عثمان محرّفة ، غير كاملة ، متهما زيداً وأصحابه باستبعاد الآيات التي تلعن الامويين وتذكرهم

مع اعداء الرسول .

واستطاع خصوم الخليفة في المدينة ، وعلى رأسهم علي وطلحة والزبير ، أن يفيدوا من الاستياء العام . ومع انهم كانوا يعتبرون من واجبهم الدفاع عن الثيوقراطية الصحيحة ضد إدارة عثمان الدنيوية فلم يجرؤوا على النضال ضدّه جهاراً ، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الامصار الذين تركزت في ايديهم قوة الاسلام المادية على كل حال . وفي سنة ٦٥٥ أعلن الزعماء اهلَ الامصار بأن مجال النضال الفعـــال في سبيل الاسلام بات في المدينة ارحب منه في المقاطعات النائية الواقعـــة على الحدود . واندلعت النار في الكوفة . ففي حزيران سنة ٦٥٥ اعترضت قوة تتألف من الف شخص على رأسهم مالك الأشتر اليمني الذي كان مواليـــاً لعليّ شخصياً، سبيل عامل الكوفة، سعيد ، عند عودته من الحج ومنعته من دخول البلدة . وحسب عثمان أن في ميسوره ان يدفع الكارثة كرّة اخرى ، فاستبدل بسعيد رجلاً آخر يرضى عنه الكوفيون .

وفي مصر لم يتورّع عثمان عن خلع عمرو بن العـــاص ، فاتح البلاد، وتعيين نسيبه [عبدالله بن سعد] ابن أبي سرح ، حاكماً مكانه على الرغم من أن النبي أهدَر مرة دمَ هذا الاخير . واشتدت النقمة على عثمان في مصر ، وانضمّ الى عمرو في إذكائها محمد بن أبي حُذيفة ، وهو ابن أبي بكر الصديق بالتبني ومن أشياع علي المتحمسين . وفيما كانت احدى المعـــارك البحرية الكبرى * تدور ، على الشاطيء الليقيائي بين الاسطول المصري وبين البيزنطيين في عهد الامبراطور

* هي معركة ذات الصواري . [المعربان]

قسطنطين الثـــاني ، انسحب الناقمون من المعركة على ظهر احدى السفن زاعمين ان الجهاد الحق قد انتهى الى أن يهمل ويطرح . فلما كانت السنة التالية سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مصر الى المدينة ليشنوا هناك الحرب التي يريدها الله ضد العدو الداخلي . وفي نيسان سنة ٦٥٦ بلغ هؤلاء ابواب المدينـة ، فاذا معظم أهلها يقفون الى جانبهم . وكان عثمان ، وهو في ذلك الحين سيد أقوى امبراطورية على وجه الارض ، لا يملك في مقره سلاحاً مهما يكن يدفع به الناقمين . ومن هنا تعين عليه ان يبـــاشر المفاوضات مع خمسمائة ثائر ، فوفق الى اقناعهم بالانسحاب واعداً إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم . ولكن الامويـــين لم يلبثوا أن أطلعوا رؤوسهم ثانية ، وحملوا الخليفة على أن يؤكد ، في خطبة الجمعة التالية ، أن المصريين إنما رجعوا الى بلادهم لأنهم وجدوا أنفسهم على ضلال . فاستاء أهل المدينة لذلك أشد الاستياء حتى لقد عيّروا عثمان ورجموه بالحجارة . فسقط مَغشيّاً عليه وحمـــله القوم إلى خارج المسجد ، الذي لم تطأه قدماه بَعدَ ذلك مُطلقاً .

وتجمهر المدَنيون حول منزله ورفضوا أن يتزحزحوا من أماكنهم . ورجع للمصريون أيضاً ، مدّعين أنه قـــد وقعت في أيديهم رسالة من عثمان إلى عامله ابن ابي سرح يأمره فيهـا بالفتك بالزعماء عقب عودتهم ، على الرغم من ان الخليفة أنكر ان تكون له معرفة بالرسالة التي وُضعت نصبَ عينيه . عندئذ طلب اليه الثائرون ان يستقيل ما دام من الممكن ان يجري شيء كهذا من غير علمه . ولكن عثمان رفض ، في أنفة وكبر ، ان يحقق هذا الاقتراح الجريء

الذي تقدم به الثائرون ، فحاصروه في منزله ، حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من انسبائه وبعض العبيد والموالي . اما المحرضون الفعليون على الثورة ، علي وطلحة والزبير ، فآثروا أن يتباعدوا إنقاذاً للمظاهر . وأما عائشة ، الداهية ، فتركت المدينة تحت ستار الحج الى مكة ، لكي لا تشهد الوقائع في ما بعد .

وانتهى النضال الى ذروته عندما رشق أحد المدافعين عن عثمان رجلاً من المصريين بحجر فقتله . وطالب الثائرون بتسليم القاتل فلم يجابوا إلى طلبهم ، فانقضّوا على المنزل من الاراضي المجاورة ، وقتلوا الخليفة الذي كان يصلي في هدوء ، من غير ان يشترك في المعركة ، وانتهبوا ما في بيته . وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ حزيران سنة ٦٥٦ فسال دم الخليفة على نسخة القرآن التي كان يقرأ فيها . وإنما خُبِّئت هذه النسخة ، كأثرٍ مقدس ، ولكن عدداً من خزائن الكتب لم تلبث ان تنازعت في ما بعد شرف امتلاكها فزعمت ان نسختها هي الاصلية . ودفنت امرأة عثمان — نائلة الكلبية ، التي اصيبت ايضاً بجراح — جثةَ الخليفة الصريع في سكينة الليل ، يساعدها بعض الاصدقاء وأرسلتْ بعضُ أصابع نائلة المقطوعة إلى ابن عمّ عثمان ، معاوية أمير سورية ، فكان يلوّح بها من على المنبر ليستثير حماسة الناس للأخذ بثأر الخليفة . وكان معاوية قد وجّه الى المدينة قوّات لنصرة عثمان ، فلم تكد تعلم بمصرعه حتى رجعت وهي في منتصف الطريق .

علي في العراق

وكان علي — وهو صهر الرسول والرجل الذي أمسى الآن

الشخصية الاولى في الاسلام، بلا خلاف – قد أمّ الناسَ في الصلاة، حتى في أثناء الحصار، وعيّن أميراً على الحجاج الى مكة، ايضاً. وفي نفس اليوم الذي صُرع فيه عثمان، بايعَ الناس عليّاً بالخلافة في مسجد [المدينة]. ولكن طلحة والزبير، اللذين كانا حتى تلك اللحظة يعملان في ما يظهر لمصلحة علي، تخلّفا عن مبايعته، وحمّلاه تبعة مقتل عثمان، ثم أنهما لحقا عائشة، الى مكة. وكانت ام المؤمنين لا تزال تُضمر لعلي عداءها القديم، فما كادت تعلم أنه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين إلى الاثئار للرجل القتيل. فاستجاب لدعوتها الامويون وأناس آخرون شَرَكوها في كره عليّ ليس غير. ونزولاً عند رأي ابن عامر، عزموا على التقدم الى البصرة حيث كانت له منذ زمن طويل، وما تزال، صِلات واسعة جداً. حتى اذا انقضت اربعة أشهر على مقتل عثمان خرج المتآمرون، بعد أن تجمعوا في معسكر على الطريق العامة المؤدية الى العراق.

ولم يكادوا يبلغون البصرة حتى فتكوا غدراً بأميرها الذي آثر ان ينتظر الأمر من عليّ على أن ينضم اليهم. حتى إذا وفقوا إلى الاستيلاء على المدينة [البصرة] نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمامة الناس في الصلاة، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف موقتاً بأن سمّت لهذه المهمة ابن اختها عبدالله بن الزبير.

ولم يكن لعليّ جيشٌ في المدينة [يثرب]، ومن هنا تعين عليه أن يغادرها ايضاً. ففي تشرين الاول سنة ٦٥٦ سار الى العراق يصحبه مائة رجل تقريباً، رجاءَ أن يجد أشياعاً ينصرونه في الكوفة، وهي المستعمرة العسكرية الثانية في العراق، التي كان

أهلوها يتحسسون بشيء من الحسد للبصرة منذ اللحظة الاولى . وكان قبيل سيره اليها قد بعث بابنه الحسن ليعمل على اكتساب المحاربين الكوفيين الى صفّه ، فوفق الحسن الى ما نُدب له . وفيما كان عليّ لا يزال في معسكره بذي قار اجتمع حوله اثنا عشر الف كوفي ، فسار بهم من هناك على البصرة . وبعد اخفاق السفارة مع طلحة والزبير نشبت المعركة . فأما الاول فجرح جرحاً أودى بحياته ، واما الثاني فقد أخرج من الميدان يتبكيت الضمير والندامة ، وقتل فيما هو يفرّ . وتوقفت المعركة أمام الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة وتستفز من على ظهره المقاتلين حسب العادة العربية العريقة . ولم تتم الغلبة لعلي الا بعد ان عقر الجمل ، الذي خلع اسمه على هذه المعركة ، في ٤ كانون الاول سنة ٦٥٦ . وعرضت عائشة على المنتصر تأييدها ، ولكنه رفضه . ثم إنها توفيت في ١٣ تموز سنة ٦٧٨ وهي في السادسة والستين من عمرها . واعترف لعلي بالخلافة في جميع أنحاء العراق ، فظل فيه وجعل الكوفة مقرّه .

الحياة الجديدة في المدينة

وهكذا انتقل دور الزعامة من بلاد العرب ، ومن المدينة بشكل خاص ، الى الأمصار حيث كانت القوة المادية قد تركزت منذ زمن طويل . والواقع ان أصحاب الرسول الذين ظلوا في المدينة فقدوا نفوذهم السياسي كله ، فاقتنعوا بالانكباب على دراسة الحديث . وأخذوا يتناقشون في حماسة بالغة في السنّة النبوية التي كان من المفروض ان يكيّف كل من الفرد والجماعة حياته على وَفقها ، والتي جُعلت قدوة وقياساً . ولكن العبادات الدينية

نفسها ، على ما نرى في عدد من الصلوات اليومية ، لم تستطع أن تنجو من تأثير البيئة الجديدة . أما النظريات التي قال بها رجال المدينة في ما يتصل بصفة الخلافة فلم تتحقق تحققاً كاملاً في يوم من الأيام .

واما في الشؤون المدنية فقد حاول المسلمون في كل مسألة فردية ان يكيفوا العرف الشائع حتى يستوي مع مبادىء الاسلام . ولا يبعد أن يكون ذلك العرف الشائع قد تأثر بالقوانين الرومانية في المستعمرات . وكان جواز هذا الامر او عدم جوازه يُقرّ على أساس اخلاقي اكثر مما يقرّ على أساس قانوني . واحتفظت السنة بطابعها الشفهيّ زمناً طويلاً ، وكان كلّ ما يُدوّن منها يظل في أيدي بعض الافراد . وانقضى قرنٌ كامل قبل أن يدوّن الحديث والسنّة . والواقع ان المدينة التي بسطت سلطانها فترة من الزمان على الشرق الأدنى انتهت إلى ان تكون الآن مركز العلم الذي ينهل من موارده الانقياء ، في حين أن الأرستوقراطية التي كانت تهتم بالدنيا باكثر من اهتمامها بامور الآخرة والتي أقصاها اهل الأمصار عن تعهّد شؤون الدولة ، انغمست في مباهج الحياة العابثة ومتارفها . ففي مكة بنى احد المواطنين الاثرياء اول قاعة للعب والقراءة ، فكان الضيوف يجدون فيها الشطرنج وغيره من العاب الرّقَع ، كما يجدون الكتب سواء بسواء . وفي المدينة غذا الشاعر الأحوص الشعرَ الغزليّ ، وكيّف يونس الفارسي الموسيقى فادخل عليها ألحاناً جديدة لتعزيز حياة الترف . ولكن ملاهي المدنيين لم تكن بريئة الى هذا الحدّ دائماً . فما هي إلا فترة حتى اكتسبت

مدينة الرسول شهرة واسعة في حسن استقبالها لأفضل المغنيات ، واسهلهنّ قياداً .

معركة صفين

وورث معاوية بن ابي سفيان، رأس البيت الاموي واميرسورية، مهمة المطالبة بدم عثمان. بيد أنه كان عليه، قبل ان يحقق هذه المهمة ، ان يُبعِد عن بلاد الشام الخطر البيزنطي الذي لا يزال يتهددها . وفي سبيل ذلك كان في حاجة إلى الاستيلاء على مصر قبل كل شيء . ولقد وُفق الى ان يأسر الامير الذي وجّهه عليّ اليها ، ولكنْ كان عليه قبل أن يتغلب على مصر نفسها أن يصفي الحساب مع عليّ الذي كان من همه ، بوصفه خليفة ، أن تُقِر له بالامر اجزاء الامبراطورية كلها . وفي ربيع سنة ٦٥٧ سار عليّ بجيوشه في اتجاه الشمال الغربي، وخرج معاوية لملاقاته على الحدود السورية في صِفّين، الواقعة على الضفة اليمنى من الفرات ، بين الرقة وبالس ، فوق رقعة ضيقة من المستنقعات ، تزدحم بالاشجار ولا تخترقها غير طريق واحدة معبّدة .

وانقضى شهر على الاقل في مفاوضات عقيمة ، بعد إذ رفض عليّ ان ينزل عند رغبة معاوية في تسليم قتلة عثمان . وفي شهر نوّار اشتبكت قوات الفريقين، فنجح عليٌ في أن يشق طريقه إلى النهر. وفي ١٩ حزيران أهلّ المحرّم ، أحد الاشهر الحُرُم ، فاتفق الفريقان على عقد هدنة موقتة . ولكن المفاوضات لم تكن ناجحة في هذا الشهر أيضاً . فلما انقضى الشهر الحرام استؤنفت المعركة من جديد . وكانت ، إلى حين ، سجالاً بين الفريقين . وكانت الحماسة

عندهما فاترة ، لأن الجيشين كانا يتألفان ، الى حد بعيد ، من أفراد القبائل نفسها . وعلى الرغم من أن السوريين كانوا أحسن تدريباً من العراقيين غير المنظمين، فقد نجح العراقيون ، بقيادة مالك الاشتر، أحد أشياع عليّ المتحمسين ، في الضغط على خصومهم واحراجهم الى درجة حملت معاوية على التفكير في الفرار. وفي هذه الاثناء كان حفظة القرآن الاتقياء يبذلون اقصى الجهد، لدى الفريقين، بسبيل السلام . وتذهب الروايات الى انه في هذه اللحظة الحرجة اشار الداهية عمرو بن العاص، فاتح مصر واميرها السابق، على معاوية بان يبعث بقوات جديدة، رافعة المصاحف على رؤوس الرماح دلالة على انها تحكّم كلمة الله، لا كلمة السيف، في أيّ الرجلين يجب أن يلي أمر المسلمين. ومع ان هذه الحادثة قد تكون وهميّة، فالذي لا شك فيه ان اهل العراق قد اجبروا عليّاً، الذي اعتبر ان النصر قد كُتب له ، على ان يُوقف المعركة ويبدأ المفاوضات مع معاوية كرّةً اخرى . ثم إن الفريقين اتفقا على اختيار حَكَمَين هما عمرو بن العاص بالنيابة عن معاوية ، وأبو موسى الاشعري بالنيابة عن عليّ ، ليحكما بين المتخاصمين على اساس القرآن . وكان من المفروض ان يجتمعا في شهر رمضان ، وفي مكان يقع بين سورية والعراق .

واجتمع الرجلان في أذرُح ، بين معان وسلع في بلاد أدوم القديمة [وهي الشراة عند العرب] . وكان يصحب كلاً من الحكمين حاشية تتألف من اربعمائة رجل ، كما شهد المفاوضات عددٌ من اصحاب الرسول البارزين . واذ لم يوضع للاجتماع ، قبل انعقاده ،

هدف معيّن ، فقد اختلف الفريقان ، وكانت اتجاهاتهما على طرفي نقيض . فقد كان العراقيون يتوقعون ان يحصلوا على الاعتراف الرسمي بخلافة علي ، في حين كان معاوية يطالب ببحث ما اذا كانت تبعة علي في مقتل عثمان تجعله غير اهل للحكم . ولكن مندوبه اعتبر كلاً من علي ومعاوية مدّعياً للخلافة ، واستطاع بعدد من الايحاءات الموفقة أن يقنع خصمه بخلع الرجلين معاً . ولم يكن في وسع علي ان ينزل عند هذا الحكم ، ورأى نفسه مضطراً الى ان يحنث بيمينه . وإذ قد وضع عليّ نفسه ، بهذا الصنيع ، على طرف الخطأ ، فقد أطلق جنود معاوية أنفسهم لقب الخليفة على ابن أبي سفيان ، منذ ذلك الحين .

الخوارج

ولم يلبث مركز عليّ في العراق ان تضعضع الى حدّ بعيد . والواقع انه كان لا يزال في طريق العودة من صفين عندما لامه جماعة من جيشه ، معظمهم من بني تميم ، لوماً عنيفاً على ما أبداه من استعداد للنزول عند قرار هيئة محكّمة من البشر . وكان من رأيهم أن الحكم لله وحده ، فانشقوا عن علي وانسحبوا الى قرية حَروراء ، غير بعيد من الكوفة ، وانتخبوا أحدهم ، عبدالله الراسبي ، خليفة عليهم . حتى إذا ذاع قرار هيئة التحكيم في الكوفة غادر عدد كبير من اشياع علي البلد كمهاجرين او خوارج [٢٥] ، وانضموا

(٢٥) أطلق هذا الاسم في ما بعد على جماعات اخرى ثارت في وجه الحكومة القائمة ، وعلى فرق مختلفة ليس يجمع بينها غير وجهة النظر المتطرفة في الخلافة (القائلة بان الخليفة هو الذي تنتخبه الجماعة ولو كان عبداً اسود) . ولا تزال

الى أتباع الراسبي في حروراء . وكان زعيمهم قد أقام معسكراً على طريق فارس ، غير بعيد من المكان الذي أنشئت عليه بغداد فيما بعد ، على جانب قناة النهروان عند مصبها في دجلة. وهنا هاجم علي الثائرين في ١٧ تموز سنة ٦٥٨ ، وهزمهم هزيمة شنعاء لم يكن في ميسورها ، على كل حال ، أن تستأصل شأفة الفرقة .

مصرع علي

وفي الوقت نفسه ، كان معاوية قد أخذ الأهبة لفتح مصر من جديد ، بعد أن صرفه هجوم عليّ عن تحقيق هذا المشروع فترة ما. ولقد حاول امير مصر الجديد أن يصدّ جيوش معاوية ، فما كانت تتقدم الى وادي النيل ، ولكنه أخفق في محاولته ، في تموز سنة ٦٥٨ . ثم إن معاوية وكلَ استكمال الفتح الى عمرو بن العاص ، وكفى نفسه مؤونة هجوم بيزنطي بأن عقد في السنة نفسها هدنة مع الامبراطور قسطنطين الثاني مقابل جزية سنوية يؤديها اليه . وفي آخر نوار سنة ٦٦٠ بويع معاوية بالخلافة رسمياً ، في مدينة القدس . واذ تابعت جيوشه مهاجمة العراق بدون انقطاع فقد اضطر عليٌ إلى ان يستعدّ لحملة يوجهها الى سورية . ولكنه قتل في مسجد الكوفة ، ٢٤ كانون الثاني سنة ٦٦١ ، قبل أن يبدأ المعركة ضد أهل الشام. وإنما كان قتله انتقاماً لأهل النهروان ، وقد أغرت به امرأة اسمها قطام حبيبها ابنَ مُلجَم ، جاعلةً دم عليّ مهراً لها .

بقاياهم تعيش اليوم في عمان ، وفي طرابلس الغرب . انظر :

J. Wellhausen, *Die religiös - politischen Oppositionsparteien im alten Islam, Abhandlungen d. Ges. d. Wiss. zu Gött - ingen*, N. F. , V 2, Berlin, 1901.

الامويّون

كان معاوية [٢٦] قد اتخذ طريقه الى العراق ، مجتازاً الجزيرة ، قبل مقتل عليّ . وخلف علياً اول الامر ، ابنه الحسن . ولم يكن الحسن هذا رجل الساعة فلم يرتض ان يقود جنوده في هجوم على خصمه . والواقع أنه آثر مفاوضة معاوية وتنازل عن حقه في الخلافة على أن تترك له خمسة ملايين درهم كانت في بيت المال بالكوفة . وكان عبدالله بن عباس ، جد السلالة العباسية التي ارتقت بعدُ عرش الخلافة ، قد استولى قبل ذلك على ما في بيت مال البصرة وانضم إلى صفوف معاوية .

معاوية وعماله في العراق

وعهد معاوية لولاته على الكوفة والبصرة بمهمة عسيرة ، تقتضيهم تثبيت سلطته بين العراقيين الرافعين ابداً راية الثورة والعصيان . وإنما ولّى على الكوفة المغيرةَ بن شعبة ، وهو رجـــلٌ انتهازيّ لا ذمة له ولا ذمام اضطرّ في شبابه إلى ان يغادر مسقط رأسه ،

(٢٦) راجع لامنس Lammens, *Etude sur le règne du calife Omaïjade Moawiya I , Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth* , 1906 .

الطائف ، بسبب من جريمة قتل ، حتى اذا كانت سنة ٦٢٩ وفد على محمد في المدينة . ثم إنه حطّم صنم إلاهة البلدة ، بامر من الرسول ، واظهر من التقوى ما جعله في جملة الارستوقراطية الاسلامية الجديدة . ولقد ادّى اثناء الحروب ضد الامبراطورية الساسانية خدمات ديبلوماسية عديدة من طريق معرفته باللسان الفارسي . من اجل ذلك كافأه عمر بالأمارة على البحرين ليعهدَ اليه بعد ذلك بعمل اعظم خطراً ، اعني الامارة على البصرة . وفي سنة ٦٣٨ عُزل من منصبه بسبب من سوء السيرة الاخلاقية ، ولكنه لم يلبث أن لمَعَ من جديد بفضل الحرب الأهلية التي أظهر فيها حكمة وكياسة . فلما وُلي امر الكوفة جعل من همّه ان يُفسد ، بدهاء بارع ، بين الخوارج واتباع عليّ ، الشيعة ، وبذلك استطاع ان يَشغلَ الكوفيين عن معارضة الامويين معارضة فعّالة ، على الرغم من انهم لم يكونوا يكتمون كراهيتهم لأهل الشام .

وكان امير البصرة من ابناء الطائف ايضاً ، ولكن من اصل يحفّ به الغموض . والواقع ان الناس لم تعرف إلا اسم امه سُميّة ، وكانت سبيّة ، ولذلك دُعي زياد ابن ابيه . وبدأ زياد [٢٧] حياته كاتباً في جيش البصرة . ثم إن علياً ارسله الى بلاد فارس فوفق فيها الى اكتساب ولاء الفرس بفضل سياسته

(٢٧) انظر لامنس H.Lammens, *Ziyad ibn Abihi, viceroi de L'Iraq, lieutenant de Moawiya, Rivista degli studi orientali IV*, 1—45, 199—236, 632—693; *Etudes sur le siècle des Omayyades*, Beyrouth, 1930, 27—162 .

الحكيمة ، ومن غير ما لجوء الى العنف، وبذلك احتفظ بها مستقلة عن معاوية حتى سنة ٦٦٢، عندما شرع مواطنه ، المغيرة ، يفاوض معاوية في أمره . فما كان من معاوية الا أن استقـــدمه الى دمشق واعترف به ابناً غير شرعي لأبيه ، أبي سفيان . ومن ذلك الحين تفانى زياد في خدمة البيت الاموي ، فولاّه معاوية البصرة، فدشن حكمه فيها بخطبة مرتجلة، طارت لها شهرة واسعة في الادب العربي. ولقد نص فيها على أنه سينزل أقسى العقوبة في حق كل من تحدثه نفسه بالخروج على السلطان، من الكوفيين . والواقع أن شدّته الحديدية استطاعت أن توقع في نفوس الناس هيبة الدولة ،وكانت من قبل مفقودة بحكم المنازعات الناشبة بين القبائل . فما هي الا فترة وجيزة حتى سادَ البلادَ ، وساد قلبَ البادية نفسهـــا ، أمنٌ لم تعهده من قبل . حتى اذا توفي المغيرة ، سنة ٦٧٠ ، صار زياد أميراً على البصرة والكوفة جميعاً .

وكان من تقاعس سلفه وضعفه ان أقدم اتباع عليّ على ثورة مسلحة جاءت فرصة سانحة لزياد لتصفية الحساب مع العلويين مرةً والى الأبد . وبعد ان أخمد زياد هذه الثورة دونما جهد كبير، حلّ منظمات المقاتلين القَبَلية السابقة وأعاد تنظيمهم في جماعات اربع على رأس كل منها رجل من الموالين للبيت الأموي . ثم انه أنزل الكوفيين – وكانوا أعظم الثوار تشيّعاً – وأسَرَهم، وعدداً كبيراً من البدو يبلغ الخمسين الفاً، في خراسان، المقاطعة الفارسية الشرقية. ومن البصرة استقلّ زيادٌ، أو كاد، بحكم نصف الامبراطورية الشرقي برمته، هذا النصف الذي تمّ فتحه من البصرة، في حين تركّز اهتمام

معاوية في الغرب . وفي الحق انه كان عند ثقة معاوية الكبرى به .

سورية في ظل معاوية

وبخلافة معاوية اصبحت سورية قاعـــدة الدولة . وإذا كانت الكثرة المطلقة من السكان العرب في العراق لم تخرج من الصحراء إلى مواطنها الجديدة إلا نتيجة لحروب الفتح ، فقـــد كان معظم السوريين العرب يعيشون في بلاد الشام منذ قرون متطاولة . وإذ قد احتكّ هؤلاء السوريون دهراً صالحـــاً بالكنيسة المسيحية وبالامبراطورية الرومانية فقد تعوّدوا الخضوع للنظام الذي يقتضيه قيام الدولة . ولقد اعتبروا معاوية ، الذي جعـل مقرّ حكمه في دمشق ، الوارث الشرعي لامرائهم القدماء من آل جفنة . وكانت امرأته سيّدة ارستوقراطية كيّسة من قبيلة كلب اليمانيـة ، وهي اقوى القبائل في سورية . وبذلك ضمن معـاوية لابنه يزيد ، ولىّ العهد ، تأييد ذوي قرباه . ليس هذا فحسب ، بل لقـــد استطاع معاوية ، بعطاياه ومواهبه السخية ، ان يكتسب خصومه السابقين من الهاشميين . اما انسباؤه الأمويون فعامَلَهم في حَذَرٍ متبصّر حكيم ، خشيةَ ان يصبحوا خطراً عليه او على ابنه . وكان ابداً قادراً على ان يُفيد مما كان لشعراء عصره من تأثير عظيم في الرأي العام ، بسبيل مصالحه العائلية . وكان العرب على وفاق مع السكان المسيحيين الآراميي الاصل ، الذين عرفوهم منذ الزمان الاقدم . ذلك بأن العرب لم يعيشوا هنا ، كما عاشوا في العراق ، في معسكرات مُنْشأة حديثاً ، ولكنهم استوطنوا المدن الكبرى ، واختلطوا بالمسيحيين اختلاطاً بعيداً حتى لقـد كانوا يؤدون وإياهم فرائضهم

الدينية ، في مواطن كثيرة ، تحت سقف واحد . وفي بلاط معاوية لعبَ سرجون بن منصور ، النصراني ، دور المستشار المالي المتنفّذ. وحفظ النصارى لمعاوية وآلِه هذا التسامح فأخلصوا لهم واعظموهم إعظاماً لاتزال نقع عليه في الروايات النصرانية ، وحتى في كتب التاريخ الاسبانية . والواقع ان معاوية لم يحكم العرب كطاغية شرقيّ ، بل كسيّد من سادة القبائل القدماء . وكان من عادته ان يجتمع بُعيد صلاة الجمعة في المسجد الى رؤوس القوم واشرافهم فيباحثهم من على المنبر ، الذي كان بالنسبة إليـــه منصة للحكم أكثر منه سُدّةً للوعظ ، في مختلف الشؤون السياسية . وكان يعقد امثال هـذه المجالس في قصره ، باطراد . وكثيراً ما كان يستقبل وفود الامصار ايضاً ، فيسمع لشكاواهم ويوفق بين القبائل المتخالفة . والحق أن أمثال هـذه الأعمال كانت تتكشّف أبداً عن السّمة الرئيسية في شخصيته ، أعني الرصانة الرفيقة والحلم اللذين كانا يُعتبران شيمة السيد الاولى ، بسبب من ندرتهما عند العرب. وأقام معاوية الدولة الاسلامية ، من جديد ، على الاسس التي وضعها عمر والتي تقوّضت أثناء الحرب الاهلية ، وذلك بأن رجـع ، كسلَفه العظيم ، إلى النظام الاداري الهيليني الروماني الذي ثبتَ صلاحه على مرّ الأجيال. وفي ما يتصل بالشؤون المالية أعاد معاوية النظر في الضرائب التي كانت الامصار لا تدفعها ، إلى الخزانة المركزية ، حتى ذلك الحين ، إلا على كره وبعد تردّد ، ونظّم جبايتها في اطراد ، في حين أعفى أهل الامصار من جزء من الاعطيـــة العظيمة التي كان الحكام السابقون قد سمحوا بها لاتباعهم . ليس هذا فقط ، بل لقد عُني

معاوية بشؤون الحجاز ، الذي أصابه إهمالٌ كثير منذ ان نشبت الحرب الاهلية ، فعزّز الزراعة بمشروعات واسعة لتحسين طرائق الحراثـــة .

الصراع ضد البيزنطيين

وكان معاوية يعتبر دائماً أن الحرب ضد البيزنطيين من اهم واجباته واخطرها شأناً [٢٨]. وانما بدأ نضاله ضد البيزنطيين منذ كان اميراً ، على عهد عمر ، عندما وجد ان المدن الفينيقية الساحلية كانت لا تزال في ايدي البيزنطيين . والواقـــع انه لم يفز في انتزاعها منهم نهائياً الا بمحاولة ثانية قام بها في خلافة عثمان . فقـد كان عليه لكي يضمن النجاح في ما ندبَ نفسه له ان ينازل خصومه في البحر ايضاً ، وكان عمر يعارض في الأقدام على هذه المغامرة . ومن هنا لم يوفّق معاوية الى الخروج بالعرب الى هـــذا الميدان الذي لم يعرفوه من قبل ، والذي ما لبثوا ان الفوه ، الا بعـد ان وَلِيَ عثمان امر الناس . وفي صيف سنة ٦٤٩ هاجم معاوية قبرس ، وما هي الا ست سنوات فحسب حتى كان يجهّز اسطولاً بحريـاً للهجوم على القسطنطينية نفسها . وُهرع الامبراطور قسطنطين الثاني ، حفيد هرقل ، الى ملاقاته على الساحل الليقيائي ، ولكن الاسطول العربي هزمه هزيمة ماحقة . وبالرغم من هـذا النصر ، فقد ظل العرب عاجزين عن بلوغ هدفهم ، لأن معاوية الذي كان ، في الوقت نفسه ، يتقدم بجيوشه براً ، لم يستطع ان يعدو ، في تقدمه

(٢٨) راجع ولهاوزن J. Wellhausen, *Die Kampfe der Araber mit den Rhomaern in der Zeit der Umaijaden, Nachr. d. Ges. d. Wiss.*, Gottingen, 1901, p. 91 ff.

قيسارية في كبدُوكية ،وكان على معاوية ، عندئذ ، ان يساوم على الصلح مع بيزنطة لينصرف الى قتال عليّ ، حتى اذا وحّد الامبراطورية من جديد استأنف النضال ضد البيزنطيين من طريق الغزوات الصيفية التي كان يشنها على آسية الصغرى ، كل عام . والواقع ان جيوشه بلغت ابواب العاصمة البيزنطية مرتين ، ولكن الامبراطورية البيزنطية استطاعت ، بفضل تفوقها في الحضارة [آنئذ] ، ان تردّ تلك الهجمات * . في سنة ٦٦٧ دعا أحد الثائرين في ارمينية العرب الى دخولها ، ولكنهم ما كادوا يبلغون مَلَطْيَةَ ،حتى كان الامبراطور قد اخمد نار الثورة . ومع ذلك فقد تابعوا تقدمهم حتى خلكيدون . عندئذ ألحق معاوية ابنه يزيد ، الذي كان يعيش حتى ذلك الحين حياة لهو وعبث ، بالقوات المقاتلة . وبعد أن ثبت العرب في خلكيدون ، طوال الشتاء ، اندفعوا حتى بيزنطة نفسها في الربيع ، ولكنهم اضطروا إلى ان يرفعوا عنها الحصار حالما بدأ الصيف ليعودوا أدراجهم الى الشام . وفي سنة ٦٧٤ قام معاوية بمحاولة جبارة اخرى بسبيل النفاذ الى قلب الدولة النصرانية . فوجه لذلك اسطولاً عظيماً لم يلبث ان نجح في الاستيلاء على « جزيرة أرواد » ، على الضفة الجنوبية من بحر مرمرا . ومن هناك طفق يزعج العاصمة البيزنطية طوال سبع سنوات ، ولكن شيئاً لم يكن لينال من حصونها القوية ومن نارها الاغريقية . واخيراً يئس معاوية من هذا النضال العقيم ، وعقد الصلح مع بيزنطة .

* ويشبهها المؤلف بهجمات البرابرة في اوروبا . [المعربان]

وأحرز العرب انتصارات دائمة على المسيحيين في ميدان القتال الآخر ، في إفريقية[٢٩] . فما كادت تنقضي سنة ٦٤٧ حتى كان ابن أبي سرح ، أمير مصر من قِبل عثمان ، قد أتمّ فتح طرابلس الغرب . ولكنه اكتفى آنذاك بفرض الجزية على أهلها . وفي سنة ٦٦٧ استأنف امير [مصر] من قبل معاوية ، ابن حُديج ، الحرب ضدّ النصارى في الغرب ، فأوغلَ في غزوته الاولى حتى لشارفَ صقلية . ولكن المؤسس الحقيقي للحكم العربي في افريقية الشمالية هو عقبة بن نافع ، ابن خالة عمرو فاتح مصر . وكان عقبة قد فتح برقة بعد أن سار عليها بجيوشه من مصر . وفي سنة ٦٧٠ وُفّق ، بمعاونة البربر ، الى القضاء على الحكم النصراني في شمالي افريقية جملةً واحدة . ثم عُزل بعد أن أنشأ مستعمرة عسكرية في القيروان . ولكن خليفة معاوية [يزيد] أعاده الى عمله سنة ٦٨٢ ، فسار في حمـــلة جديدة نحو الغرب . وظل يتقدّم حتى بلغ المحيط ، على ما يظهر . وعلى الرغم من أنه اجتاز بجيوشه مناطق القبائل البربرية حتى الاطلس الاوسط ، فان البربر لم يخضعوا له خضوعاً كاملاً . فقـــد فرّ زعيمهم كُسَيلة

---

(٢٩) راجع كوديل : M. Caudel, *Les premières invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, Journal asiatique*, 1900, série IX t.13 , 14.

وراجع ايضاً توري : Ch. Torrey, *The Muhammedan Conquest of Egypt and North Africa*, publications in Semitic philology of the University of Yale, 1901, 279 — 300.

وراجع ايضاً بكر : C.H. Becker, «The Expansion of the Saracens » in *Cambridge Medieval History*, 11, 329 — 390 (1912).

(الذي كان عقبة قد أسره) لينظم بالاتفاق مع الحاميات البيزنطية الباقية في البلاد ، المقاومة ضدّ العرب . بعد ذلك قسم عقبة جيشه في غير ما حذر ، واندفع في الطريق الى جبال أوراس على رأس فرقة صغيرة . وفي سنة ٦٨٣ أوقع به البربر ، عند تهوذا على طرف الصحراء الكبرى ، فقتل وقُتل المسلمون جميعهم . والواقع أن المسجد الذي يضمّ رفاته في المنطقة التي تحمل اسمه ، سيدي عقبة ، جنوبي بِسْكَرَة هو أقدم أثر من فن العمارة الاسلامية في إفريقية ، ويعود الى وقت كانت فيه العمارة لا تزال بسيطة بدائية .

يزيد الاول — كربلاء

وتوفي معاوية في ١٨ نيسان سنة ٦٨٠ ، فخلفه ابنه يزيد ٣٠ ، وكان معاوية قد اخذ البيعة له في حياته . وكان زعماء الارستوقراطية الاسلامية — الحسين ثاني ابناء عليّ ، وعبدالله ابن عمر ، وعبدالله بن الزبير — قد تخلّفوا عن البيعة ، فلما عُرضت عليهم ثانية ، بعد وفاة معاوية ، لم يبايع الا ابن عمر ، في حين قصد الحسين وابن الزبير الى مكة تخلصاً من امير المدينة المكلّف من قبل يزيد باخذ البيعة منهما . والحّ اهل الكوفة على الحسين في القدوم اليهم ومبايعته بالأمر . فاستجاب الحسين لهذا الأغراء ولكنه لم يجد في العراق التأييد الذي توقّعه . وكان قد بعث بابن عمه مسلم ابن عَقيل ليمهّد له سبيل العمل هناك ، قبل مغادرته مكة ، فأسره عامل يزيد ، عُبيد الله بن زياد ، وقتله . وفيما كان الحسين في

(٣٠) انظر لامنس H. Lammens , *Le califat de Jésid I*, *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth*, IV, 233—312 .

طريقه الى الكوفة اعترضته طلائع جيش عبيد الله . واذ قد أبى أن يعود من حيث أتى رافقوه حتى كربلاء ، غربي الفرات ، على نحو اثنين وستين ميلاً الى الجنوب الغربي من بغداد عند طرف الصحراء . ثم انهم حاصروه هناك رجاءَ ان يُكرهه الظمأ على الاستسلام . وفي العاشر من المحرم من سنة ٦١ هـ. الموافق للعاشر من تشرين الاول سنة ٦٨٠ م أنذره قائد جيش يزيد، عمر بن سعد ابن أبي وقاص، صاحبِ رسول الله والقائد العسكري البارز [بسوء العاقبة] . ومع انه لم يكن في استطاعة الحسين ان يتوقع تأييداً أكثر من اتباعه الكوفيين الذين افزعهم مقتل مُسلم ، فقد أبى ان يستسلم لعمر بن سعد، مبالغاً في اتكاله على الحصانة التي كان يتمتع بها بوصفه حفيد الرسول . وهكذا دارت رحى المعركة، وما لبث الحسين ان سقط في الميدان . ثم انهم حملوا رأسه الى يزيد فحزن حزناً عميقاً لهذه النتيجة التي لم يكن يتوقعها ، وأمر بارجاع العلويين الذين نجوا من المذبحة الى المدينة وباكرامهم . والحق ان ميتة الشهداء التي ماتها الحسين ، والتي لم يكن لها أي أثر سياسي ، قد عجّلت في التطور الديني للشيعة ، حزب عليّ ، الذي اصبح فيما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب [الشعوبية] . واليوم لا يزال ضريح الحسين في كربلاء أقدَس محجّة عند الشيعة ، وبخاصة الفرس ، الذين ما فتئوا يعتبرون الثّواء الاخير في جواره غاية ما يطمعون فيه .

ابن الزبير في مكة

اما عبدالله بن الزبير ، الذي تحدّى الخليفة في حَرَم مكة

المقدّس ، فكان أشدّ خطراً على ملك بني أمية . فمن هناك استثار ابنُ الزبير المدَنيين ، الذين كانوا على أتمّ الاستعداد للتنكّر للدولة التي سلبت مدينتهم زَهْوَها القديم . وحاول يزيد ان يخطب ودّهم ، مرة ثانية ، سنة ٦٨٣ ، ولكن على غير طائل . وما هي إلا فترة حتى هُوجم الأمويون المقيمون في المدينة ، ويبلغ عددهم نحواً من الف رجل ، واضطروا إلى ان يحتموا في كنف زعيمهم ، مروان بن الحكم بن العاص الذي كان اميراً على الحجاز فترةً من الزمان ، في عهد معاوية . وارسل الخليفة جيشاً مؤلفاً من اثني عشر الف سوريّ لنجدتهم ، بقيادة مسلم بن عقبة ، الذي اظهر كفاءةً وعزماً يوم كان يعمل تحت إمرة والده . واستسلم الامويون المحاصرون في المدينة ، على ان تكون لهم حرية الانسحاب منها . ثم انضموا إلى قوات مسلم على الطريق إلى سورية . وفي آب ٦٨٣ عَسْكرَ مسلم في الحرّة ، وهي الارض الصخرية البركانية الواقعة شماليّ المدينة . وأجّلَ مسلمٌ أهلَ المدينة ، ولكنهم لم يبالوا والتحموا مع جند الخليفة في معركة انتهت بالقضاء على زهرة الاشراف من قريش والانصار . وفي اليوم التالي دعا مسلمٌ الناس للبيعة ليزيد ، بعد أن أصدر أمره بتقتيل زعماء الثورة الذين نجوا من الموت .

ومن المدينة توجّه مسلمٌ إلى مكة ولكنه قضى في الطريق ، فاستُخلفَ على الجند الحُصَين بن نُمَير . وبعد ان حاصر الحُصين مكةَ طوالَ شهرين بلغه نعيُ الخليفة يزيد [فأوقف القتال] وفاوض عبدالله بن الزبير ، وعرض عليه البيعةَ بالخلافة شرطَ أن

يهدر الدماء التي كانت بين جند الشام وأهل الحرَم ، وأن يخرج إلى سورية حتى تبقى قاعدة الدولة هنـــاك . ولكنّ عبد الله رفضَ الموافقة على الشرط الثاني ، ومع ذلك فقد رفع الحُصَين الحصار ورجع إلى الشام .

وتوفي يزيد في ١١ تشرين الثاني سنة ٦٨٣. صحيحٌ أنه انصرف حتى في عهد خلافته ، إلى الخمر والموسيقى واللهو بأكثر مما انصرف إلى شؤون الدولة ، وأنه قد وضع حـدّاً للحرب البيزنطية التي لم يشارك فيها ، وهو أميرٌ إلا في تردّد وعلى كُره . وصحيحٌ أيضاً أن الروايات النصرانيـة تشيد بحبّه الفائق للقَصْف والشراب . ولكنه مع ذلك استطاع أن يُحدث خـلال حكمه القصير ، وفي شكل لا يخلو من البراعة ، إصلاحاً في الادارة المالية ، وأن يوجّه اهتمامه إلى ريّ الغوطة ، واحة دمشق . وكان ابنه معاوية الثـاني حَدَثاً عندما بويع في دمشق بالخلافة ، ولكنه توفي بعد أن حكم فترةً قصيرةً جداً .

مروان الاول — الصراع بين الكلبية والقيسية

وفي أيام معاوية الثاني نشبت الحروب ، في سورية ، بين القبائل العربية ، لتستمر متقدة الأوار منذ ذلك الحين ، طوال العهد الاموي . ذلك بأن قبائل عرب الشمال القيسية التي نزل بعضها ، كغطفان ومضر وغيرهما ، في سورية الشمالية وفي الجزيرة والعراق ، لم تكن مرتاحة إلى محاباة معـاوية الاول نفسه لبني كلب اليمانيين ، وهم يؤلفون القبيلة الرئيسية في قضاعة النازلين بين تدمر والبلقاء (مؤاب القديمة)[٣١]

(٣١) يميل جولدزيهر الى اعتبار العداوة بين عرب الشمال وعرب الجنوب

فلما استوسق الأمر لعبد الله بن الزبير في العراق ثارت قيس بزعامة زُفر بن الحارث وطردت امير قنسرين ، وكان من كلب . وبعد وفاة معاوية بايع امير حمص ايضاً عبدالله بن الزبير بالخلافة . واخيراً انقلب الضحّاك بن قيس ، الذي كان ذا نفوذ في دمشق ، على الامويين وحازَبَ ابن الزبير . وأظهر مروان ، رأس البيت الاموي ، الذي نزل دمشق بعد وفاة يزيد ، ميلاً إلى التنازل عن حقوقه للخليفة المقيم في مكة ، باديء الامر ، ولكنه ما لبث أن نزل عند رغبة اتباعه فتلقى البيعة في الجابية ، في ٢٢ حزيران سنة ٦٨٤ . وهنا انضم اليه خال يزيد ، حسّان بن بَحْدَل ، وكان بوصفه اميراً على الاردن يتمتع وحده ، من بين انصار الامويين جميعاً ، بسلطة ، فعلية ما . فسار مروان معه الى دمشق ، فخرج القيسيون للقائه في سهل مرج راهط ، شمالي دمشق ، فكُتب له النصر عليهم . وفي آب سنة ٦٨٤ تلقى مروان البيعةَ في دمشق ايضاً ، بعد أن استولى على بيت مال الدولة مقدّماً . ومع أن هذا النصر في مرج راهط قد ثبّت دعائم الحكم الأمويّ ، فأن العداوة بين قيس وكلب ما لبثت ان استعرَ أوارها بعد قليل ، بسبب من الثارات التي لازمت النزاع بينهما ، لتدكّ آساسَ الدولة الأموية وتقضي عليها .

نتيجة ثانوية للخصومة بين قريش والانصار الذين كانوا يعدون من عرب الجنوب. ولكن الذي يبدو ان هذه الظاهرة قد نشأت ، منذ البدء ، من عداوة قائمة على اساس الجنس بين عرب الشمال ، وهم شرقيون خلص ، وبين عرب الجنوب الذين تسري في عروقهم دماء غريبة مختلطة . والحق أن الخصومة بين قيس ويمن ظلت تعمل عملها ، بعد ذلك ، بزمن طويل . وسنقع على آثارها واضحة في تاريخ الاندلس .

ولم يُقيّض لمروان من الحكم إلا فترة قصيرة ، ولكنها كانت حافلة بالمنازعات المتواصلة . ولقد وفّق إلى الاستيلاء على مصر بهجوم مفاجيء شنّه عليها ، فيما كان امراؤه في فلسطين يحمون مؤخرة جيشه ، ويصدّون هجوم مُصعَب ، أخي عبد الله بن الزبير. وكان على مروان ، باديء الرأي ، أن يُسند ولاية العهد لأحد أبناء يزيد ، ولكنه استطاع بعد سلسلة من المفاوضات المتطاولة أن يُقنع هذا الاخير بالتنازل عن حقه في الخلافة لولديْه هو : عبد الملك ، وعبد العزيز ، وكان أصغرهما ، وقد عيّنه أميراً على مصر .

وكان الخليفة ، الذي سبق أن أصيب بجرح بالغ في الدفاع عن عثمان ، وبآخر في موقعة الجمل ، يُشارف عامه السبعين عندما تَخَطّفَهُ الطاعون الوافد على سورية من العراق للمرّة الثانية ، في ٧ نوّار سنة ٦٨٥ ، كما تخطف معاوية الثاني من قبله . أما الرواية التي تذهب إلى أن امرأته ، وهي أرملة يزيد ، قد خنقته انتقاماً لابنها الذي حُرِم حقّه في الخلافة ، فقطعةٌ من الخيال.

عبد الملك وثورة المختار

والواقع أنه كان على ابنه عبد الملك أن يستهلّ الآن نضالاً عنيفاً لإقرار ملك أبيه . فقد كان زُفر ، زعيم قيس الضاربة في الفرات ، لا يزال يتحدّاه في سورية ، وكانت الامصار الاخرى تدين بالطاعة لابن الزبير . ليس هذا فقط ، بل لقد كان عليه أن يدافع عن سورية الشمالية ، ضدّ البيزنطيين ، سنتين بكاملها ، حتى إذا فرغ من ذلك استطاع أن يصرف همته الى العراق

وعليه آنذاك مصعب بن الزبير . وكان مصعب ، قبل أن يفرغ له عبد الملك ، يواجه في العراق عقبات كبرى . ذلك بأن العلويين ، اخلدوا إلى السكينة بعد مصرع الحسين في كربلاء ، وقد اعوزهم القادة الموهوبون . وما هي إلا فترة حتى برز بينهم القائد الذي يرتجون في شخص المختار الثقفي ، وهو يتيم نشأ في كنف عمه ، امير المدائن من قِبل عليّ[٣٢] . وكان المختار قد شارك في ثورة مسلم بن عقيل فقبض عليه والقي في غياهب السجن ، حتى إذا أطلق سراحه التحق بابن الزبير في مكة . وبعد ثلاث سنوات ظهر من جديد في العراق وأخذ يدعو في ما يظهر ، لأحد ابناء عليّ الصغار ، محمد المعروف بابن الحنفية ، نسبة الى امه . وإذ كان محمدٌ هذا لا يجري في عروقه شيء من دم النبي عن طريق فاطمة ، وإذ كان بسبب من ذلك لا يستطيع أن يدّعي الحق في الخلافة وان يتصدر لها ، فقد سارع المختار الى انتهاج سبيل آخر : طفق يبشر ، بوحي من الملك جبريل على ما زعم ، وبنثر غامض مسجوع يطبع على غرار القرآن ، بظهور المهديّ ، فُجاءَة ، عند انتهاء العالم ، ليملأ الارض عدلاً بعد ان ملئت جَوْراً . ولقد وُفّق إلى ان يجتذب اليه الموالي من الآراميين والفرس الذين اعتنقوا الاسلام والذين كان العرب

---

(٣٢) انظر فان جالدر : H. G. van Gelder, *Mochtar, de valsche Propet*, Leiden, 1888.

وانظر ايضاً فان فلوتن: G. van Vloten, *Recherches sur la domination arabe, le chitisme et les croyances messianiques sous le califat des Omaiyades*, *Verh.d. Akad.*, Amsterdam, 1894, Nr.3.

وانظر ايضاً ولهاوزن : J. Wellhausen, *Die religiôs - politischen Oppositionsparteien im alten Islam*, 74 — 89.

ينظرون اليهم كمواطنين من الدرجة الثانية ، وأمّر عليهم ابراهيم ابن مالك الأشتر ، أحد قوّاد عليّ المشهورين . ونجح ابراهيم في التغلّب على عرب الكوفة ، ومن ثَمّ بسَطَ المختار سلطانه على العراق كله وعلى الامصار الشرقية ، حيث انضوت الشعوب المغلوبة على أمرها تحت لوائه ، في حماسة واندفاع . ولكنه لم يستطع أن يكتسب عطفَ عرب الكوفة الذين اغتنموا فرصة انشغال ابن الاشتر وجنوده في حرب عبد الملك ، للهجوم عليه [اي على المختار] . والواقع ان المختار كان في حال من الخطر الشديد عندما تداركه جيشُه ، بعد ان سمع بانباء الكوفة ، وانقذه من أهلها . فما كان منه إلا ان انزل عقوبة وحشية بجميع خصومه بحجّة انهم شركاء في الجريمة التي انتهت باستشهاد الحسين . وبعد يومين ، هزم ابنُ الاشتر الجيشَ السوري — وكان يقوده عُبَيد الله بن زياد الذي أنفذَ مجزرة كربلاء — في خازر ، حيث قُتِل ابن زياد نفسه . ولكن المختار لم يهنأ بهذا الظفر العظيم الذي احتفل به احتفالا غريباً ، بعد ان نصب عرشاً فارغاً وسجد أمامه سجوده امام عرش الله ، إذ تلا هذا الظفر سقوطه . ذلك ان مصعباً الذي كان حتى الآن مستقراً في البصرة اثناء حرب الخوارج ما لبث ان هاجمه واضطره ، بعد معركتين داميتين ، الى ان يعتصم في قلعة الكوفة . وضرب مصعب الحصار على القلعة فدافع المختار وجنوده عن أنفسهم دفاعاً دام أربعة اشهر ، قُتل بعدها المختار في هجوم قام به في ٤ نيسان سنة ٦٨٧ . وعاشت تعاليمه في عقائد الشيعة ، المتصلة بشؤون الآخرة ، على الرغم من أن مصعب بن الزبير أباد اتباعه في

وحشية بالغة .

واستطاع مصعب ان يُخضع بعض الحركات الاموية الصغرى في العراق ، ولكن عبد الملك نفسه ما عتّم ان ظهر بجيشه في العراق، سنة ٦٩١ ، في وقت كانت أفضل جيوش مصعب منهمكة أثناءه في النضال ضد الخوارج. فتقدّم مصعب لقتال الخليفة شمالي بغداد ، عند دير الجاثليق على الضفة الغربية من دجلة . بيد أن رجاله خانوه ، وشرعوا يفاوضون الخليفة ، الذي أبى ان يقرّهم على خيانتهم ،والذي أظهر الرغبة في التفاهم مع مصعب ،عارضاً عليه إمارة العراق إذا ما انضمّ الى صفوفه . ولكن مصعباً كان صادق الاخلاص لأخيه ، فرفض عرض عبد الملك ، وقضى في ميدان المعركة في منتصف تشرين الاول .

هزيمة ابن الزبير

لم يبق أمام عبد الملك الآن إلا عبد الله بن الزبير الذي كان يسيطر على الحجاز كله من مقرّه في مكة . فوجه اليه الحجاجَ بن يوسف ، وهو ثقفيّ من الطائف ، استطاع ان يكسب رضا الخليفة في حملته على مصعب. واتخذ الحجاج من مسقط رأسه قاعدة لعملياته الحربية ، ليتقدّم من هناك إلى مكة ، وليرميها بالمنجنيق من جبل ابي قبيس ، غير مبال بحرمتها وقدسيتها . ولكن منافس الخليفة استطاع ان يثبت سبعة أشهر اخرى في منطقة الكعبة ليُقتل في مناوشة جرت في تشرين الاول سنة ٦٩٢ ، بعد أن انفضّ عنه الناس حتى أبناؤه انفسهم . وهكذا استعادت الامبراطورية وحدتها. وكافأ عبد الملك القائد الظافر بأن عيّنه أميراً على الحجاز ،

بالاضافة إلى اليمن واليمامة . وبعد أن أقرّ الأمن والنظام في هذه الاصقاع طوال سنتين ، دعاه عبد الملك إلى تولّي أعباء أخطر عمل في الدولة ، فعيّنه أميراً على العراق ، خَلَفاً لبِشر ، أخي الخليفة المتوفّى . ولقد استهل اضطلاعه بمهام الحكم في الكوفة بخطبة طارت لها شهرةٌ واسعة كخطبة سلفه زياد .

الحرب البيزنطية

واستأنف عبد الملك ، بعد أن قضى على منافسه في الخلافة ، حرب البيزنطيين التي خمدت نارها طوال خمسة عشر عاماً ، والتي سبق له ان اضطرّ إلى وقفها بجزية يدفعها إلى أعدائه . والمفروض أن استئناف الأعمال الحربية كان ذا صلة بالاصلاح النقديّ الذي أحدثه عبدالملك . فالروايات الاسطورية تذهب إلى أن النقد البيزنطي كان وحده المتداوَل في الامبراطورية العربية ، حتى ذلك الحين ، وان النقود المضروبة في داخل البلاد ايضاً كانت تحمل نقوشاً يونانية . وكان البيزنطيون بدورهم يحصلون على ورقهم من مصر حيث كان يُصنع لهم في مصانع للدولة ، حاملًا الكتابات النصرانية واشارة الصليب كسِمَة مائية . والمقولُ ان الخليفة قد استبدلَ الشهادتين بهذه جميعاً . ومن هنا هدّد البيزنطيون بأن يجعلوا على الدينار الذهبي ، الذي كان العرب لا يزالون يعتمدون على البيزنطيين في الحصول عليه ، نقوشاً عدائية للرسول . فما كان من عبد الملك إلا أن عزمَ على أن يضرب نقود دولته في دمشق ، سنة ٦٩٣ فيقتفي الحجاج أثره في الكوفة ، في السنة التالية . وكان من نتيجة ذلك أن اصطُنعت العربية في الديوان ، بعد أن كان

باليونانية في سورية ، وبالفارسية في العراق ، على الرغم من ان الموظفين ظلوا ، كما كانوا في السابق ، كلهم من الأعاجم [٣٣] . ثم إن عبد الملك حدّ كثيراً من الحريات الممنوحة سابقاً للرعايا المسيحيين ، ابتغاء تعزيز وحدة الامبراطورية وضمانها .

كذلك أدخل عبد الملك روحاً جديدة إلى بلاطه . كان أسلافه يعاملون الرعية على طريقة شيوخ القبائل العربية القدماء . فلما انتهى اليه الأمر خرج على هذه السنّة وحكم المملكة حكماً مطلقاً . وإذ كان هو ممثل الثيوقراطية فقد وسّع من نفوذ الفقهاء ، وأدى فروضه الدينية بأمانة وحرص . ولكنّ هذا لم يمنعه من أن يدعو الى بلاطه الشاعر النصراني ، الأخطل ، الذي وُلد في الحيرة من قبيلة تغلب ، والذي سبق ليزيد الاول ان أفاد من خدماته . ذلك بأن الأخطل لم يكن مقيداً بايٍّ من الاعتبارات الدينية ، ومن هنا استطاع الخليفة حمله على ان يتعرّض بشعره البليغ الأثر للمعارضين من أتقياء اهل المدينة ، الذين كانوا لا يفتأون يزعجون الدولة بين الفينة والفينة [٣٤] .

وضمِنَ عبدالملك ولاء الامصار بأن جعل إمارة كل منها الى احد انسبائه ، ما خلا العراق . ولقد عيّن على مصر وشمالي افريقية حيث قُضيَ نهائياً على المعارضة البربرية ، في عهده ، أخاه عبدالعزيز

(٣٣) بعد ان تولى عبد الملك الحكم أرسل اثناسيوس بار جماية من الرهاء إلى عبد العزيز أخي الخليفة في مصر ليعيد تنظيم الادارة . ولقد اصبح اثناسيوس في مركزه هذا ذا غنى استطاع معه ان يشيد كنيستين عظيمتين من امواله الخاصة.

(٣٤) راجع لامنس H. Lammens, *Un poète royal à la cour de Damas, Etudes sur le siècle des Omayyades*, 210 — 62.

الذي سبق لأبيه أن عهد له بالخلافة بعد عبد الملك . والواقع ان عبدالملك سعى الى اقناع أخيه بالتنازل عن حقه في الخلافة ، فلم يُفلح . ومهما يكن من الامر فقد توفي عبد العزيز قبله . وهكذا خلف الوليد أباه ، سنة ٧٠٥ ، من غير ما معارضة .

الفتوح في عهد الوليد

وبعث الوليد بالجيش العربي الى ما وراء حدود الامبراطورية ، كرّة أخرى . فسقطت طوانة ، من أعمال آسية الصغرى ، في أيدي العرب بعد حصار طويل ، وإن لم تخرج الحملة التي رسم خطتها للاستيلاء على القسطنطينية الى حيز العمل . اما الفتوح في الشرق فبدأت من العراق ، الذي كان الحجاج اميراً عليه وعلى إيران كلها [٣٥] . ففي سنة ٧٠٤ عيّن عبدالملك ، بناء على إشارة الحجاج ، قُتَيْبَة بن مُسْلِم اميراً على خراسان ، وهي المقاطعة الشرقية التي تمتدّ من نهر جَيحون (آمودريا) حتى «الهندوكوش» . والواقع ان الشعبين الايراني والتركي كانا هناك على احتكاك متواصل منذ قرون . فلما كانت الفترة التي نؤرخ لها ، وسّع الاتراك — الذين سندرس جاهليتهم في تفصيل اكبر عندما نبحث دخولهم الحاسم في دنيا الاسلام — مملكتهم في اتجاه الغرب ، على عهد قابغان [٣٦] قاغان * (الذي يدعوه الصينيون متشوي) بعد ان حرّروها من السيطرة الصينية . واستقرّ واحد من اتباعهم ، بوصفه «طرخاناً» ، في سَمَرقند ،

(٣٥) تجد تفصيلات اوسع في كتاب جب ، H. A. R. Gibb , *The Arab Conquests in Central Asia* .

(٣٦) راجع تنظيمات الاتراك القبلية في الجزء الثاني من هذا الكتاب .

* وجاء في المصادر العربية : خاقان . [المعربان]

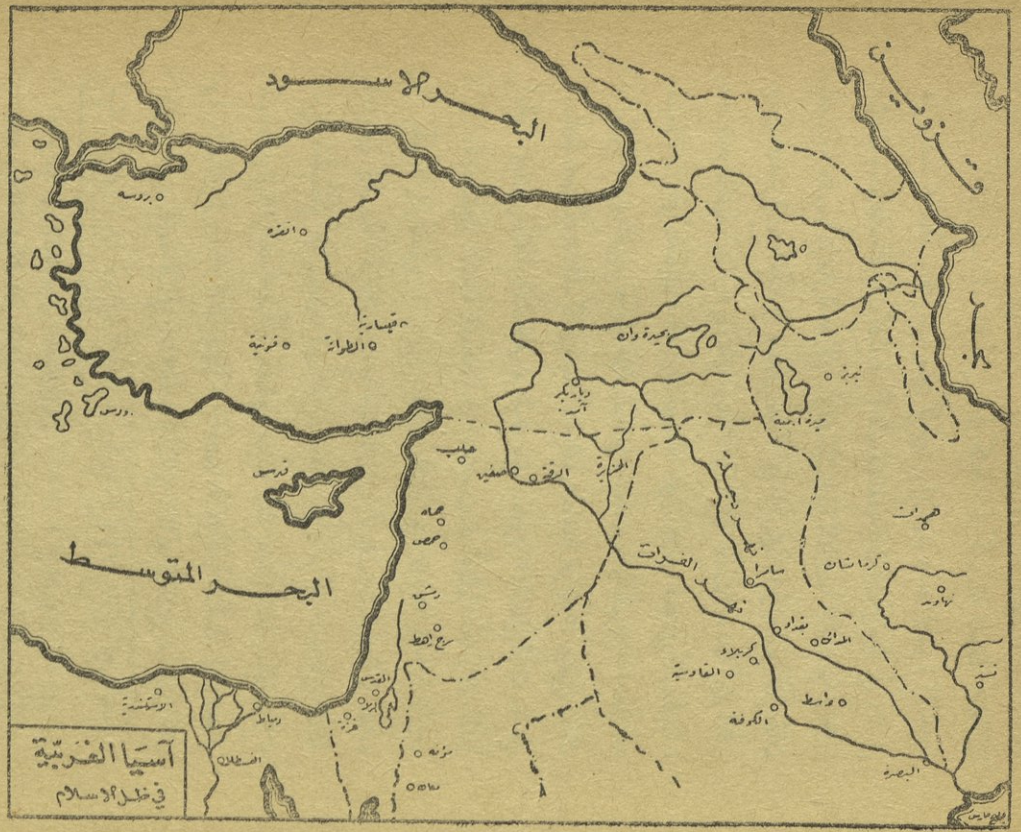
البحر الاسود
البحر المتوسط
بروسة
انقرة
قيسارية
الطراة
قونية
ادرنة
ملطية
الفرات
دجلة
بغداد
الكوفة
البصرة
واسط
الفادسية
كربلاء
الموصل
نصيبين
حران
الرقة
حلب
حماة
حمص
دمشق
طرابلس
عكا
غزة
القدس
الاسكندرية
آسيا الغربية
في صدر الاسلام

عاصمة بلاد الصغد ، في ما وراء النهر ، على الضفة الجنوبية من نهر الزَرَفْشان * . وعلى الضفاف السّفلى من هذا النهر تقع بُخارى، حيث كانت احدى الأسر التركية الحاكمة تبسط سلطانها على رعية مختلطة ، فارسية وتركية . وفي عهد هذه الاسرة الاخيرة نشبت منازعات عرفَ قتيبة كيف يستغلها بان قلد رجلًا في مقتبل العمر منصب الإمارة هناك . واعتنق هذا الشابُ الاسلامَ ، فاذا بدين محمد راسخ الجذور ، بعد ، في بخارى . وخضع طرخان سمرقند لقتيبة ايضاً ، ولكن رعاياه الناقمين عليه ما لبثوا أن خلعوه . وتمرّد خَلفُه ،غورك ** ، اول الأمر ، على المسلمين ، ولكن قتيبه اضطرّه إلى الاستسلام ، بعد حصار طويل . ومع أنه احتفظ بعرشه ، فقد كان عليه أن يقبل حامية عربية . ومن ذلك الحين ثبتت دعائم الاسلام ، بالرغم من بعض الاضطرابات ، في كلتا المدينتين اللتين اصبحتا في ما بعد أعظم حصونه شأناً في آسية الوسطى . ومن هناك اندفع قتيبة في اتجاه الشرق قاصداً فرغانة . فلما كان صيف سنة ٧١٤ جاءه نعي الحجّاج فانسحب الى قاعدته في مَرْو . وفي السنة التالية توفي الوليد ايضاً ، فخشي قتيبة ان ينتقم منه سليمان ، وارث العرش ، لما كان بينهما من خصومة عنيفة تمثّلت في إحجام الاول عن مبايعة الثاني بالخلافة ؛ ولكن القائد الكبير ما لبث أن قُتِل في ثورة من ثورات الجند . وفي سنة ٧١١ بدأ أمير البصرة

* وهو نهر الصغد ونهر الصغانيان . [المعربان]

** وجاءت في المصادر العربية «غوزك» . [المعربان]

من قِبَل الحجّاج ، صهرُه محمد بن القاسم ، في غزو السّند من جنوبي بلاد فارس وبلوخستان ، مما فتح امام الاسلام في الهنـــد ميداناً جديداً من ميادين النفوذ الواسعة [٣٧] .

فتح الاندلس

أما في الغرب فقـد جازَ العرب ، في خلافة الوليد ، مضيق جبل طارق ، وانزلوا في ٢٥ - ٢٦ تموز سنة ٧١١ ضربة قاضيـــة بالمملكة القوطية التي عملت الاضطرابات الداخلية على تفسّخهـا ، في معركة وادي بكّة ، الذي سُمّي خطأ ، في وقت من الاوقات باسم شريش الفرنتيرة . وفي هذه المعركة قُتل لذريق آخر ملوك القوط . وكان الجيش الظافر يتألف في كثرته المطلقة من البربر الذين كان موسى بن نُصَير ، امير افريقيـة الشمالية (الذي عيّنه عبد العزيز وأقرّه الوليد في منصبه) قد بعث بهم في بادىء الأمر عبر المضيق كفرقة استطلاع ، ليس غير ، بقيـادة مولاه طارق بن زياد . ولا يزال الجبل الذي جمع طارقٌ جنوده فوقه ، بعد ان نزل بهم الى البر ، يحمل اسمه الى اليوم . والواقع ان هذا الظفر غير المتوقّع الذي احرزه طارق أثار الحسد في نفس سيده ، فما كان منه إلا ان لحقَ به ، في الحال ، على رأس جيوش عربيـــة ، في معظمها ، واندفع متوغلاً في البلاد حتى لقد انتهى إلى أبعد مما انتهى اليـــه طارق . واتمّ موسى في هذه الحملة فتح مدينة شَذُونة و قَرْمونة ،

---

(٣٧) راجع في ما يتصل بالاسلام في الهند كتاب « تاريخ الهند » للسير جورج دنبـار Sir George Dunbar, *A History Of India*, 2 vols., London , 1936 . 3d ed. 1943. ولا تتناول الصفحات التالية هذا البحث

ليقضي بعد ذلك عاماً كاملا في حصار إشبيلية وماردة ، بينا كانت بعض جيوش الاسلام تقاتل الأمير القوطيّ تُدمير في أوريولة . ثم إنه التقى بجيش مولاه طارق عند طُليطلة فوُفّق بالاشتراك معه إلى إخضاع اسبانية الشمالية كلها من سَرَقُسطة إلى نَبْرَة (نافار) وفي سنة ٧١٤ رجع موسى إلى إفريقية بغنائم عظيمة ، وسار في موكب نصر الى سورية ، حيث كان الوليد ينتظره بفراغ صبر . وما كاد يبلغ دمشق ، حتى توفي الخليفـــة في شباط سنة ٧١٥ ، وله من العمر اربعون عاماً .

وقطفَ الوليد ، في داخل امبراطوريته ، ثمرات النشاط الذي بذله أبوه ، فاعُترف به في كل مكان عاهلا مطلق الارادة . ولقد عمل على إقصاء النصارى شيئاً بعد شيء عن الجهاز الاداري ، حتى لقد استغنى عن خدمات أسرة سرجون بن منصور التي كانت تدير الشؤون الماليـــة منذ عهد معاوية نفسه . وكان ، ككثير من الملوك الشرقيين القدماء ، مولعاً بالاعمال العمرانيـــة ، لا لمجرّد التباهي والاعتزاز فحسب ، بل ابتغاء تعزيز موارد أملاكه ايضاً .

الجامع الاموي بدمشق

وليس من شك في أن الأثر الرئيسي الذي تقوم عليه شهرة الوليد ، من حيث العمران ، هو جامع دمشق الكبـــير الذي يدعى عادة الجامع الأموي . كانت البساطة هي الطابع الغالب على شكل المكان الذي يُفرد للصلاة ، فكانت المساجد تتألف من فِناء في احد طرفيه سقيفة ، على غِرار بيت النبي في المدينة . ولكن هذه البساطة لم تلبث ان اصبحت زياً قديماً . والواقع ان معسكرات

الجيش الفاتح الاولى، في الكوفة والبصرة بالعراق ، وفي الفسطاط بمصر ايضاً ، اكتفت بتقليد مسجد النبي القديم . حتى اذا كانت خلافة عمر وعثمان وسّعا مسجدَيْ المدينة ومكة بعد ان اشتريا المنازل المجاورة لهما ، واستعاضا عن السقائف البسيطة [المصنوعة في الغالب من سَعَف النخل] بسقائف من حجر. واقتفت الامصار أثر مكة والمدينة في ذلك . فجهّز سعد بن ابي وقّاص مسجدَ الكوفة بأعمدة مأخوذة من مباني الساسانيين وكنائس الحيرة . وفي عهد معاوية أدخلت تحسيناتٌ جديدة على مسجدي الكوفة والبصرة ٣٨ . فالى جانب المحراب ، المتّجه نحو مكة (القِبْلة) اقيمت دُور الدولة الرسمية ، لأنّ إمامة الناس في الصلاة الجامعة انتقلت في العاصمة والامصار الى الخليفة وعُمّاله. وتذهب الروايات الى ان عثمان نفسه قد ابتنى مقصورة خشبية في مسجد المدينة مخافةَ أن يعتدي عليه أحدٌ. فلما كانت خلافة الامويين حذا أمراء الامصار حَذْوَهُ ، في كل مكان . وفي عهد عبد الملك تعذّر على أتباعه الحج الى الكعبة بسبب من استيلاء منافسه في الخلافة ، عبد الله بن الزبير ، على مكة ، فحاول ان ينشيء في القدس بدلاً عن البيت الحرام . وهناك على الصخرة المقدسة التي استنّ عمر نفسه الصلاة

---

(٣٨) في ذلك الحين لم تكن أرض المسجد مفروشة بالحصباء ، فكان المؤمنون ينفضون أيديهم من ترابها بعيد أداء الصلاة . وخشي زياد أن تصبح هذه الحركة جزءاً من الصلاة ، مع تراخي الأيام، فأزال التراب وفرش الأرض بالحصباء . راجع البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٧ ، وراجع ايضاً دي غويه M. J. de Goeje, review of Wellhausen, *Arab. Reich* in *Museum*, 1902.

عندها ، يوم دخل بيت المقدس ، شيد عبد الملك ما يدعى اليوم قبة الصخرة (وتسمى ، خطأ ، مسجد عمر) . ثم إن الجامع الأقصى ، الذي يدين باسمه لقصة إسراء النبي ، أنشىء بعدُ على فِناء الهيكل . ولقد أدخلَ عبد الملك تلك الأجزاء التي كانت لا تزال قائمة من كنيسة يوستنيانوس ، في البناء ، مشيداً رواقاً ذا ثلاثة صفوف من الاعمدة ، أضيف اليه في ما بعد الجناحان والقبة واربع بلاطات [٣٩] .

وفي دمشق نفسها ، عاصمة الامبراطورية ، اكتفى المسلمون حتى ذلك الحين بمسجد صغير متواضع . وكان يقوم في الجزء المركزي من المدينة ، حتى في العصور الوثنية ، هيكلٌ كبير جدّد بناءه الرومان – ولعل ذلك كان في عهد الامبراطور ترايان – على طراز هيكل الشمس المشهور بتدمر ، ولكن على نطاق أوسع . ولا تزال بقايا اعمدة هذا البناء ماثلة للعيان في جوار الجامع . وفي سنة ٣٧٩ شُيدت على انقاض هذا الهيكل الوثني كنيسة كرست ليوحنا المعمدان ، وقد جُدّد بناؤها في عهد أركاديوس بن هونوريوس . والواقع ان هذه الكنيسة ظلت كلها ملكاً للنصارى . اما القول ان المسلمين احتلوا بعد الفتح مباشرة نصف الكنيسة لاقامة شعائرهم الدينية وتركوا نصفها الآخر للنصارى ، مكافأةً لهم على استسلامهم ، فمن اختراع الروايات الاسلامية المتأخرة ، التي لم يَعُدْ في ميسورها ان تفهم مثل هذا

---

(٣٩) راجع تاريخ العمارة والتخطيط في كتاب ديز : E. Diez , *Die Kunst der islamischen Vôlker* , Berlin , 1915, p. 12 ff .

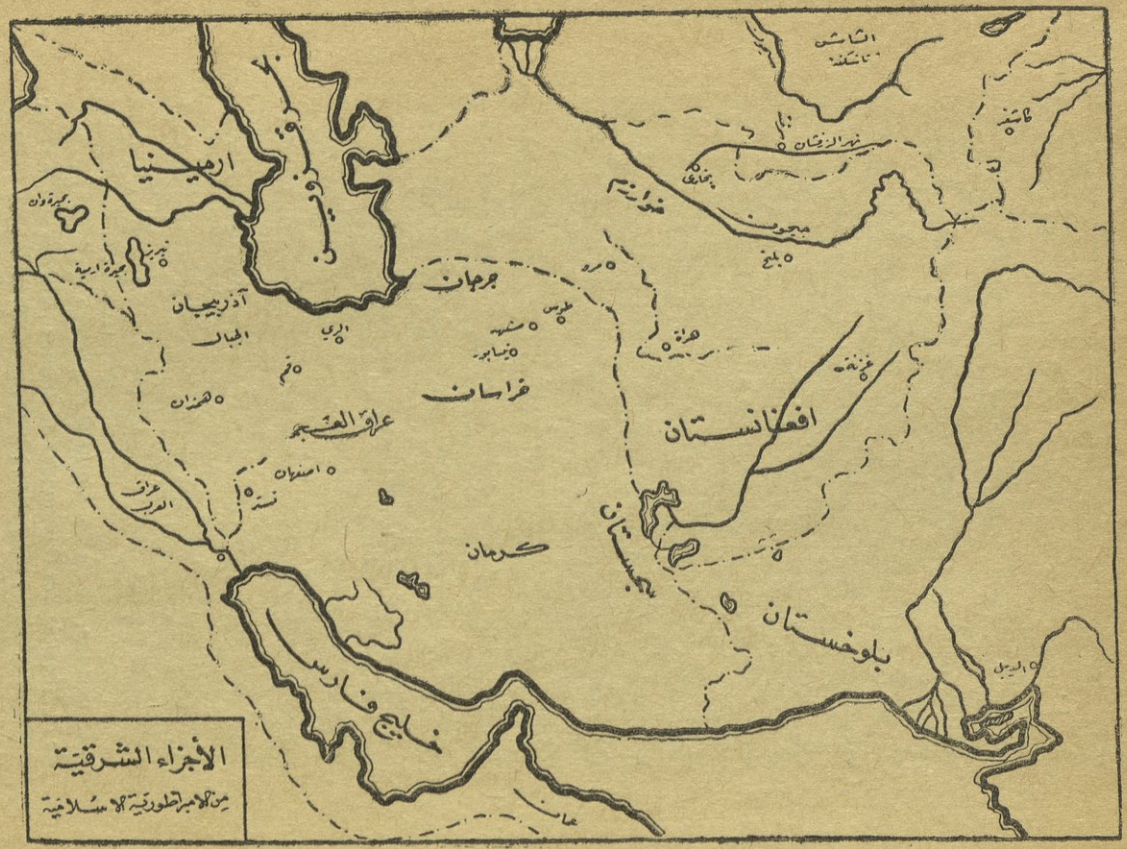
الأجزاء الشرقية
من الامبراطورية السلاجقية
ارمينيا
آذربيجان
الجبال
جرجان
خراسان
عراق العجم
افغانستان
كرمان
بلوخستان
خليج فارس
عمان
خوارزم
ماوراء النهر
الشاش
فرغانة
بلخ
مرو
نيسابور
همذان
اصفهان
قم
الري
تبريز
بحيرة وان
بحيرة ارمية
عراق العرب
الديبل

التساهل مع النصارى . وفيما نرى الخلفاء الأوَل يصونون حقوق النصارى ، نجد الوليد ينتزع ، سنة ٧٠٥ ، الكنيسة منهم [٤٠] ، ثم يعيد إنشاءها بأن ضمّ اليها الجدار الجنوبي والرواق الملاصق من الهيكل السابق ، فاستحالت الى رواق مُعمّد ذي ثلاث بلاطات واقواس محمولة على أركان ، وجناحين على غرار معبد خلكي في بيزنطة ، وسقف خشبي . اما القبة الحجرية الشامخة فوق منتصف الجناحين فليس من شك في انها شيّدت بأيعاز من عُمال الفسيفساء البيزنطيين الذين عهد اليهم بتزيين داخل البناء وتزويقه . ولقد رُبطت زوايا البلاطة الوسطى من الجناحين ، على غرار الكنائس السورية ، بالدائرة السفلى من القبة بواسطة محاريب نصف دائرية . كذلك طُليَت تيجان الاعمدة بالذهب وزُيّنت الجدران بالرخام المطعّم وبالفسيفساء التي تمثّل مُدناً وأشجاراً من كل نوع . وأقيمت مئذنة جديدة على اساس البرج القديم في الزاوية الجنوبية الغربية من الرواق العتيق . وفي الجانب الشمالي من مدخل الجامع ارتفعت « مئذنة العروس » . وحول الفِناء الى جهة الشمال ، أنشيء رواقٌ شامخٌ عالٍ . وهنا ايضاً وجد هـ . تيرش H. Thiersch النموذج لهذا الجمع بين الرواق ذي العمَد وبين المدخل — الذي قلّدته بعدُ مساجد كثيرة — في معابد بيزنطة وفي رومة حيث وُضع مدخل القصر الامبراطوري كفِناء رئيسي مع غرفة للاستقبال والتشريفات . وهذه في دورها اتبعت نموذجاً كلاسيكياً .

(٤٠) انظر لامنس H.Lammens, *Le Calife Walid et le partage de la Mosquée des Omayyades de Damas , Etudes sur le siècle des Omayyades* , Beyrouth , 1930 , pp. 269 - 302 .

وإنما شيّدت هذه المنشآت في الامصار بواسطة السّخرة . وتتحدث إحدى اوراق البرديّ المصري عن الجهود التي بُذلت في هذا البناء. كان العُمّال كلّهم من الأجانب ، من غير استثناء . وفي الروايات الأدبية إشارة إلى الف ومائتي عامل من بيزنطة . وكذلك تحدّثنا اوراق البردي عن رجل فارسي كان يعمل هناك . من اجل ذلك كلّه ، نستطيع ان نقول ، في اطمئنان كثير ، إنّ طراز البناء لا يمكن أن يكون متشاكلاً مطّرِداً . ليس هذا فقط . بل لم يكن بدّ من اللجوء إلى الكفاءات الفنية الاجنبية ، في ما بعد ، أيضاً ؛ ففي القرن الثاني عشر رفعَ ساعةَ المسجد الكبيرة رجلٌ من الفُرس . ومن أسف ، أن يستهدف هذا الجامع ، الذي يعتبر أقدم آثار العمارة الاسلامية في سورية ، لضربات الجدّ العاثر غير مرّة . ففي سني ١٠٦٩ ، و١٤٠٠ ، و١٨٩٣ نشبت النيران في البناء فأتت عليه وكادت تلتهم جدران الأساس نفسها .

الحجاج يقاتل الخوارج وابن الاشعث

وفي عهد عبد الملك والوليد كان يحكم العراق – وهو أهمّ بلدان الامبراطورية بعد سورية ، التي تُعتَبر نواتها – الحجاجُ بن يوسف الذي تقلّد الأمرَ هناك سنة ٦٩٣ ، كما ذكرنا آنفاً . وكانت مهمة الحجاج ، في العراق ، عسيرة جداً . فقد غلظت قلوب العراقيين بفعل الحروب المتطاولة في سبيل الخلافة . ففي الكوفة كان الهياج الناشيء عن الاضطرابات التي ثارت في أيام النبيّ الكاذب ، المختار [الثقفيّ] ، لا يزال يُحدِث ذُعراً ورعدة . وكان الخوارج لا يزالون معسكرين خارج ابواب البصرة . وكانت

قـــد ظهرت فيهم فرقة جديدة ، هي فرقة الازارقة ، التي كانت تكفّر كلّ من يخالفها ويأبى الايمان بعقائدها ، وتهدر دمه ، ودم زوجته واولاده ايضاً . ولقد سبق للمهلّب بن ابي صفرة ان قاتلهم باسم مُصعب حتى إذا قُتل هذا الاخير استسلم لعبد الملك فأبقاه في منصب القيادة . وفي سنة ٦٨٨ انتخب الازارقة خليفة جديداً ، هو قَطَرِيّ بن الفُجاءة التميمي الذي اشتهر ايضاً بالشعر ، والذي كان ابداً يتهدّد العراق من خوزستان . والحق انـــه سبّب للمهلّب كثيراً من البـــلاء ، خاصة وان أميري عبدالملك السابقـــين على العراق لم يمدّاه — حسداً منهما — بالمساعدات الكافية . وكان الحجاج هو أول من وضع تحت تصرفـــه جيوشاً جديدة ، استطاع بها أن يتعقب الثوار إلى قلب كِرمان ، المقاطعة الفارسية . ثم إن المنازعات أطلعت رأسها في صفوف الثوار ، فتابع قطريّ السير مع العرب قاصداً طبرستان ، في حين تخلّف الموالي في مدينة جيرفت وانتخبوا زعيماً جديداً . وهنـــا وُفق المهلب إلى أن يتغلب عليهم في سهولة ويُسر . أما في طبرستان فاضطهد أتباع قطري الاهلين اضطهاداً موجعـــاً . فما كان من زعيمهم إلا أن استعدى أمير الريّ على العرب ، فأعداه وأوقع بهم هزيمة ساحقة . وقضى قطريٌ نفسه في ميدان هذه المعركة (٦٩٧ او ٦٩٨) . وثمة زعيم خارجي آخر ظلّ يتهدّد العراق من الموصل ، طوال سنتين ، هو شَبيب الشيباني . وكان شبيبٌ هـذا من كبار قطّاع الطرق حقاً . وكان نصارى البلاد يعطفون عليه ، وبذلك استطاع أن يتحدّى جيوش الحجاج من مكامنـــه

المتنقلة ابداً من مكان الى مكان . ولم يكن في مقدور الدولة أن تتغلّب عليه إلا في سنة ٦٩٧ ، بعد أن سيّر الخليفة الأمـــداد لمقاتلته ، فحلت الهزيمة بساحته ، عند نهر دُجيل ، وغرق في مياهه. والواقع ان إقرار الحجّاج بالفضل للجيوش السورية التي اقبلت لمساعدته مالبث ان اثار سخط الارستقراطية المحلية .

وما كاد الحجاج يقضي على الثوار في مقاطعة كرمان ، وكانت تُحكم من العراق ، حتى سيّر جيشاً مجهّزاً أحسن تجهيز لأخضاع بلاد سِجِسْتان المجاورة التي كان يحكمها في ذلك الحين امير من اصل تركي. وعهد الحجاج بقيادة هذا الجيش (جيش الطواويس) الى عبد الرحمن بن الأشعث ، الذي يرجع نسبه الى بيت كِندة الملكي القديم . فكان عبد الرحمن يتّبع في فتح البلاد سياسة تقوم على اصطناع الروية وعدم التفريط بارواح الجند ، فعدّ الحجّاج ذلك منه ضعفاً وتراخياً ، وأمره بالاسراع في الفتح [والوغول في أرض الاعداء] . فجمع ابن الاشعث امراء جنده واستشارهم في الامر ، بعد ان تأكد لديه انهم يبغضون الحجاج بقدر ما يبغضون هـــذه الحرب في تلك البلاد المتوحشة . فاظهروا رغبتهم في مبايعة ابن الاشعث في الحال على ان يسير بهم الى اوطانهم ، لقتال الحجاج . وهكذا عقد الصلح مع الاتراك وتوجّه بجنوده متمهلاً ، نحو الغرب ، بعد ان انضمت اليه الحاميات التي في بلاد فارس . وعندما تقدّم الحجاج لمقاتلة الثوار هزموه واحتلوا البصرة ، بينا احتفظ الحجاج بسلطانه على الضواحي . ومن هناك استطاع ان يردّ الثوار على اعقابهم ، فانقلبوا قاصدين الكوفة . واضطر الخليفة الى ان يُنجد

الحجـــاج كرّة اخرى ، بالجنود الشامية بقيادة ابنه عبـــدالله واخيه محمد . والحق ان عبدالملك عهـــد الى هذين الرجلين ان يفاوضا ابن الاشعث ، اولاً ، بل لقد فوّضهما ان يلوّحا له بخلع الامير البغيض (الحجاج) . ومع ذلك فقد أصرّ ابن الاشعث على عدم إظهار الطاعة للخليفة ، فاضطرت جيـوش الحكومة إلى أن تهاجمه فتدحره في دير الجماجم أولاً ، ثم في مَسْكِن ، حيث انفضّ من حولهِ بعض اتباعه . وأخيراً لاذَ عبد الرحمن بأمـــير سجستان التركي ، الذي انقذه فعلاً من قبضة أحد القوّاد العرب ، ثمّ ما لبث أن أسلمَهُ لرُسُل الحجاج . ولكن ابن الاشعث انتحر ، وهـــو في بعض الطريق سنة ٧٠٤ ، بأن ألقى نفسه من فوق قصر فمات .

بناء واسط واصلاحات الحجاج

وبعد أن قضى الحجاج على هذه الفتنة الاخيرة من فِتن العرب العراقيين ، صار في مقدوره أن يفرَغَ لتدعيم سلطانه الذي أقامه على أساس من قوّة بلاد الشام العسكرية . فبنى سنةَ ٧٠٢ مدينةً جديدة دعاها «واسط» ، على منتصف الطريق بين الكوفة والبصرة ، المدينتين الثائرتين أبداً ، وجعلها معقله وقاعدةَ حُكمه . ولم يسمح الحجاج بالعيش في واسط ، لغير الجند العربي الشاميّ ، ولغير اتراك ما وراء النهر الذين قـدِموا البصرة كأسرى حرب ومنفيين ، في أغلب الاحوال ، أو قدموها من تلقاء انفسهم أحياناً ، حتى إذا توفي سُمح للآراميين والفرس بالاستقرار هناك . والواقع أن هذه المدينة التي أحدثها الحجّاج ، احتفظت ، بفضل موقعها الستراتيجي ،

بمكانتها بين مدن العراق – كما احتفظت أختها مدينة كَسْكَر القائمة على الضفة الاخرى من دجلة – حتى في عهد العباسيين ، عندما اضطرّت إلى أن تتنازل لبغداد عن مركزها كقاعدة للحكومة .

ثم ان الحجاج قطف ، في عهد الوليد ، ثمرات العمل الشاق الذي قام به في عهد عبد الملك . ذلك بان الخليفة الجديد كان يثق بامير العراق ثقة كاملة ، بل كان يستشعر انه مدينٌ له بشيء كثير بعد أن نصره على عبد العزيز [بن مروان] في مسألة الخلافة . ومن هنا أفرغ الحجاج همته للعمل الصادق بسبيل إنعاش البلاد التي انهكتها عشرون سنة من الحرب . وإنما كان هذا الانعاش يقتضيه ، في المحلّ الأول ، إصلاح القنوات التي تحمل مياه النهرين [دجلة والفرات] إلى أطراف البلاد وتعهّدها بالعناية الدائمة ، وإصلاح السدود التي تصون خصب الأرض من عادية الصحراء ، والتي قد تنفجر لأقل عطب . ولقد قاوم الحجاج ، بشدة ، الهجرات الريفية إلى المدن الكبيرة وأقام التجارة على قواعد من الطمأنينة والثقة باصلاح نظام النقد ونظام الموازين والمكاييل والمقاييس . ليس هذا فحسب . بل ان الروايات لتذهب إلى أنه عُني باعجام القرآن . ولعلّ من جملة الأسباب التي حملته على ذلك سبباً سياسياً ، لأن حفظة القرآن كانوا ابداً ، منذ ايام عثمان ، على استعداد لأثارة مشاعر الناس ضدّ الحكومة . فكافأه الحُفاظ على هذه العناية بان نشروا تلك الحكاية التي تقول انه كان ايام شبابه معلم صبيان في مسقط رأسه بالطائف . وكان جرير هو الشاعر المعاصر الوحيد الذي شايعَ الحجاج فترة من زمان . وكان

قد ظهرَ من قبل على الأقران ، في العراق ، عهـــدَ مصعب بن الزبـير ، وخاض معركة حامية مـــع خصمه في الشعر ، الفرزدق . وكما اصطنع عبد الملك الاخطلَ النصراني في نضاله ضد المعارضة من أهل المدينة ، كذلك استعمل الحجاج جريراً للاشادة بمجده ، ورفـع القناع عن خصوم الحكم الشامي السرّيين ، في البلاد .

سليمان بن عبد الملك

وخلف الوليد اخوه سليمان، وفقاً لما قد جرت به إرادة أبيهما. وكان الحجاج قد قاوم ذلك أشدّ مقاومة ، في السنوات الاخيرة من حياته ، ونصح الى الخليفة ان يرفع ابنه الى عرش الخلافـة . والواقع ان موقف الحجاج هذا قد أثار نقمة سليمان عليه ، ولكن الاخير لم يستطع ان يصبّ جام غضبه إلا على عماله . فما كاد يرتقي العرش حتى خلعَ امير المدينـــة ، عثمان المرّي . وأراد عامل خراسان ، قتيبـــة بن مسلم ، الذي أحاطته فتوحه بهالة رائعة من المجد، ان يستبق مصيره، فدعا جيوشه الى إعلان الثورة على الخليفة. ولكن بني تميم ، وكانت القطيعة قد وقعت بينه وبينهم ، تمرّدوا عليه وقتلوه. ثم إن الخليفة الجديد قلّد إمارةَ الحجاج عدوّ الحجاج اللدود ، يزيد ، ابن القـــائد المشهور المهلب بن ابي صُفرة . وكان يزيد هذا قد خلف أباه ، بعد وفاته، كعامل على خراسان، ولكن الخلاف ما لبث ان نشب بينه وبين رئيسه في العراق. وكان الحجاج قد تزوّج من أخته ، ولكنه رفض وساطتهـا في خشونة ؛ وسعى الى ان يحمل الخليفة على خلع يزيد ، بل لقد القاه في السجن عاماً

كاملا . ثم إن يزيد وُفِّق الى الفرار إلى الرملة ملتحقاً بوليّ العهد الذي بعث به بعدُ الى العراق ، حيث يستطيع ان يُنزل انتقامه بأتباع سلفه . وولى الخليفة (نزولا عند رغبة يزيد، على ما يقال) الخراجَ عاملا آخر من عماله لأن يزيد لم يشأ أن يعرّض نفسه لبغضاء الشعب الذي كان يئن تحت وطأة الضرائب الباهظة . وقد يكون الواقع ان الخليفة فعل ذلك من تلقاء نفسه متبعاً في ذلك سُنة مجرّبة. وما لبث يزيد ان اصطدم بصاحب الخراج ، بعد ان رفض هذا الاخير تلبية مطالبه من خزانة الدولة . وهكذا تطلع الى عمل يكون أعوَدَ عليه ، فالتمس من الخليفة نقله الى خراسان ، مع احتفاظه بالسلطة المطلقة في العراق ، ففعل . وكانت انتصاراته العسكرية في الشرق هزيلة لا خطر لها . أضف الى ذلك انه استثار سخط الناس ، من طريق السلب والابتزاز ، الى درجة جعلت الخليفة يذهب ، قبيل وفاته ، الى حدّ التفكير في محاسبته . واخيراً لقيَ يزيد جزاءه في عهد خليفتَيْ سليمان .

واتخذ سليمان مقرّه في الرملة بفلسطين حيث كان يعيش قبل ان يلي أمر المسلمين ، وحيث اكتسب محبة السكان وولاءهم . وانشأ في دابق، في شمالي سورية، معسكراً كبيراً للحرب ضد البيزنطيين، وكان كثيراً ما يختلف اليه بنفسه ابتغاءَ الاشراف على سير العمل فيه. بيد انه لم يوفّق الى تحقيق أيما نصر حاسم . صحيح ان جيوشه تقدمت غرباً ، بعد ان حاصرت عمّورية في خريف سنة ٧١٥ وشتائها على غير طائل ، حتى لقد بلغت برغاموس وساردس وطوّقت القسطنطينية عاماً بتمامه . ولكنها اضطرت بعدُ الى

التراجع ، تجرّر أذيال الخيبة [٤١] . وتوفي سليمان بعد ذلك بسنة في دابق ، في ايلول ٧١٧ .

عمر بن عبد العزيز والاصلاح الداخلي

وإنما نصّت وصية عبد الملك على ان يلي الامرَ من بعده اخوه . ومع ذلك فقد اخذ سليمان البيعة لابنه أيوب . وإذ قد تُوفي هذا قبل أبيه فقد نزل سليمان عند إرادة الفقيه رجاء بن حَيْوَة وعهد بالخلافة إلى ابن عمّه الورع ، عمر بن عبد العزيز ، الذي كان في الواقع قادراً على تولّيها ، غير مُدافَع .

وُلد عمر الثاني (ابن عبد العزيز أمير مصر الذي عُمّر طويلاً) المتصلُ نسبهُ من جهة امه بعمر الأول اتصالاً كان موضعَ فخره الشديد — في المدينة حيث انفق أيام شبابه يعايش تابعي الرسول الاتقياء ويخالطهم . وكان لا يزال على أوثق الصِّلات بهم في سنة ٧٠٦ عندما عيّنه الوليد أميراً على الحجاز . فدعا عشرة من الفقهاء الاتقياء وألّف منهم مجلساً دائماً يستشيرهُ [فلا يقطع أمراً إلا برأيه] ، ضامناً بهذا أن تجيء أعماله كلها وَفقاً لسنّة الرسول . ولكنّ الحجّاج ما لبث أن حمل الوليدَ على عزله ، بسبب من أنه فتحَ أبواب المدينة في وجه اللاجئين من العراق ، وإن لم يفقد الوليد حبّه له وإعجابه به .

---

(٤١) لم يكن لهذه الغزوات من نتيجة غير اغراق سوق الرقيق بأسرى الحرب من الروم (اليونانيين). ولقد اتفق مرة ان كان سليمان في المدينة ، في طريق عودته من الحج ، فوهب اربعمائة من الروم لبعض المقربين اليه هناك ، فأعملوا السيف في رقابهم ، على ما نجد في قصيدة فخرية لجرير ، وكان من الذين شاركوا في هذا الصنيع .

وما كاد عُمر يلي أمرَ الناس حتى أصدر أمره إلى الجيوش الاسلامية العاملة في آسية الصغرى بالقُفول ، رغبةً منه في الانصراف إلى الاصلاح الداخلي وتحقيق مُثُل الحياة السياسية التي عمَرت وجدانَهُ منذ شبابه الأوّل في المدينة . بيد أن حُبّه للسلام لم يستطع أن يكبح جماح عُمّاله ، في أقصى الغرب ، فجازوا جبال البرانس ، وانقضّوا على فرنسة الجنوبية ، حيث أقاموا مركزاً دائماً للقيادة في أربونة ، ولعلهم فعلوا ذلك في عهد خلافته بالذات . والتمس عمرُ عطف العلويين ، خصوم بني امية القدماء ، بأن وضع تحت تصرفهم واحة فَدَكَ التي سبق للنبي أن احتفظ بها لنفسه بعد الفتح ثم صارت من أملاك الدولة ، وبأن ألغى سبّ عليّ ابن ابي طالب على المنابر ، وكان أسلافه من الامويين يلعنونه حتى لقد أمسى عادة مُتّبعة . كذلك استمال النصارى ما استطاع الى ذلك سبيلا . فعوّضهم من كنيسة القديس يوحنا ، التي كان الوليد قد وضع يده عليها ، في دمشق ، بكنيسة القديس توما في الغوطة ، على الرغم من أنها قد حُوّلت إلى جامع منذ الفتح ، بخلاف ما نصّت عليه شروط الاستسلام . ليس هذا فحسب ، بل لقد خفف من أثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرس ، وأيلة * (على خليج العقبة) ونجران في جنوبي بلاد العرب . أما الموالي فقد ساوى بينهم وبين العرب في الوضع الشرعي — وكان وضعهم من قبل دون وضع العرب ، كما كان سبباً في إثارة قلاقل كثيرة في بلاد العراق — وأعفى المحاربين منهم في خُراسان من الخراج ، بالأضافة إلى

* وهي العقبة اليوم . [المعربان]

أعطياتهم مُثبتاً بذلك دعائم الامبراطورية لخلفائه .

الاصلاح المالي

ولكن اعظم ما عُني به عمر بن عبد العزيز الاصلاحُ المالي . ذلك بان سياسة الخراج التي أحدثها عمر الأول قد أخفقت في تحقيق غاياتها ، بعد أن تملّك كثيرٌ من المسلمين الاراضي في البلدان المفتوحة وطالبوا باعفائها من الخراج ؛ وبعد أن اعتنق كثيرٌ من سكان الأرياف الملزمين بدفع الجزية من ناحية ثانية ، الدينَ الاسلامي وصار في ميسورهم التخلص من أداء الخراج بالسكنى في الحواضر . ولقد تأتّى الحجاج لهذه المعضلة من طريق تحريم الهجرة [الى الحواضر] وفرض الضريبة على املاك المسلمين انفسهم . اما عمر ابن عبد العزيز فتأتّى لها من الناحية المقابلة ، ملتزماً مبدأ إسقاط الجزية عن جميع المسلمين ، باعثاً في الوقت نفسه قاعدة كان عمر الاول قد سنّها قِوامُها أن جماع الاراضي المفتوحة إنما هو فيء للجماعة الاسلامية ، وبذلك حظر على الفرد المسلم أن يستولي على شيء منها ، في المستقبل . فاذا دخل احد الفلاحين من أهل الذمة في الاسلام ضمّت ارضه الى ممتلكات الجماعة في القرية . فاذا رغب في مواصلة حراثتها كان عليه أن يُكريها ، وهذا الاكراء يساعد الجماعة على أداء ما يتوجّب عليها من الخراج . ومهما يكن من أمر فقد كانت مقاصد عمر صالحة ، وهي لم تصدر ، كما زعمَ بعضهم ، عن عقل لاهوتي يسعى وراء الآخرة ، ولكنه لم يُعط الفرصة الكافية لانفاذها ، في همة ونشاط ، خلال حكمه القصير — فقد توفي في ٩ شباط ٧٢٠ — حتى إذا قام خلفاؤه من بعده آثروا الأخذ بطريقة الحجاج فهي

اسهلُ وأدعى الى الراحة .

يزيد الثاني

وكان على خليفة عمر ، يزيد الثاني ، ثالث ابناء عبد الملك ، أن يواجه ثورة اندلعت في العراق بعد ارتقائه عرش الخلافة ، مباشرة. ذلك أن عمر الثاني كان قد سجن يزيد بن المهلب ، عامل خراسان ، لأنه لم يؤد الى بيت مال المسلمين خمس الغنيمة التي تمت له في حملته الاخيرة ، وكان قد بالغ في وصفها مباهاة وتفاخراً . ولم يكن ليطمع في أن تأتيه الرحمة من جانب يزيد بن عبد الملك الذي كان متزوجاً ببنت اخي الحجاج – عدوه القديم . وهكذا فرّ من محبسه بحلب إلى البصرة حيث حرّض قبيلته ، الأزْد، وأقرباءهم من عرب الجنوب ، على إعلان الجهاد ضدّ الامويين بوصفهم اعداء الدين . وانضوت فارس وكرمان تحت رايته . ولقد حاول الخليفة باديء ذي بدء الاتصال بابن المهلب ولكنه ما لبث أن سيّر على الثائرين مَسلمة بن عبد الملك ، الذي لمع نجمه في عهد أسلافه ، وأثبت كفايته في معارك آسية الصغرى . فنشبت المعركة بين الفريقين في ٢٥ آب سنة ٧٢٠ قرب قرية العَقْر، بين واسط والكوفة. فكانت الغلبة لجند الخليفة، وقضى يزيد بن المهلب نفسه ، واستبيحت اسرته فقُتل الرجال منهم ، وبيع النساء والاطفال، خلافاً للعرف الشائع، في أسواق الرقيق .

والروايات المعادية للامويين تصوّر يزيد الثاني ، كما صوّرت سميّه [يزيد الاول] من قبل ، رجلا مستهتراً انغمس في مناعم اللهو والموسيقى ، وشغلته القِيان والمغنيات ، فترك شؤون

الامصار الى أمرائه وعماله يصرّفونها كيف يشاؤون . والواقع ان عهده القصير ظل حافلا بضروب النشاط الجدّي ، حتى بعد القضاء على الفتنة في العراق. فلقد وحد الادارة في مكة والمدينة، وأدخل اصلاحات على ديوان القبائل في مصر ، وكان أساساً لأعطياتهم . ليس هذا فحسب ، بل لقد حاول ان يعالج المظالم الناتجة عن اصلاحات عمر الثاني المالية باجراءات لم تلاق رضى لدى الناس من مثل فرض الخراج على الاراضي ، من جديد ، بعد ان الغاه أسلافه في كثير من الأمصار والولايات . واصطنع في سياسة النصارى اتجاهاً غير اتجاه عمر بن عبد العزيز القائم على أساس الاحترام والودّ . فلم يكتف بالاستيلاء على عدد من كنائسهم ، بل أمر ، الى ذلك ، بتحطيم تماثيلهم الدينية [٤٢] . وانه لمن العسير ان يُنسب الى مثل هذا الرجل من العاطفة ما جعله يحزن لوفاة جارية من جواريه المقرّبات - كما تحاول بعض الروايات المتأخرة ان تثبت - حزناً أدى الى وفاته في كانون الثاني من سنة ٧٢٤ في قصر أرْبَدَ (أو إزِبد حسب روايات اخرى) في شرق الاردن .

قصور الامويين الصحراوية

والحق ان الايام حفظت لنا، في حال حسنة، عدداً من قصور البلقاء الصحراوية هذه ، التي كان خلفاء بني أمية يفزعون اليها بين الفينة والفينة للاستجمام من متاعب الحكم ، ففي ميسورنا أن نكوّن

(٤٢) لقد شهد عدد من النصارى والمسلمين بصحة الأمر الذي يتصل بهذه المسألة ، وان يكن ولهاوزن قد شك في ذلك . راجع كيتاني :
Caetani, *Chronographia Islamica, II*, p. 1284, 19.

فكرة عن هندستها المعمارية . واشهر هذه القصور قصر المشتى الذي اهدى السلطان عبد الحميد جزءاً كبيراً من « افريز » واجهته الى القيصر وليم الثاني، فهي معروضة اليوم في متحف القيصر فردريك ببرلين . وهو يُعتبر نموذجاً لأول الطرازين المتمثلين في الصحراء ، اعني المخيم البدوي الحجري [٤٣] . وانما يقوم هذا القصر على رقعة مربعة من الارض طول كل من جوانبها ١٥٧ يردة ، يحيط بها سورٌ محصّن بالابراج . وتتكشف الجهة الجنوبية عن واجهة فخمة ينهض في وسطها الباب الخارجي ، محاطاً بدوره ببرجين اثنين . اما داخل القصر فينقسم الى ثلاث بلاطات . ففي الوسط يؤدي المدخل والمنطقة المحيطة به – عبر فناء مكشوف ينبسط في وسطه حوض ماء – الى دهليز الامير الذي ينتهي الى قاعة ذات ثلاثة محاريب مقببة . ويكتنف هذه القاعة ، من اليمين والشمال ، عَقدان اسطوانيا الشكل يتألفان من الاقواس المدّببة المنخفضة التي تميّز بها الفن الفارسي ، والفن الاسلامي ، في ما بعد . والذي يستدل من التعاريج انه كان بالنيّة ، في الاصل ، بناء عدد من الغرف في كلٍ . ولكن شيئاً من ذلك لم يتمّ . ولقد زينت واجهة الباب الخارجي « بأفاريز » تتراوح نقوشها من خطوط افقية إلى خطوط عمودية ، ويتوّجها

---

(٤٣) انظر ديز E. Diez, *Die Kunst der islamischen Vôlker*, p. 23 ff.

وراجع للمؤلف نفسه مقالا في الموسوعة الاسلامية، ج ٣ ، ص ٦١٢ — ٦١٤

انظر ايضاً لامنس : H. Lammens, *La Badia et la Hira sous les Omaiyades*, in *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth*, IV.

ما يشبه الوسادة المسطحة ، في حين ان تيجان اعمدة الرواق من الرخام المجلوب ، المموّه بالازرق الرمادي ، وهو اللون المفضل في بلاد الجزيرة. أما تاج قوس النصر « وأساس » الواجهة الخارجية فقد جُعلا على ظاهر الواجهة كالشبائك أو السجاد . وتتكشّف واجهة الرواق عن مثل النبات الشائك الذي تتكشّف عنه الاعمدة ، ولكنها مُفرغة في لون أسود قاتم . أما قاعة العرش ، فتتماز بمحاريب تحيط بها الأعمدة ، وهو اسلوب سنجده بعدُ في محاريب الصلاة ، في المساجد .

وإذا كنّا لا نستطيع أن نقيم الدليل القاطع على اصل قصر المشتى الأموي ، بالرغم من ان « أموية » القصر راجحة رجحاناً كبيراً ، ٤٤ ، فالحقّ أن النقوش التي حفظت لنا في قصر آخر قائم الى شرقيّ الطرف الشمالي من البحر الميت – اعني قُصَير عَمْرَة الذي اكتشفه موزل – لتنهض دليلاً مباشراً على إنشائه في النصف الاول من القرن الثامن. ومن أسف أننا لا نستطيع أن نتحقّق من اسم باني القصر ، هنا ايضاً. فعلى أحد جدران القصر نجد رسوم أربعة ملوك ، يُفترَض أنهم يمثّلون الامبراطوريات التي دانت للاسلام ، وقد نُقش فوقها بالحروف العربية واليونانية ما يميّز كلاً منها من كلّ في عين الناظر. فهذا قيصر ، وهذا كسرى ، وهذا النجاشي (ملك الحبشة) وهذا لذريق (آخر ملوك اسبانية القوط) . والى جانب ملوك هذه

---

(٤٤) يذهب لامنس (في الموسوعة الاسلامية ج ٤ ، ص ١١١٢) الى أنه شيد للوليد الثاني . ولكن الفقرة التي اعتمدها لامنس من كتاب تاريخ بطارقة الاسكندرية لاتشير على التحقيق الى قصر المشتى .

الامبراطوريات العالمية ، الاربعة ، يقوم رسمان آخران لم يُنقش فوقهما شيء . وإذ كان هـــؤلاء مُرَتَّبين وَفقاً لمواقع ممالكهم الجغرافية فقـــد ذهب فان برشن إلى ان الصورة الثالثة التي تلي صورة كسرى تمثّل صاحب امبراطورية تقع شرقيّ فارس ، فهي إما ان تكون صورة متشوي (خاقان تركستان الشرقية الذي قُتل سنة ٧١٦) وإما ان تكون صورة امبراطور الصين نفسه . ويتبيّن الناظر ، في اساس الرسم ، وجهين آخرين لا شك في انهما يمثلان اميرين ثانويين من جملة الامراء الذين اكتسح الاسلام ديارهم. والراجح على الظنّ أن الوجه الثالث منهم يجب أن يكون رسم أمير لبلد يقع شرقيّ الحبشة ، ولعله أحد الامراء الاتراك أو الهنود ، كداهر مثلاً صاحب السند (التي فُتحت سنة ٧١٢) . وعلى هذا الاساس فقد نستطيع أن نعتبر الوليد الاول مشيّداً لهذا القصر . ويشتمل البناء ، الناهض من حجر كلسيّ يضرب الى الحمرة ، على قاعة رئيسية مسقوفة بثلاثة عقود اسطوانية وهي تؤدي مقابلَ المدخل ، الى محراب ذي عقد اسطواني منخفض تقوم على كلّ من جانبيه غرفة هي بدورها ذات عقـــد اسطواني ، وعلى شكل هيكل . ويدخل الضياء الى هذه الفسحة من ست نوافذ صغيرة في جـدران العقود الاسطوانية الامامية . والى جهـــة الشرق تجاور الغرفةَ الرئيسية ثلاثُ غرف صغيرة اولاها مسقوفة بعقد اسطواني ، والثانية بعقد مصلّب ، والثالثة بقبّة . وهـــذه تؤلف قسم الحمامات في القصر ؛ وهي مزوّدة بمقاعد تمتدّ على طول الجدران ، وبشبكة من أنابيب الماء . وإنما تزدان هذه الغرف الاربع ، كلها ، برسوم حُفظت

لنا في حالة رائعة ، وهي تمثّل آخر ما أبدعه الفن الهيليني في البلاد الاسيوية . وتظهر على جدار المحراب الامامي في الغرفة الرئيسية صورة رجل ذي لحية يلبس ثوب الامارة وتحيط برأسه هالة من نور ، وقد استوى على عرش ترتفع فوقه ظُلّة تستند الى عَمَد ؛ وواضح أن ذلك هو الخليفة . والى يمينه تقوم امرأة رافعة ذراعها اليمنى ، وإلى يساره رجل يحمل عصاً ، وقد أشار كلٌ منهما إلى المتربع على العرش . ويحيط بنصف الدائرة سرب من طيور الصحراء المعروفة بالقطا التي كثيراً ما وصفها الشعراء . وحول قاعدة العرش تتلاطم امواج البحر ، وقد بدت فيها الاسماك وظهر على متنها قارب من قوارب الصيد . وفي وسط الجدار الغربي تبرز امرأة عارية امام حوض ماء ، كما يرى الى اليمين عدد من الرياضيين العارين في أوضاع مختلفة . اما في جهة اليسار فتقوم صور الملوك الذين ذكرنا آنفاً . وفي ما تبقى من ظاهر الجدار رسومٌ تمثل سباقاً للخيل ، وصَيد حُمُر الوحش والوعول ، ومناظر اخرى من شؤون الحياة ، ورسوماً رمزية للنساء . اما في القاعة المقببة فتظهر منطقة البروج والافلاك الشمالية . ويتكشّف الحمام الاوسط عن مشاهد استحمام مع نساء عاريات ؛ في حين تمثل رقعتان هلاليتا الشكل في الغرفة الثالثة خلق الانسان ووقوعه في الخطيئة . وعلى الجدار الأمامي الايمن جلست امرأة في اشهر الحمل المتأخرة الى جهة اليسار ، وانتصب رجلٌ ولّى الناظرَ ظهره ، الى جهة اليمين ، وقد انطرح بينهما ، في اسفل الصورة ، طفل يبكي ويرفس الارض برجليه . وعلى الجدار الامامي الايسر

وقفت امرأة امام جثة رجل وافته المنية، و"ملكُ الموت، عِزرائيل، يذودها عنه . ويمثل العقد الاسطوانيّ أعمار الانسان في لوحات نصفية . اما اللوحات المربعة التي تحيط بهـذه المناظر فتمثل، كما تمثل الجدران عموماً، صوراً عديدة من الحيوان والطير . وفي ما عدا هذين القصرين من قصور البادية، اللذين حفظتهما لنا الايام في حال افضل مما حفظت القصور الاخرى، نعرف قصر «الموّقر» الذي شيّده يزيد الثاني، وهو يقوم — عـلى الطراز الساساني — على عقود، ولكن يد الزمان عَفته فلم يبقَ قائماً منه غير آساسه . ويجب ان لا نغفل أخيراً عن النص على أن الامويين اعادوا إنشاء بعض الحصون الرومانية على تخوم بلاد العرب واتخذوها قصوراً لهم.

خلافـــة هشام

وخلف يزيد الثاني اخوه هشام [٤٥] الذي جعل مقره، غالباً، في الرصافة على الفرات . وكان من حسن طالعه ان يجد في شخص خالد ابن عبدالله القَسْري والياً على العراق يُذكّرُ بسلفيه العظيمين زياد والحجاج . وإذ كان خالد، بوصفه متحدّراً من قبيلة لا شأن لها، مُعتَبراً فوق الاحزاب فقد وُفق إلى أن يضع حداً للنشاط مثيري الفتنة من القيسية . ولكن أعظم خدماته للعراق إنمـــا تمت له من طريق متابعته، بشكل واسع، لأعمال الاصلاح التي بدأها الحجاج . والواقع انه جفف مستنقعات دجلة الادنى، حول واسط، فأحيا

---

(٤٥) راجع غبريال : G. Gabriel, *Il califato di Hisham, studi di storia omayyade*, *Mém. Soc. Arch.* Alexandrie, VII, 2, 1935.

بذلك اراضي واسعة ، بعد موتها ، وسخّرها للزراعة ، فعادت عليه بدخل عظيم .

ثورة زيد بن علي

والواقع ان خالداً افاد من هذه المشاريع ثروة طائلة ، ولكن ذلك لم يعرّضه لغضب الخليفة ، لأنه لم يقصر يوماً في أداء ما يتوجب عليه من الضرائب الى البلاط في دمشق . حتى إذا سمح لنفسه بان ينزلق في مهاوي المضاربات بالحنطة نجح خصومه في حمل الخليفة على عزله ، بعد ولاية دامت خمسة عشر عاماً . وما كاد العراق ينجو من قبضته الحديدية حتى زايله الاستقرار والامن . فخرج في الكوفة زيد بن عليّ [بن الحسين] ، احد احفاد عليّ ، مطالباً بحق بيته في الخلافة . فبايعه الناس على ان يتخذ كتاب الله وسنة الرسول هادياً وإماماً ، وعلى ان يقاتل الحكام الآثمين ، ويحامي عن الضعيف ، ويقيم العدل في امر اولئك الذين سُلبوا أعطياتهم ، ويوزع موارد الدولة بالتساوي ، ويستدعي الجنود المقاتلين في البلدان النائية . وعلى الرغم من ان امير العراق ، يوسف بن عُمر الثقفي ، استطاع ان يُخمد الثورة ، في غير ما صعوبة ، بعد ان قتل زيداً في معركة دارت في الشوارع ، فالحقّ ان ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التي أدّت آخر الأمر الى سقوط الامويين . وفي القرن التاسع أسس اتباع زيد بن عليّ هذا دولة في اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاولة ، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التي ما تزال قائمة الى اليوم [٤٦] .

(٤٦) تذهب الزيدية الى ان القيادة الروحية ، الأمامة ، دون غيرها ،

واستأنف هشام ايضاً الحرب ضد البيزنطيين ، وكانت قد تثاقلت وأصابها الفتور منذ أن اخفق المسلمون في هجومهم الاخير على العاصمة البيزنطية سنة ٧١٦ – ٧١٧ . ولكنّ المعارك التي خاضها جند هشام لم تؤدّ الى نصر دائم . ذلك بانه كان عليهم عادة ان يُخلوا ، في الشتاء ، المواقع التي كسبوها خلال الصيف. ولقد اضطر الخليفة مرة واحدة ، سنة ٧١٤ ، الى أن يشترك في القتال بنفسه عندما هاجم البيزنطيون مدينة مَلَطْيَة بعد ان انزلوا بالعرب قبل عام واحد ، هزيمة قاسية في ربض أقرن من أعمال فريجية .

غزوات العرب في فرنسا

وفي عهد هشام وُفق العرب الى ان يندفعوا ، اندفاعاً أشد ، في اتجاه الغرب . فالواقع ان الخلاف بين العرب والبربر ، الذين استشعروا أنهم مغبونون ، هو الذي كان يعوق المسلمين ، حتى ذلك الحين ، عن حرب النصارى في إسبانية . ولقد ذهب الزعيم البربري ، مُنازة ، إلى حدّ الانفصال عن العرب ، والاستقلال على التخوم الشمالية ، والتحالف مع يوديس دوق اقيتانية . فما كان من هشام إلا أن ولّى على الاندلس اميراً جديداً ، هو عبد الرحمن بن عبدالله [الغافقي] ، الذي قهر مُنازة ثم ارتدّ على يوديس فهزمه بين نهري جَرونه ودوردوني ، وتابع تقدمه في اتجاه نهر لوار . ولكنه اصطدم هنا ، بين تور وبواتييه ، بشارل مارتل في تشرين الاول سنة ٧٣٢ . فصمد الفرنجة الاوستراز يون في

يجب ان تكون في آل علي ، وتنكر المتطرف من العقائد الشيعية . ومن هنا لم يكن الخلاف بينها وبين الاكثرية السنية حاداً جداً .

وجه الحملة العربية ، لينسحب العرب بعدُ تحت جنح الليل ، وقد استشهد قائدهم عبدالرحمن . ومع أن الأمراء الذين خلفوه استأنفوا غزواتهم على بلاد الغال ، فقد كانت الاضطرابات الداخلية كثيراً ما تعوقهم ، عن تحقيق أهدافهم من هذه المحاولات .

ثورة البربر

وكان أهل افريقية من البربر يظهرون الاستياء وعدم الرضا . ذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية، على الرغم من كونهم مسلمين صالحين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدّسة [الجهاد] . وهكذا وجد رُسلُ الخوارج ، المقبلون من العراق ، الى افريقية ، النفوس مستعدة لتلقي تعاليمهم ، فحرّضوا البربر على الخليفة الاموي وحرّكوهم لرفع راية العصيان . حتى اذا تقدم البربر الى الخليفة بشكوى جديدة فلم يُستجب لهم ولم يسمح لهم بالمثول امامه ، اندلعت في افريقية نيران ثورة هائلة امتدّت من مراكش الى القيروان . وكان الولاة الافريقيون اعجز من ان يخمدوا هذه الثورة العارمة بالرغم من أن عُقبة ،أمير الاندلس ، قد هرع لنجدتهم من إسبانية . ومن هنا تعيّن على هشام ، سنة ٧٤١، أن يوجه لقتال البربر جيشاً سورياً يقوده كلثوم بن عياض ،ولكن هذا الجيش نفسه سقطَ دون الغاية في وجه شجاعتهم الوحشية . والواقع أن معركة كبرى نشبت بين الفريقين على ضفاف نهر «نوام» سنة ٧٤١ دارت الدائرة فيها على العرب فقُتل قائدهم كلثوم، واضطرّ نسيبه بَلْج بن بِشر إلى أن يقاتل أشرَسَ قتال ليشقّ طريقه الى الأندلس بثُلث جيشه الباقي ؛ فلم يُوفق الى ذلك إلا في عُسر

كثير . ولقد كان على العرب ان ينتظروا عاماً واحداً حتى يُحرزوا نصراً يضمن لهم على الاقلّ الاستيلاء على القيروان .

وأكبر مثالب هشام بُخله ، فقد كان ينظر الى الدولة نظرته الى إقليم يجب أن يُستثمر . ومن هنا كان أبداً يحمل ولاته على الامعان في ابتزاز الاموال من افراد الرعية . ليس هذا فقط بل لقد زادَ في الخراج المفروض على قبرس ، وضاعف الخراج المفروض على الاسكندرية . ولقد دفعت سياسته بالفرس والترك في ما وراء النهر ، كما دفعت من قبل بالبربر في إفريقية ، الى إظهار السخط وعدم الرضا ، مما مهد السبيل ، في الشرق ، لرُسُل العبّاسيين ودُعاتهم . وتوفي هشام في ٦ شباط سنة ٧٤٣ ، تاركاً الامبراطورية في حال ليس اسوأ منها ولا أتعس .

الوليد الثاني

وخلف هشاماً ابنُ اخيه الوليد (الثاني) بن يزيد [٤٧] الذي ورث عن أبيه موهبته الفنية ومزاجه المرح الطروب . وإذ كان عمه [هشام] يطمع في عزله من ولاية العهد فقد اضطر إلى أن ينفق أيام شبابه بعيداً عن البلاط في قصر من قصور البادية في فلسطين . حتى إذا قضى هشام ، ودخل الوليد العاصمة رحّب به الناس ، على العموم ، وهللوا له ، مبتهجين بانقضاء عهد سلفه القائم على سياسة الاقتصاد وابتزاز الأموال . ولكن الوليد ما لبث أن خيّب آمال القوم فيه ، فلم تمضِ فترة من الزمن حتى انقلب إلى

(٤٧) انظر غبريلي : F. Gabriele, *Al-Walid ibn Jezid il califfo e il poeta, Rivista di studi orientali, XV*, 1934, 1 - 64 .

قصره الذي في البادية – حاملاً لقب الخلافة ، هذه المرة – ليفرَغ هناك للّهو ، والخمر ، والشعر .

الشعر والشعراء

وكما أن الاسلام لم يؤثر – حتى ذلك الحين – غير تأثير ضئيل في عادات اتباعه العرب المرعية ، كذلك ظل شعرهم ، في جوهره ، أميناً لتقاليدهم القديمة . وكان مستوى الحياة قد ارتقى في البلدين العربيين الجديدين ، سورية والعراق ، عما كان عليه في الوطن الأمّ . وكانت الأحقاد القبَلية قد اتخذت أشكالاً اكثر عُنفاً ، وكان الصراع بين قيس وكلب قد استعرت ناره طوال عشرات من السنين . فكان طبيعياً ان تؤلف هذه الحزازات القبلية ، كما رأينا ، مادة الشعر في عهد الزهو الأموي أيام عبد الملك والحجاج . فاختص شاعر البلاط ، الاخطل ، ومنافساه جريرٌ والفرزدق في إقناع مُوجع لا عهد للعرب بمثله من قبل ؛ وسعت جمهرة ضخمة من شعراء الطبقة الثانية إلى أن تُقحم نفسها في ميدان هذا الهِراش الفاحش ، رغبةً منها في اكتساب الشهرة والصوت من هذه الطريق . والواقع أن الشعر السياسي كان هو النّفَس الغالب ، في ما بعد ، ايضاً . ففي خلافة هشام ناضل الكُميت بشعره دون حق آل النبي في الخلافة ، وحق ابناء فاطمة فيها بخاصة . ولم يعالج الشعراء وتراً من قيثارة القريض ارق من هذا الوتر الجافي واعذب ، إلا في جزيرة العرب نفسها . ذلك بان مكة والمدينة انتهتا – بعد انقضاء دورهما السياسي – إلى ان تُصبحا موطناً للهو والاستمتاع بمناعم الحياة . وبعد ان كاد النسيب بالنساء يكون

مقصوراً على مقدّمات القصائد في الشعر القديم والشعر الاسلامي ـ الذي كان استمراراً له في سورية والعراق ـ وُلِد الغَزَل كفنّ مستقل قائم بنفسه . ففي مكة ، وفي ظل عبدالملك ، نظم عمر بن ابي ربيعة ، من بني مخزوم الاشراف ، قصائده الرقيقة الحلوة ، التي يغلب عليها العنصر الشخصي ، وجعلها وقفاً على التغزل بمليحات النساء ، ومعظمهن من الحواج الى الكعبة ، من غير اعلان للجوى ، ولوعة الفراق ، وهما العمود الذي كان يدور عليه الشعر القديم . والواقع ان هذا الفن ، الجديد على جزيرة العرب ، كان محل إعجاب صارخ في طول البلاد وعرضها . وفي هذا العصر ايضاً فتح الوليد الثاني للعرب باباً جديداً للاباحية الشعرية ، هو القصيدة الخمرية . فعلى الرغم من ان الخمرة قد مثلت دوراً في شعر العرب الوثنيين ، إلا انها كانت تُتخذ ، هناك ، موضوعاً لافتخار الشاعر ، في الدرجة الاولى . والحق أن تحريم النبي للخمرة لم يقض على استراق القوم لمُتَعِها النشوى ، ولم يستطع ان يحول دون تمجيدها في الشعر ، بالكلية . ومع ذلك ، فنحن نستطيع ان نعدّ الوليد الثاني مخترع الفن الخمري الاسلامي حقاً ، هذا الفن الذي قُدّر له ان ينمو ويزدهر في ظل العباسيين . ولقد ترسّم الوليد ، في هذا الفن ، خُطى عديّ بن زيد الشاعر النصراني الذي لمع نجمه في آخر عهد المناذرة في الحيرة . وانما عرّف الوليدَ به نديمه القاسم بن طُفَيل ، وكان هو نفسه نصرانياً من الحيرة .

وما لبث الخليفة ، الغارق في متارف الحياة ومباهجها ، بين النساء والمغنين والشعراء ، ان أتى على ما كان هشام قد كنزه

من المال ، ليُضطرّ بعدُ الى ان يُلحف بمطالبه على الولاة والعمال، فعلَ سلفه من قبله . ولقد أغضب الوليد ذوي قرباه [من الامويين] بأن جعل الخلافة من بعده لولَديه ، على الرغم من انهما لم يبلغا سنّ الرشد ، وعلى الرغم من ان كلاً منهما كان ابناً لأمَة . فما كان من الناقمين إلا ان ارادوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة ، فبايعه الناس في دمشق من غير ما معارضة ، وإن يكن الوليد قد قاوم القوات التي وجهها يزيد اليه ، وقاتل ببسالة اعظم مما كان يُتوقّع منه . ثم انه انسحب الى قصره في الَبخْراء ، جنوبي تدمر ، واخذ مصحفاً ونشره يقرأ فيه ، فدخل جند يزيد عليه وقتلوه ، (١٧ نيسان سنة ٧٤٤) ، في يوم كيوم عثمان .

مروان بن محمد — انحلال الامبراطورية

كان مصرع الوليد ايذاناً بانقضاء الدولة الأموية . ذلك بأن دعوة الخوارج الثورية التي نجحت نجاحاً كبيراً في الامصار ما لبثت ان انتشرت في سورية ايضاً ، بعد ان اضاع الامويون انفسهم هيبة الخلافة فيها ، وكان ولاؤها قبل ذلك لهم ، بلا خلاف . وهكذا بدأ التفسخ السياسي . وتوفي خلفُ الوليد ، يزيد الثالث في السنة نفسها (٢٥ ايلول) . وهنا برز لسلالة عبد الملك منافس في شخص مروان بن محمد [٤٨] ، أحد حفدة الخليفة مروان بن الحكم ، وابن احدى الأماء الكرديات ، وكان ابوه قد قاد الحملات ضد البيزنطيين

(٤٨) إن لقبه « حمار الجزيرة الوحشي » ، هذا اللقب الذي يبدو لنا غريباً جداً ، لم يقصد به الى السخر ، ولكن الى المديح . ذلك ان الحمار الوحشي يعتبر [عندهم] أنبل حيوانات الطرد (الصيد) .

فترة غير قصيرة من الزمان بوصفه اميراً على الجزيرة وإرمينية. وحارب مروان نفسه في بلاد القبق اثنتي عشرة سنة، فأفاد من ذلك خبرة أعاد على اساسها تنظيم الآلة الحربيـــة الاسلامية. وتفصيل الامر ان النظام القديم القاضي باعطاء الجند أعطياتهم من مال الجزية، لم يعد يتكافأ مع هذه الحملات التي تقتضي ضبطاً أدقّ وأصرم. ومن هنا استبدل مروان بتنظيمات الجيش القبلية القديمة كتائب على نظام جديد يقودها جنود محترفون. وانما كانت الجيوش القديمة تقاتل في صفوف ممتدة تجري أمامها المبارزات الفردية التي تقرر، في الأعمّ الاغلب، نتيجة المعركة. فخرج مروان على هذا العمود والف وَحدات عسكرية صغيرة، خفيفة الحركة الى حد بعيد.

وكان مروان قد أبى مبايعة يزيد الثالث، كما أبى مبايعة خلفه ابراهيم بن الوليد. والواقع أنه سار بجيوشه على سورية، ممثلاً في الظاهر حقّ وارثي الوليد في الخلافـة، فهزم جنود الحكومة التي ارسلت لحربه عند سلسلة لبنان الشرقية. وكان قائد جند الحكومة سليمان، أحد ابناء الخليفة هشام، قد قتل ابني الوليد فيما هو يتراجع الى دمشق، ليفر من البلاد بعد ان استولى على جميع ما وصلت اليه يداه من مال. وفي ٧ كانون الاول سنة ٧٤٤، بويع مروان بالخلافة في دمشق، ولكنه جعل مقره بعد في حَرّان، حيث كان يستطيع ان يعزز مركزه لدى القيسية الموالية له. فأغضب ذلك كلباً في سورية فثارت على مروان، ولكنه لم يلبث أن اخمد ثورتها في السنة نفسها. ثم انـــه جهز من الكلبيين جيشاً كان من المفروض ان ينضم الى قواته الخاصة في حملة أراد توجيهها الى العراق، ولم يكن

قد خضع له بعد . فبينا هو في طريقه اليه ، بلغه ان سليمان [بن هشام] قد رفع راية الثورة عليه في الرصافة ، وكان يقيم فيها ، بعد ان حسّن له اهلها السوريون خلعَ مروان وبايعوه بالخلافة . واستولى سليمان على قِنّسرين ، فاضطر مروان الى ان يوقف سيره الى العراق لينقضّ على هشام فيهزمه هزيمة فرّ على أثرها الى حمص أولا ، ومن ثم الى الكوفة . وإذ لم تُلقِ حمص السلاح الا بعد حصار دام اشهراً متعددة ، فقد أمر مروان بدكّ اسوارها ، كما أمر بتجريد بعلبك ودمشق وبيت المقدس وغيرها من المدن السورية من تحصيناتها . ولم يكد يطل صيف سنة ٧٤٦ حتى كان الامر قد خلص لمروان ، حقاً ، في سورية كلها .

في هذه الاثناء ، كانت سلطة الامويين في شرق الامبراطورية قد زالت بالكلية . ففي الكوفة نادى العلويون بعبدالله بن معاوية ، حفيد جعفر أخي عليّ ، إماماً . ولقد اكد هذا الاخير أن روح الله قد انتقلت من الرسول اليه بواسطة اجداده ، واضعاً بذلك أساس العقائد الشيعية الغالية في ما بعد . وعلى الرغم من انتصار الزيدية له ، وتمكنه من الاستيلاء على قلعة الكوفة في فترات مختلفة فقد وُفق عامل الوليد الثاني على العراق ، عبدالله بن عمر بن عبد العزيز ، إلى أن يوقع في جنده الهزيمة . وإذ قد مُنح عبدالله بن معاوية حق اختيار منفاه ، فقد قصد الى بلاد الجبال حيث تقاطر اليه خلقٌ كثير ، والتفوا حوله ؛ وكان للفرس عهدٌ بفكرة « الشرعية » * التي يقول بها العلويون . ولقد جعل مقرّه بادي

* او « النص والتعيين » .

[المعربات]

الامر في إصفهان ، ثم في إصطخر ، وبسط سلطانـــه على الولايات المجاورة: خوزستان ، وفارس ، وكرمان . ثم إنه فتح ابواب هذه البلاد في وجه الخوارج ، الذين هزمهم عامر بن ضبارة ، احد قواد مروان ، فما كان من عامر هذا إلا أن هاجمه فهزمه في مرو الشاذان سنة ٧٤٧ . ومن ثم فرّ عبدالله بن معاوية الى خراسان ، حيث قتله ابو مسلم ، البطل العباسي الذي سنتحدث عنه في ما يلي ، بعد ان رأى فيه منافساً له مزعجاً .

كان عبدالله بن عمر بن عبد العزيز قد أبى أن يبايع لمروان بالخلافة ، فعين مروان النّضر بن سعيد الحَرَشي اميراً على العراق ووجهه لقتال عبدالله . ولقد استمر القتال بين الفريقين اربعة أشهر اضطرا بعدها إلى أن يتّحدا في وجـه عدوّ لهما مشترك . وتفصيل ذلك أن حركة الخوارج لم تمت ، على الرغم ممـا بذله الحجاج ومن خلفه من الولاة في سبيل استئصال شأفتها . وإنمـا أطلعت رأسها الآن في الجزيرة الشمالية بين قبائل ربيعة التي كانت تَنْفَسُ عـلى قريش بالخلافة . فبايعوا الضحاك بن قيس الشيباني خليفـــة عليهم وتقدّموا لحرب العاملين الأمويين المتقاتلين على ابواب الكوفة . فما كان من عبدالله بن عمر والنضر بن سعيد إلا أن تعاونا عـــلى الخوارج ، ولكن التوفيق خذلهما ، فاضطرا إلى اخلاء الكوفة . ثم إن عبدالله بن عمر صالح الخوارج فثبّته الضحّاك أميراً عـــلى ميسان وفارس . حتى إذا خُذل الضحاك زجّ في احد السجون بحرّان ، ليموت ثمة بالطاعون سنة ٧٥٠ .

وبعد ان مكث الخوارج نحواً من عشرين شهراً في الكوفـة

انقلبوا إلى الجزيرة واستولوا على الموصل ؛ وهكذا رأى مروان – وكان لا يزال منهمكاً في إقرار النظام في سورية – إلى الخطر يتهدد معقل دولته ودعامتها، أعني الجزيرة. فوجّه ابنه لمقاتلة الثائرين، فهزموه في موقعة مشؤومة اضطر على اثرها للانسحاب الى ما وراء أسوار نَصيبين. وكان مروان قد وفق في هذه الاثناء إلى التمكين لنفسه في سورية فارتدّ على الخوارج بنفسه، فهزمهم في ايلول سنة ٧٤٦ هزيمة شنعاء في موقعة حاسمة قُتل فيها خليفتهم نفسه، كما قُتل وليّ عهده ايضاً، ولكن شوكتهم لم تُخضَد نهائياً إلا في السنة التالية عندما تمكن يزيد بن هُبيرة، قائد جند مروان، من ان ينتزع العراق منهم ثانية، وبذلك صار في ميسور مروان ان يَكِلَ الى قائده مواصلة العمل على اقرار النظام في الشرق، ليعود هو الى مقرّه في حرّان.

ظهور العباسيين في خراسان

ولم يكد مروان يستقرّ في حرّان، مطمئناً الى انه قد بلغ الغاية واصاب الهدف حتى برزت في الشرق احداثٌ خليقة بأن تفسد عليه ثمرة جهده الطويل. وكان نصر بن سيّار، امير خراسان، قد كتب، منذ مدة، الى دمشق يتحرّك العباسيين واجتماعهم في ظل الرايات السُود، طالباً اليها ان تنجده لدفع خطرهم. ولكن مروان لم يؤانس في نفسه المقدرة على تلبية نداء عامله، على وجه السرعة.

وتفصيل الامر ان خصوم الدولة العربية من الفرس المتعصبين لقوميتهم اتحدوا، في خراسان [٤٩]، مع اولئك المسلمين الاتقياء

(٤٩) انظر فان فلوتن: G. van Vloten, *De Opkomst der Abbasiden in Chorasan*, Leiden, 1896.

الذين دانوا بمبدأ «الشرعية» وقالوا بان حكومة الامويين لم تكن منذ البدء خلافة حقاً ، بل ملك دنيوي معادٍ لله . ولقد ذهبوا الى ان آل النبي ، أي عَقِب عليّ ، هم اصحاب الحق في ان يسيطروا على الدولة الاسلامية . ولكن العباسيين استطاعوا أن يحوّلوا التيّار المعادي للامويين ، في الشرق ، لمصلحتهم . وكان جدّهم ، عبدالله ابن عباس ، وهو ابن عمّ الرسول وعليّ ، قد سالمَ معاويةَ بعد مصرع عليّ فألحقه ببيت المال في البصرة . وإذ لم يجد سبيلاً إلى تمثيل دور سياسيّ ما صرَف همته الى الحديث يدرسه ويتزيّد فيه بالخيال الطيّاش والاستمداد من القصص التلمودي الذي قرّبه اليه نفرٌ من اليهود الداخلين في الاسلام . وفي خلافة عبد الملك قصد ابنه عليّ إلى دمشق ، حتى اذا توفي الوليد أقام في الحُمَيْمة ، على طريق الحاج الشامي ، ليموت هناك عن سنّ عالية سنة ٧٣٦ ، وكان ابنه محمد قد تصدّر لأمامة الشيعة ، في حياة أبيه ، ليُدلي بالأمر من بعده الى ابنه إبراهيم . ولقد وجّها رُسُلهما الى الجزء الشرقي من الامبراطورية ، حيث بثّوا الدعوة لهما فترةً من الزمن غير قصيرة ، حتى اذا كانت سنة ٧٤٦ وجّه إبراهيم أبا مسلم عبدالرحمن بن مسلم ، الفارسي الأصل ، الى خُراسان ، وكان الدعاة قد مهّدوا له سبيل العمل فيها أحسنَ تمهيد. واستهلّ ابومسلم نشاطه في المقاطعة التي كانت تنزلها خُزاعة ، وهناك خطبَ ، لأول مرّة ، لبني العباس . وإذ كان احد الزعماء لا يزال يعترض سبيله في تلك الديار ، فقد غادرها الى الماخُوان حيث جنح الى الاستئثار بالسلطة مثيراً بذلك مخاوف العرب وشكوكهم ، فسعوا الى الاجتماع عليه ،

ولكن الاحقاد القبلية التي كانت تمزّق شملهم، وشمل العرب في قلب الامبراطورية، حالت دون اتحادهم في وجه العدو المشترك. ليس هذا فحسب. بل لقد انضوى تحت لوائه فريق من عرب الجنوب. وكان أتباع ابي مسلم، وكثرتهم الكاثرة من الفلاحين الفرس، قد عاهدوه على كتاب الله وسنة نبيّه، بان يدينوا بالطاعة لأيما عضو من آل الرسول ينعقد عليه الرأي. ثم إن ابا مسلم ذهب الى أبعد من هـذا فألزمَ جنده، على الخصوص، بان يطيعوا قوادهم طاعة عمياء، من غير قيـد ولا شرط. ويقال إنه أول من اجتذب الى الاسلام نبلاء الفرس أصحاب الاملاك (الدهاقين) في خراسان؛ ولكن دعايته كانت قائمة على أساس من المعتقدات الايرانية ايضاً؛ فقد زعموا أنه قال بتناسخ الارواح وادعى ان روح الله قـد تجسدت فيه [٥٠].

والحق ان تفرق كلمة العرب ساعد أبا مسلم على احتلال مرو، مركز الواحة الخصيبة من وادي المرغاب. ومن هناك نشط لقتال أمير نيسابور، نصر بن سيار، وبذلك نشبت الحرب التي آلت بعدُ الى سقوط الامـبراطورية الاموية. ولكن أبا مسلم لم ينهض هو نفسه بعبء الهجوم الاول، وانما الذي نهض به قحطبة بن صالح الطائي الذي كان أحد نُقباء الحزب العباسي الاثني عشر في خراسان

(٥٠) كان مريده هاشم المقنع يزعم انه ـ اي ابا مسلم ـ آخر تجسد للذات الالهية قبل المقنع نفسه. راجع بارتولد W. Barthold في الموسوعة الاسلامية ج ١ ص ١٠١. نقلا عن النرشخي، تاريخ بخارى ـ طبعه شيفر Sehefer ص ٦٤ وما بعدها.

منذ سنة ٧١٨ ، والذي عقد له ابراهيم ، في مكة سنة ٧٤٧ ، لواءً أسود وعينه نائباً له. فلما سار قحطبة الى خراسان هزم ابن نصر بن سيار في طوس ، وفر نصرٌ نفسه الى جرجان . وفي حزيران سنة ٧٤٨ دخل ابو مسلم نيسابور . وكان أمير العراق ، يزيد بن هبيرة ، قد لبى نداء نصر فوجّه الى جرجان جيشاً لنجدته ، فالتقاه قحطبة وهزمه في غرة آب سنة ٨٤٨ . ووافت المنيّة نصراً ، فيما كان يفر بنفسه من مكان إلى مكان. فانضمت فلول جيشه الى بقايا الجيش السوري في نهاوند بفارس حيث حاصرهم الحسن بن قحطبة . ثم ان جيشاً سورياً ضخماً هرع لنجدة المحاصرين ، بقيادة عامر المُريّ أمير كرمان ، ولكن قحطبة هزمه قرب إصفهان ، في ١٨ آذار سنة ٧٤٩ . حتى إذا انقضت شهور على حصار نهاوند وافق السوريون المحاصرون على الاستسلام غير عابئين بأهل خراسان الذين أهلِكوا بعد ذلك في غير ما رحمة ولا استبقاء .

استيلاؤهم على العراق

ومن نهاوند سار قحطبة الى العراق . ولقد حاول بادىء الأمر ان يجتنب الاصطدام بامير هذه البلاد ، الذي توجّه لقتاله عبر دجلة ، فقصد الى الكوفة في الحال . حتى إذا لحق به يزيد بن هبيرة هاجم قحطبةُ معسكره في ٢٧ آب سنة ٧٤٩ قرب الأنبار واكرهه على التراجع الى واسط. وفي هذه الموقعة الليلية غرق قحطبة أو قُتل. ولكن ابنه الحسن ، الذي سبق له أن مثّل دور القائد المستقل حقاً ، ما لبث ان وليَ إمرة الجيش من بعده ، دونما حادث ، فوفق الى احتلال الكوفة .

وكانت هذه المدينة مركز الحركة العباسية منذ زمن طويل. وكان ابو سلمة [الخلاّل] ، « وزير آل محمد » يتولى شؤون الدعوة فيها سراً ، ويتصل من طريق رسله بابي مسلم اتصالا دائماً . فلما تم للحسن الاستيلاء عليها كشف ابو سلمة النقاب عن وجهه، وصارت أمور المدينة اليه . وكان رأس البيت الهاشمي قد اعتقل في الحميمة قبيل ذلك ، بامر من الخليفة مروان، ثم سيق الى حرّان ، بعد أن نصح اهل بيته بالالتجاء الى الكوفة، وأوصى الى اخيه ابي العباس . وفي تشرين الاول سنة ٧٤٩ وصل اربعة عشر عباسياً الى الكوفة.

وكان الوزير ابو سلمة — الذي لم يعاهد ابراهيم الا على اساس شخصي — غير راغب في أن ينزل عند حكمهم ، في سهولة ويسر ، فسعى إلى أن يبقيهم في معزل عن اهل خراسان. وتذهب الروايات إلى حدّ القول إنه شرع في مفاوضة العلويين على أن تكون الخلافة فيهم ، ولكن هؤلاء العلويين أعوزهم ، هذه المرة ايضاً ، رجلٌ حازم يستطيعون تقديمه لزعامتهم . ثم ان ممثلاً لابي مسلم قصد ابا العباس على رأس وفدٍ يتألف من اثني عشر رجلاً من زعماء الخراسانيين ، وسلموا عليه بالخلافة ؛ فاضطر ابو سلمة بعد ذلك الى أن يقلع عن معارضته . وفي ٢٨ تشرين الثاني سنة ٧٤٩ بايع الناس لابي العباس بالخلافة في مسجد الكوفة . فارتقى المنبر وخطبهم للمرة الاولى، ولكن حمّى داهمته فيما هو يخطب، فاضطر إلى أن ينقطع عن الكلام ليتابع عمه داود التحدث باسمه . ولقد حاول في خطبته أن يحتج بكلام الله على أن بيته احق بالخلافة من العلويين، مؤكداً بخاصة على فضل اهل خراسان في تحرير العراق من نير

السوريين البغيض . وعلى ايّ حال ، فالحق ان الخليفة لم يستشعر الطمأنينة كلها في الكوفة فخرج مع ابي سلمة الى معسكر الخراسانيين ، ليفارقه بعد قاصداً الى الحيرة . وما هي إلا فترة قصيرة حتى تخلص من ابي سلمة ، الذي صُرع بيد احد اصدقاء ابي مسلم المقرّبين .

وكان قحطبة قدعين [أبا] عون الأزدي قائداً على الجيوش العامة في دجلة الأعلى . فلما سقطت الكوفة اضطرّ الى ان يتخلى عن القيادة لعبدالله بن عليّ العباسي . وتوجه مروان لمقاتلة اهل خراسان فالتقى الفريقان على الضفة اليسرى من الزاب الأكبر حيث دارت المعركة بينهما تسعة أيام ، لتنتهي بهزيمة مروان . وتعقّب اهل خراسان آخرَ خلفاء بني أمية إلى حرّان ، ودمشق ، حتى ثغر الفَرَماء على الشاطىء المصري . والقت جميع المدن السورية السلاح مستسلمة للسلطان الجديد دونما معارضة ، ولم يقاوم فترة من الزمان غير دمشق وحدها . ثم ان مروان قُتل في معركة اخيرة وقعت عند بوصير ، في مصر السفلى ، في النصف الاول من شهر آب سنة ٧٥٠ .

نهاية الامويين

اما معقل الامويين الاخير ، وهو مدينة واسط التي انشأها الحجاج على مستنقعات دجلة ، فثبتت احد عشر شهراً أخرى على الرغم من الشقاق بين القيسية واليمنية من سكانها المحاصرين . والواقع أن العامل يزيد بن هُبَيرة لم يفاوض جند العباسيين [في الصلح] إلا بعد أن جاءه نعي مروان . ومهما يكن من شيء فقد نقض العباسيون الشروط التي اتفق عليها الفريقان بعد اربعين

يوماً من المفاوضة ، والتي أقرّهـــا ابو العباس بنفسه ، ففتكوا بالاسرى من الضباط الامويين ، وفيهم يزيد بن هبيرة نفسه .

وتعقّب العباسيون البيت الامـويّ المنقوّض في وحشية لم يُسمع بمثلها من قبل . ففي بلاد الشام كان رجالهم يتصيدون افراد هـذا البيت ويبيدونهم كالوحوش الضارية . ولم تسلم من انتقامهم قبور الخلفاء نفسها ، فانتهكوا حرمتها جميعاً ، خلا قبرَي معاوية وعمر بن عبد العزيز . ولم يُوفق الى النجاة من بطش العباسيين أحد من أفراد الاسرة الاموية غير [عبد الرحمن الداخل] ، احد حفدة الخليفة هشام ، الذي فرّ الى الاندلس ليؤسس فيها امبراطورية جديدة .

وفي الحق ان السوريين لم يبالوا باديء الأمر بسقوط البيت الاموي الذي يدينون له بشيء كثير ، لمـا كانوا يستشعرون من كراهية لمروان بن محمد . ولكن حرب الافناء الوحشية التي انساق العباسيون في تيارها الجارف لم تلبث ان أحدثت رجعاً سيئاً في نفوس السوريين . ففي قنسرين ثارت القيسية بزعامة ابي محمد السفياني . ولكن جند العباسيين بدد شملهم في تموز سنة ٧٥٢ فلاذ ابو محمد بالفرار ليقع في أيدي الجلادين العباسيين في الحجاز . والواقع ان أتباعه أبوا أن يصدقوا وفاته ، فظلوا يترقبون عودته ، كما يترقبون عودة المسيح ، ليجدد لسورية ايام الامبراطورية الخالية . وإذ قد خابت آمالهم في تحقيق هذه الأمنية فقد اضمحلّت فكرة السفياني لتنطوي في ثنايا العقيدة الاسلامية في ما يتصل بالمسيح الدجال . أما البقيـة الباقية من الفرق الموالية للامويين — هذه الفرق التي تجمع الاماني السياسية

الى الآمال الدينية ، كما يفعل الشيعة – فتتمثل اليوم في اليزيدية الاكراد الذين يعيشون في جبل سنجار، حول الموصل ، وينتشرون شمالاً حتى بلاد القبق الداخلية [٥١] .

وبسقوط الامويين خسر العرب عموماً ، لا السوريون وحدهم، السيادة المطلقة في الاسلام . فما هي إلا فترة وجيزة حتى ارتدت جزيرتهم الى سابق عهدها من التأخر الكلي . ولقد انتهى الداخلون في الاسلام من الاعاجم الى ان يصبحوا مساوين للعرب ، بعد ان كانوا يعاملون كمسلمين من الدرجة الثانية . وإذ كان العباسيون مدينين بالنصر للشرق الايراني ، وإذ كان تنظيم الخراسانيين العسكري قد ضمن لهم نصيبهم من النصر ، فقد رجحت كفة الفرس في الاسلام بعيد قيام الدولة الجديدة ، وان لم يستطيعوا ان يقهروا ، نهائياً ، العنصر العربي الذي ظل افراده يشغلون مراكز رفيعة في الادارة والجيش ، ويجدون سناداً قوياً في السلالة الهاشمية الحاكمة ، على كل حال . ومن هنا احتفظت العربية ، في الامبراطورية الجديدة بسلطانها المطلق في المعاملات الرسمية، وفي مجمل الحياة الفكرية ، وفي الدين فوق كل شيء .

---

(٥١) لقد اظهر جويدي M . Guidi الصلات التي تربط اليزيدية بالغلاة من مؤيدي الامويين ، هذه الصلات التي أغفلها جمهور الباحثين من قبل ، معتمداً في ذلك على م . تيمور . انظر : *Rivista di Studi orientali*, *XIII*, 1932 . 266-300

فهرست الاعلام

الآراميون ١٣، ٢١، ٢٩، ١٠٨، ١١٧، ١٥٩، ١٧٦
الآريون ١٠٧
آسرحدون ٢٠
آسية ١٠
آسية الصغرى ١٢، ٣٢، ٨٧، ١٢٠، ١٥١، ١٦٤، ١٨١، ١٨٣
آمنة ٣٥
آمودريا ١٦٤
ابراهيم (النبي) ٥٥، ٦٨، ٨٣، ٩١
ابرهة ١٤، ١٥، ٤٨
ابرويز ١٠٤
الابناء ١٠٦
الاتراك ٩٢، ١٠٨، ١٢٨، ١٦٤، ١٧٥، ١٨٧، ١٩٣
أجأ ١١
اجنادين ١١١
احد ٥٨، ٥٩، ٦٦
الاحوص ١٤٠
الاخطل ١٦٣، ١٧٨، ١٩٤
الاخيمينيون ٢٠، ١٢٤
ادوم (بلاد) ١٤٢
اذرح ١٤٢
اذينة ٢٢
أربد (أو ازبد) ١٨٤
اربونة ١٨١
الأردن، شرقي ٢٣، ٣٦، ٦٨، ١١١، ١١٢، ١٥٧، ١٨٤
الأردن، نهر ١١٢، ١١٣
الارساكيون ١٠٧، ١٠٩
ارطيون ١١٢
اركاديوس ١٧٠
الأرمن ١١٣
ارمينية ١١٨، ١٣٤، ١٥١، ١٩٧
« أرواد » ١٥١
الازارقة ١٧٤
الأزدي، ابو عون ٢٠٥
اسامة ١٠٠

اسبانية ٢٢، ١٦٨، ١٩١، ١٩٢
اسد ، بنو ٧٨، ١٠٠
اسرائيل ٢٦، ٨٦
الاسكندر ٢٠، ٤٣
الاسكندرية ٦٨، ١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٩٣
اسماعيل (النبي) ٥٥، ٩٠
الاسود العنسي ١٠٥
اشبيلية ١٦٨
الأشتر ، ابراهيم بن ١٦٠
الاشتر ، مالك ١٣٥، ١٤٢
الاشعث ، ابن ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦
الاشعري ، ابو موسى ١٤٢
اشور ٢٠
اصطخر ١٢٤، ١٩٩
اصفهان ١٢٣، ١٩٩، ٢٠٣
الاطلس ١٥٢
الاعشى ٣٢، ٧٤
افريقية ١٠، ١٢، ١٢٨، ١٥٢، ١٦٨، ١٩٢، ١٩٣
افريقية ، شمالي ١٥٢، ١٦٣، ١٦٧
الافلاج ، واحة ١١
اقيتانيـــة ١٩١
أكبتنا ١٢٣
الاكراد ٢٠٧
اليس ٢١٠
امرؤ القيس (الشاعر) ٢٨، ٣٢
امرؤ القيس (الملك) ٢٣
أمية ٣٤، ١٥٥، ١٨١، ١٨٤، ٢٠٥
الامويون ٦٣، ١١٦، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٤١، ١٤٥ — ١٤٨، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٩، ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠١، ٢٠٥ — ٢٠٧
الأنبار ٢٠٣
الانباط ١٩ — ٢١
الاندلس ١٦٧، ١٩١، ١٩٢، ٢٠٦
الانصار ٤٧، ٥٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٢٧، ١٥٥
انطاكية ١١٢
انقرة ٣٢
انو شروان ، الاول ١٥، ١١٩
اوراس (جبال) ١٥٣
اوريليانوس ٢٢
اوربولة ١٦٨
الاوس ٤٧، ٤٨، ٥٠، ١٠٥، ١٢٧
الاوستارزيون ١٩١
اوطاس ٧١
اوغوسطوس ١٤، ٢٢
ايران ١١٦، ١٢٤، ١٦٤
الايرانيون ١٠٨، ١٦٤
ايطالية ١٢٠
أيلة (العقبة) ٧٦، ١٨١
ايليوس جالوس ١٤
بابل ٢٤، ١٠٨

بابليون ١١٩، ١٢٠
البابليون ١٣
البارثيون ٢٢
بالس ١٤١
البتراء — انظر سلع
بجدل ، حسان بن ١٥٧
البحر الاحمر ٧٦
البحر المتوسط ١٢، ٨٧
البحر الميت ٦٩، ١٨٦
البحرين ١٠٣، ١٤٦
بخارى ١٦٦
البخراء ١٩٦
بدر ٥٧، ٥٨
البرانس (جبال) ١٨١
البربر ١٥٢، ١٥٣، ١٦٧، ١٩١، ١٩٣
البردة ٧٥
برغاموس ١٧٩
برسيبولس ١٢٤
برشن ، فان ١٨٧
برقة ١٥٢
برلين ١٨٥
بسكرة ١٥٣
بشر ، بلج بن ١٩٢
البصرة ١٢٩، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٥ — ١٤٧، ١٦٠، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٣، ٢٠١
بصرى ٣٦، ٦٨
بعلبك ١٩٨
بغداد ٧٥، ١٤٤، ١٥٤، ١٦١، ١٧٧
بكر ، ابو ٤١، ٤٤، ٤٩، ٥٠، ٧٦، ٧٨، ٩٨ — ١٠٠، ١٠٤، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٣، ١٢٦، ١٣٥
بكة ، وادي ١٦٧
البلقاء ١١١، ١٥٦، ١٨٤
البلقان ١٢٨
بلوخستان ١٦٧
بهرام الاول ١٠٨
بواتييه ١٩١
البوذية ١٠٨
بوصير ٢٠٥
البويب ١١٤
بيت لهيل ٢٥
بيت جبرين ١١١
بيزنطة ١٤، ٢٨، ٧٦، ١٠٦ — ١٠٨، ١١٢، ١١٩، ١٥١، ١٧٢، ١٧٣، ١٩١
البيزنطيون ٢٢، ٢٣، ٤٥، ٦٣، ٦٦، ٦٨، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٩٩، ١١١ — ١١٣، ١١٩ — ١٢١، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦٢، ١٧٢، ١٧٩، ١٩١، ١٩٦
بيسان ١١٢

تبوك ٧٥، ٧٦
تدمر ٢١، ٢٢، ١٥٦، ١٧٠، ١٩٦
تدمير ١٦٨
ترايان ٢١، ١٧٠
تركستان ١٨٧
تغلاثفالاسر الثالث ٢٠
تغلب ١٠١، ١٦٣
تميم ١٠١، ١٠٢، ١٤٣، ١٧٨
تهامة ١٠، ١٠٤
تهوذا ١٥٣
توذر ١١٣
تور ١٩١
التوراة ٨٢، ٩٤
توما (القديس) ١٨١
توماس، برترام ١١
تيرش ، هـ. ١٧٢
تيماء ١١، ٢٠، ٢٩
ثابت ، حسان بن ٦٨، ٧٤
ثابت ، زيد بن ١٣٤
الثقفي ، ابو عبيد ١١٤
ثقيف ، بنو ٤٦، ٥٨، ٧١، ٧٣
ثمود ٤٤
ثمودوروس ٦٩، ١١٩
الجابية ١١٦، ١٣٠، ١٥٧
الجاثليق، دير ١٦١
الجامع الأموي ١٦٨
الجبال ١١٦، ١٢٤، ١٩٨
جبريل ٤٠، ٤٩، ٨٣، ٩١، ١٥٩
الجراح ، ابو عبيدة بن ٩٩، ١١٢، ١١٨، ١٢٦، ١٣١
جرجان ٢٠٣
جرونة ، نهر ١٩١
جرير ١٧٧، ١٧٨، ١٨٠، ١٩٤
الجزيرة ١١٧، ١١٨، ١٤٥، ١٥٦، ١٨٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠
جفنة (آل) ١٤٨
الجلندى ١٠٤
جلولاء ١١٦
جماية ، اثناسيوس بار ١٦٣
جمرة العقبة ٩١، ٩٢
الجوف ٢٠
الجولان ١١٦
جيحون ، نهر ١٦٤
جيرفت ١٧٤
الحارث الخامس ٢٣
الحارث ، ابو ٧٣
الحارث ، زفر بن ١٥٧، ١٥٨
حارثة ، زيد بن ٦٨، ٦٩
حارثة ، المثنى بن ١١٠
الحبشة ١٤، ٤٩، ١٨٧
الحجاز ١٠، ١٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣، ٤٧، ١٥٠، ١٥٥، ١٦١، ١٨٠، ٢٠٦
الحجاج ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٣ـ١٧٨، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٩، ١٩٤،

١٩٩، ٢٥٠
الحجر الاسود ٢٥، ٣٣، ٧٠
الحديبية ٦٣ـ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٨٠
الحديث النبوي ١٣٩، ١٤٠، ٢٠١
حديج ، ابن ١٥٢
حديقة الموت ١٠٢
حذيفة ، محمد بن ابي ١٣٥
حراء ، غار ٣٩
حران ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٤، ٢٠٥
الحرانيون ٥٥
الحرشي ، النضر بن سعيد ١٩٩
حروراء ١٤٣، ١٤٤
حسنة ، شرحبيل بن ١١١
الحضر ١١٧
حضرموت ١٠٤ـ١٠٦
الحضرمي ، العلاء ١٠٣
حفصة ١٢٦، ١٣٤
الحكم، مروان بن ١٥٥ـ١٥٨، ١٩٦
حلب ١٨٣
حلوان ١١٦، ١٢٢، ١٢٣
الحمار ، ذو ـ انظر عبهلة .
حمار ، بو ١٠٥
حمرين ، جبل ١١٦
حمص ١١٢، ١١٣، ١١٨، ١٥٧، ١٩٨
الحميريون ١٤
الحميمة ٢٠١، ٢٠٤
الحنفية ، محمد بن ١٥٩
حنظلة ، بنو ١٠١، ١٠٢
حنيفة، بنو ٧٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣
حنين ، موقعة ٧١، ٧٢، ٧٦
حوران ١١٣
الحيرة ٢٤، ٢٧، ٣٠، ١١٠، ١١٣، ١١٤، ١٦٣، ١٦٩، ١٩٥، ٢٠٥
حيوة ، رجاء بن ١٨٠
خازر ١٦٠
خديجة ٣٥، ٣٦، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٦٨
خراسان ١٢٤، ١٤٧، ١٦٤، ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ١٨٣، ١٩٩ـ٢٠٥
الخراساني، ابو مسلم ١٩٩، ٢٠١ـ٢٠٥
خزاعة ٢٠١
الخزرج ٤٧ـ٥١، ٥٨، ٥٩، ١٢٧
الخطاب ، عمر بن ٤٥، ٥١، ٧٩، ٩٩، ١٠٣، ١١٣، ١١٤، ١١٦ـ١٢٠، ١٢٢، ١٢٥ـ١٢٧، ١٣٠ـ١٣٤، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٩، ١٨٠ـ١٨٢
خلكي ، معبد ١٧٢
خلكيدون ١٥١
الخلال ، ابو سلمة ٢٠٤، ٢٠٥
الخندق ، وقعة ٦٢
الخوارج ١٤٣، ١٤٦، ١٦٠، ١٦١، ١٧٣، ١٩٢، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠

خوزستان ١٧٤، ١٩٩
خيبر ١١، ٢٩، ٦٠، ٦٥
دابق ١٧٩، ١٨٠
الداخل ، عبدالرحمن ٢٠٦
داسية ٢٢
الدانوب ، نهر ٢١
داهر ١٨٧
دجلة ١١، ١٤٤، ١٦١، ١٧٧، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥
دجيل ، نهر ١٧٥
دمشق ٢٣، ٧٥، ١١١، ١١٢، ١١٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٨، ١٨١، ١٩٠، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥
الدواسر ، وادي ١١
دوردوني ، نهر ١٩١
ديالى ، نهر ١١٦
دير الجماجم ١٧٦
رأس العين ١١٨
الراسبي ، عبدالله ١٤٣، ١٤٤
راهط ، مرج ١٥٧
الراين ، نهر ٢١
ربض اقرن ١٩١
الربع الخالي ١١
ربيعة ، عمر بن ابي ١٩٥
ربيعة (قبائل) ١٩٩
رستم ١١٤
الرصافة ١٨٩، ١٩٨
الرقة ١٤١
رقية ٤٥
الرملة ١١١، ١٧٩
الرمة ، وادي ١١
الرهاء ١١٧، ١٦٣
الروم ٦٩، ٧٦، ١١٣، ١٨٠
الرومان ٢١ـ٢٤، ١١٢، ١٧٠
رومة ٢٢، ١٠٧، ١٧٢
الزاب ٢٠٥
الزارة ١٠٣
الزبير ، عبدالله بن ١٣٨، ١٥٣ـ١٥٩، ١٦١، ١٦٩
الزبير ، مصعب بن ١٥٨ـ١٦١، ١٧٤، ١٧٨
زرادشت ٩٣
الزرادشتية ١٠٩
الزرادشتيون ١٠٨
الزرفشان ، نهر ١٦٦
زمزم ، بئر ٣٤، ٩٠
زنوبيا ٢٢
زهرة ، بنو ٦٥
زهير بن ابي سلمى ٣٢، ٧٤
زهير ، بجير بن ٧٥
زهير ، كعب بن ٧٤، ٧٥
زياد ابن ابيه ١٤٦، ١٤٧، ١٦٢، ١٨٩
زياد ، طارق بن ١٦٧، ١٦٨
زياد ، عبيدالله بن ١٥٣، ١٥٤، ١٦٠

زيد ، اسامة بن ٧٨
زيد ، عدي بن ٢٨، ١٩٥
الزيدية ١٩٠، ١٩٨
سابور الاول ٢٣، ١٠٨
سابور الثاني ١٠٨
ساردس ١٧٩
الساسانيون ١٠٧–١١٠، ١٤٦، ١٦٩
السامية ١٣
الساميون ١٣، ٢٧
سبأ ١٤
سبتيموس ، يوليوس اوريليانس ٢٢
سجاح ١٠١، ١٠٢
سجستان ١٧٥، ١٧٦
السراة ، جبال ١٠
سرح ، عبدالله بن سعد بن ابي ١٣٥، ١٣٦، ١٥٢
سرحان ، وادي ١١
سرقسطة ١٦٨
سعيد (عامل الكوفة) ١٣٥
سفيان ، ابو ٥٧، ٦١، ٧٠، ١٣٢، ١٤٧
سفيان ، معاوية بن ابي ٧٥، ١٢٠. ١٣٢، ١٣٧، ١٤١–١٤٥، ١٤٧–١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٩، ٢٠١، ٢٠٦
سفيان ، يزيد بن ابي ١١١، ١٣٢
السفياني ، ابو محمد ٢٠٦
سفيروس، اسرة ٢٢
سفيروس ، الكسندر ٢٢
سلع ٢٠، ١٤٢
سلمان الفارسي ٦١
سليمان ، ايوب بن ١٨٠
سمرقند ١٦٤
سمية (ام زياد) ١٤٦
السنة النبوية ١٣٩، ١٤٠
سنجار ، جبل ٢٠٧
السند ١٦٧، ١٨٧
سورية ١٣، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٤٥، ١١٢، ١١٥، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٨، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٣، ١٦٨، ١٧٣، ١٧٩، ١٩٤–١٩٨، ٢٠٠، ٢٠٦
السوريون ١١٨، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٨، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧
السومريون ١٣
سيناء، شبه جزيرة ٣٠
سيار ، نصر بن ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣
الشام ٨٧، ١١١، ١١٦، ١٣٤، ١٤١، ١٤٤، ١٤٨، ١٥١، ١٥٦، ١٧٦، ٢٠٦
الشام ، بادية ١١، ١٩
شبيب الشيباني ١٧٤
شذونة ١٦٧

الشراة (ادوم) ١٤٢
الشرق الادنى ١٢، ١٣، ١٠٧، ١٠٨، ١٤٠
شعبة، المغيرة بن ٧٣، ١٣١، ١٤٥، ١٤٧
الشعوبية ١٥٤
شعيب، النبي (جبل) ١٠
شمر، جبل ١١
الشيباني، الضحاك بن قيس ١٥٧، ١٩٩
الشيعة ١٤٦، ١٥٤، ١٦٠، ٢٠١، ٢٠٧
صالح (النبي) ٤٤
صالح، قحطبه بن ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥
الصفانيان، نهر ١٦٦
الصغد، بلاد ١٦٦
الصغد، نهر ١٦٦
الصفا ٩٠
الصفة، اهل ٥١
صفرة، المهلب بن ابي ١٧٤
صفين، معركة ١٤١، ١٤٣
الصقر، جبال ١١٦
صقلية ١٥٢
الصلت، امية بن ابي ٣٩
صنعاء ١٠، ١٠٦
الصواري، ذات ١٣٥
الصين ١٨٧
الصينيون ١٦٤
ضبارة، عامر بن ١٩٩
الطائف ١٩، ٢٧، ٣٩، ٤٦، ٥٨، ٧١ـ٧٣، ١٣٢، ١٤٦، ١٦١، ١٧٧
طارق، جبل ١٦٧
طالب، ابو ٣٥، ٤٥، ٤٦
طالب، جعفر بن ابي ١٩٨
طالب، علي بن ابي ٤١، ٦٣، ٧٦، ٩٨، ١٣١، ١٣٥، ١٣٧ — ١٣٩، ١٤١ـ١٤٧، ١٥١، ١٥٩، ١٦٠، ١٨١، ١٩٨، ٢٠١
طبرستان ١٢٤، ١٧٤
طبرية، بحيرة ١١٣
طرابلس الغرب ١٤٤، ١٥٢
طفيل، القاسم بن ١٩٥
طلحة ١٣١، ١٣٧ — ١٣٩
طليطلة ١٦٨
طوانة ١٦٤
طوس ٢٠٣
طيطوس ٢١
عائشة ٦٢، ٦٣، ٧٨، ٧٩، ٩٨، ٩٩، ١٣٣، ١٣٧ — ١٣٩
العاص، عمرو بن ٦٦، ٦٩، ١١١، ١١٩ـ١٢١، ١٣٥، ١٤٢، ١٤٤، ١٥٢
عامر، ابن ١٣٨
العباس ٥٠، ٦٦، ٧٠
العباس، ابو ٢٠٤، ٢٠٦

عباس ، عبدالله بن ١٤٥، ٢٠١
عباس ، علي بن عبدالله بن ٢٠١
العباسيون ٦٣، ١٧٧، ١٩٣، ١٩٥،
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥ — ٢٠٧
عبد الحكم ، مروان بن ١٣٢
عبد الحميد (السلطان) ١٨٥
عبدالعزيز ، عبدالله بن عمر بن ١٩٨، ١٩٩
عبد العزيز ، عمر بن ١٨٠، ١٨٢ —
١٨٤، ٢٠٦
عبد المسيح ٧٣
عبد المطلب ٣٥
عبد المطلب ، عبدالله بن ٣٥
عبدالملك ، سليمان بن ١٦٦، ١٧٨ — ١٨٠
عبدالملك ، عبد الله بن ١٧٦
عبدالملك ، محمد بن ١٧٦
عبدالملك ، مسلمة بن ١٨٣
عبدالملك ، هشام بن ١٨٩، ١٩١،
١٩٣ — ١٩٥، ٢٠٦
عبدالملك ، الوليد بن ١٦٤، ١٦٦ —
١٦٨، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧،
١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٧، ٢٠١
عبدالملك ، يزيد بن ١٨٣، ١٨٩
عبد يغوث ، قيس بن ١٠٦
عبهلة ١٠٥، ١٠٦
عدن ، جنة ٨٥
عدي ، عمرو بن ٢٣
العراق ١٣، ٢٣، ٥٥، ١٠١، ١١١،
١١٤ — ١١٧، ١٢٩، ١٣٤،
١٣٨، ١٣٩، ١٤٢ — ١٤٥ —
١٤٨، ١٥٣، ١٥٦ — ١٦٤،
١٦٩، ١٧٣ — ١٨١، ١٨٣،
١٨٤، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢،
١٩٤، ١٩٥، ١٩٧ — ٢٠٠،
٢٠٣، ٢٠٤
العراقيون ١٤٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٧٦،
العرب ١٢، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٣ —
٢٧، ٣٠، ٤٧، ٥٨، ٦١، ٧٣
١١٥، ١١٨ — ١٢١، ١٢٣،
١٤٢، ١٤٨ — ١٥٣، ١٥٩،
١٦٢، ١٦٤، ١٦٧، ١٧٤،
١٨١، ١٩١ — ١٩٥، ٢٠١،
٢٠٢، ٢٠٧
العرب ، بلاد ١٠، ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٨،
٢٩، ٤٧، ٥٥، ٦٨، ٧٣، ٧٤،
٧٧، ٧٨، ٨٠، ١٠٢، ١٣٩،
١٨٩
العرب الجنوبية ، بلاد ١٣ — ١٥، ٢٠،
٤٤، ١٠٥،
العرب الشمالية ، بلاد ١٥، ٧٣
العرب ، جزيرة ١٠، ١٢، ١٣، ٤٧،
٩٩، ١٢٨، ١٩٤، ١٩٥،
٢٠٧
العرب اليمنيون ١٣، ١٨٣، ٢٠٢، ٢٠٥
العربية ، المقاطعة ٢١
عرفات ، جبل ٣٤، ٩١
العزى ٢٧، ٣٣

عزرائيل ١٨٩
عشتروت ٢٨
عفان ، عثمان بن ٤٥ ، ٦٤ ، ١٢١ ، ١٣١ـ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٧ ، ١٩٦
العقبة (أيلة) ٧٦
العقبة (بين منى ومكة) ٤٩
العقبة ، خليج ١٨١
عقبة (امير الاندلس) ١٩٢
عقبة ، مسلم بن ١٥٥
العقر ١٨٣
عقربة ١٠٢
عقيل ، مسلم بن ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩
عكاظ ٢٦
عكرمة ١٠٢ ، ١٠٤
العلويون ١٥٩ ، ١٨١ ، ١٩٨ ، ٢٠٤
علي ، الحسن بن ١٣٩ ، ١٤٥
علي ، الحسين بن ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠
علي ، زيد بن ١٩٠
علي ، عبد الله بن ٢٠٥
علي ، محمد بن ٢٠١
عمان (بضم العين) ١٠ ، ١١ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٤
عمر ، عبدالله بن ١٥٣
عمر ، يوسف بن ١٩٠
عمرة ، قصير ١٨٦
عمرو (الملك) ١٠٤
عمورية ١٧٩
عمواس ١١٨
العوام ، الزبير بن ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ـ ١٣٩
عوف ، عبد الرحمن بن ١٣١
عياض ، كلثوم بن ١٩٢
عين شمس ١١٩
الغافقي ، عبد الرحمن ١٩١ ، ١٩٢
الغال ، بلاد ٢٢ ، ١٩٢
غانم ، إياد بن ١١٨
غزة ٥٧
الغساسنة ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤
غطفان ٦٥ ، ١٠٠ ، ١٥٦
غلبينس ٢٢
الغنوستية ٥٥ ، ١٠٩
غورك (او غوزك) ١٦٦
الغوطة ١٥٦ ، ١٨١
فارس ، بلاد ١٠ ، ١٤ ، ٤٥ ، ٨٧ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣
فارس ، خليج ١٠ ، ١١ ، ١٠٣
فاسيس ١١٨
فاطمة ١٥٩ ، ١٩٤
الفجاءة ، قطري بن ١٧٤
فدك ٢٩ ، ٦٦ ، ١٨١
الفرات ١١ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥٤ ،

١٨٩،١٧٧،١٥٨
القرتيون ١٠٧،٢٢
فردريك ، القيصر ١٨٥
القرزدق ١٩٤،١٧٨
الفرس ١٥، ٢٢ـ٢٤، ٣٠، ٤٥،
٦٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٦ـ١٠٨،
١١٠، ١١٣ـ١١٥، ١٢٣،
١٢٤، ١٤٦، ١٥٤، ١٥٩،
١٧٣، ١٧٦، ١٩٣، ١٩٨،
٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٧
فرغانة ١٦٦
الفرماء ١١٩، ٢٠٥
الفرنتيرة ، شريش ١٦٧
الفرنجة ١٩١
فرنسة ٢٢، ١٨١، ١٩١
فريجية ١٩١
الفسطاط ١٢٠، ١٢٨، ١٦٩
فلسطين ١٣، ٣٠، ١١٠، ١١١،
١١٩، ١٥٨، ١٧٩
الفيرزان ١٢٣
فيروز ١٠٣، ١٠٩
فيشر ، اويغن ١٢
فيلبي ، سنجن ١١
الفينيقيون ١٣
الفيوم ١١٩
القادسية ١١٥
قار ، ذو ٢٤، ١٣٩
القاسم ، محمد بن ١٦٧
قاغان ، قابغان ١٦٤
قباء ٥٠
قباذ الاول ١٠٧، ١٠٩
قباذ الثاني ١٠٩
قبة الصخرة ١٧٠
قبرس ١٥٠، ١٨١، ١٩٣
القبط ١١٨، ١٢١
القبق (القوقاز) ١١٨، ١٩٧، ٢٠٧
قبيس ، ابو (جبل) ٣٣، ١٦١
قحطبة ، الحسن بن ٢٠٣، ٢٠٤
القدس ٤٩، ١٠٥، ١٠٧، ١١٧،
١٤٤، ١٦٩، ١٧٠، ١٩٨
القرآن ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٦، ٩٤،
١٣٤، ١٤٢، ١٥٩، ١٧٧
قرمونة ١٦٧
قرميسين (قرماسين) ١٢٣
قريش ٣٤، ٥٥، ٦١، ٦٥، ٦٩،
١٢٦، ١٢٧، ١٣٤، ١٥٥، ١٩٩
قريظة ، بنو ٤٨، ٦٠، ٦٢
قزوين ، بحر ١٢٤
القسري ، خالد بن عبدالله ١٨٩، ١٩٠
قسطنطين الثاني ١١٩، ١٣٦، ١٤٤،
١٥٠
القسطنطينية ١٥٠، ١٦٤، ١٧٩
قس الناطف ١١٤
قضاعة ١٥٦
قطام ١٤٤

القطيف ١٠٣
قنسرين ١١٨، ١٥٧، ١٩٨، ٢٠٦
القوط ١٦٧
القيروان ١٢٨، ١٥٢، ١٩٢، ١٩٣
قيس ، قبائل ١٥٦ـ١٥٨، ١٨٩، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦
قيسارية ١٥١
قينقاع ، بنو ٤٨، ٥٨
كبدوكية ١٥١
كربلاء ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٠
كرمان ١٧٤، ١٧٥، ١٨٣، ١٩٩، ٢٠٣
كسرى الثاني ٢٤، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠
كسكر ١٧٧
كسيلة ١٥٢
الكعبة ٢٥، ٢٧، ٣٣، ٣٤، ٦٣، ٧٠، ٧١، ٨٩ـ٩٢، ١٦١، ١٦٩، ١٩٥
كلب ١٤٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٩٤، ١٩٧
كلاب ٧٤
كندة ٢٨، ٣٢، ١٧٥
الكنعانيون ١٣
الكميت ١٩٤
الكهف ، اهل ٤٣
الكوفة ١١٥، ١٢٨، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٣ـ١٤٧، ١٥٤، ١٦٠، ١٦٢، ١٦٩، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٣، ١٩٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٣ـ٢٠٥
الكوفيون ١٤٦، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤
لبنان ١٩٧
اللات ٢٧، ٣٣، ٧٣
لبيد ٧٤
اللخميون ٢٣، ١١٠
لذريق ١٦٧، ١٨٦
لؤلؤة ، فيروز أبو ١٣١
اللومبارديون ١٢٠
لهب ، ابو ٤٦
لوار ، نهر ١٩١
الماخوان ٢٠١
مارتل ، شارل ١٩١
ماردة ١٦٨
مارية (القبطية) ٦٨
ماكورابا ٣٣
ماني ١٠٨، ١٠٩
المانوية ١٠٨
المانيون ٥٥
متشوي ١٦٤، ١٨٧
المثنى ١١٠، ١١٣، ١١٤
محمد ١٢، ٣٣ـ٣٥، ٣٩ـ٤٧، ٤٩ـ٥٨، ٦٠ـ٦٦، ٦٨ـ٩٠، ٩٣، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠١ـ١٠٣، ١٠٥، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٨، ١٢٥ـ١٢٨،

١٣١، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧،
١٣٩، ١٤٢، ١٦٤، ١٥٤،
١٥٩، ١٦٢، ١٦٦، ١٨٠،
١٩٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠١ —
٢٠٣
محمد، ابراهيم بن ٢٠١—٢٠٤
محمد، مروان بن ١٩٦—٢٠٠،
٢٠٤—٢٠٦
المختار الثقفي ١٥٩، ١٦٠، ١٧٣
مخزوم ٣٤، ١٩٥
المدائن ١٠٨، ١١٥، ١٥٩
المدينة ١٠، ١٨، ١٩، ٢٩، ٤٧—٥١،
٥٦، ٥٩—٦٤، ٦٨، ٦٩،
٧٢—٧٥، ٨٠، ٨٦، ٨٧،
٩٨، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥،
١٣٦—١٤١، ١٤٦، ١٥٤،
١٥٥، ١٦٣، ١٦٩، ١٧٨،
١٨٠، ١٨١، ١٨٤، ١٩٤
مر الظهران ٧٠
مراكش ١٠٥، ١٩٢
المري، عامر ٢٠٣
المري، عثمان ١٧٨
المرغاب، وادي ٢٠٢
مرمرا، بحر ١٥١
مرو ١٢٤، ١٦٦، ٢٠٢
مرو الشاذان ١٩٩
مروان، بشر بن ١٦٢
مروان، عبدالعزيز بن ١٥٨، ١٦٣،
١٦٤، ١٦٧، ١٧٧، ١٨٠
مروان، عبد الملك بن ١٥٨—١٦٤،
١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦—
١٧٩، ١٩٤—١٩٦، ٢٠١
المروة ٩٠
مزينة ٧٤
المسجد الاقصى ١٧٠
مسعود، عبدالله بن ١٣٤
مسقط ١٠٤
مسكن ١٧٦
مسلم، قتيبة بن ١٦٤، ١٦٦، ١٧٨
مسلمة (مسيلمة) ٧٨، ١٠٠—١٠٣،
١١٠
المسيح ٤٧، ٨٣، ١٠٥، ١١٧،
١١٨، ٢٠٦
المسيح الدجال ٢٠٦
المشتى، قصر ١٨٥، ١٨٦
مصر ١٤، ٦٦، ١١٨،
١٢٠، ١٢١، ١٢٨، ١٣٥،
١٣٦، ١٤١، ١٤٢، ١٤٤،
١٥٢، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣،
١٦٩، ١٨٤، ٢٠٥
مضر ١٥٦
معان ١٤٢
معاوية، عبدالله بن ١٩٨، ١٩٩
معاوية، يزيد بن ١٤٨، ١٥١—١٥٨،
١٦٣، ١٨٣
المعينيون ١٤

المقول ٧٥
مقرن ، النعمان بن ١٢٣
المقوقس ٦٦، ٦٨، ١١٨ـ١٢٠
مكة ١٥، ١٨، ١٩، ٢٥ـ٢٧، ٣٣ـ
٣٥، ٣٩، ٤٢، ٤٥ـ٤٧، ٤٩،
٥٠، ٥٧، ٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٩،
٧١ـ، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ٨٧،
٨٩ـ٩٢، ١٠٥، ١٣٧، ١٣٨،
١٤٠، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٧،
١٦١، ١٦٩، ١٨٤، ١٩٤،
١٩٥، ٢٠٣
ملجم ، عبدالرحمن بن ١٤٤
ملطية ١٥١، ١٩١
ممفيس ١١٩
مناة ٣٣
المناذرة ١٠٣، ١٩٥
منازة ١٩١
المنذر ٢٤
المنذر الخامس ١١٠
منصور ، سرجون بن ١٤٩، ١٦٨
منى ٧٦، ٩١
المهاجرون ٥١، ٥٥ـ٥٧، ٦٠، ٩٨،
١٠٢، ١٠٣، ١٢٦
المهلب ، يزيد بن ١٧٨، ١٧٩، ١٨٣
مؤاب — انظر البلقاء
الموالي ١٨١
مؤتة ٦٩، ٧٥، ٧٨، ٩٩
موزل ١٨٦
موسى (النبي) ٤٣
الموصل ١٧٤، ٢٠٠، ٢٠٧
الموقر ، قصر ١٨٩
ميسان ١٩٩
نائلة (زوج عثمان) ١٣٧
نافع ، عقبة بن ١٥٢، ١٥٣
نبرة (نافار) ١٦٨
نبونايدس ٢٠
النجاشي ٤٤، ٤٥
نجد ١١، ٣٢
نجران ١٤، ٧٣، ١٠٦، ١٨١
النساطرة ١٠٨
النصارى ٢٧، ٣٦، ٥٣، ٥٤، ٧٣، ٧٨،
٨٣، ٩٣، ١٠٥، ١١٧، ١٢٨،
١٥٢، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢،
١٧٤، ١٨١، ١٩١
النصرانية (المسيحية) ١٤، ٢٩، ٣٠،
٤٣، ٤٤، ٨١، ١٠١
نصيبين ٢٠٠
نصير ، موسى بن ١٦٧، ١٦٨
النضير ، بنو ٤٨، ٦٠
النعمان الثالث ٢٤
النفود ١١
النمارة ٢٣
نمير ، الحصين بن ١٥٥، ١٥٦
نهاوند ١٢٣، ٢٠٣
النهر ، ما وراء ١٦٦، ١٩٣
النهروان ١٤٤

نواس ،ذو ١٤
نوام ، نهر ١٩٢
نوبرة ، مالك بن ١٠٢
نيسابور ٢٠٢، ٢٠٣
النيل ١٢٠
هاشم ، بنو ٣٥، ١٣٢، ١٤٨
هبل ٣٣
هبيرة يزيد بن ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦
هجر ١٠٣
هذيل ٢٧
هرقل ٦٦، ١٠٧، ١١٢، ١١٨، ١١٩، ١٥٠
هشام ، سليمان بن ١٩٧، ١٩٨
همذان ١٢٣
الهند ١٠، ٨٧، ١٢٤، ١٦٧
الهندوكوش ١٦٤
الهندي ، جبل ٣٣
هوازن ٦٠، ٧١، ٧٤
الهون البيض ١٠٩
هونوريوس ١٧٠
هيرودوتوس ٢٧
وادي القرى ٦٦
واسط ١٧٦، ١٨٣، ١٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥
وقاص ، سعد بن ابي ٤١، ١١٤، ١١٦، ١٣١، ١٦٩
وقاص ، عمر بن سعد بن ابي ١٥٤
الوليد ، ابراهيم بن ١٩٧
الوليد ، خالد بن ٥٩، ٦٦، ٦٩، ٧٠، ١٠٠ـ١٠٣، ١١٠ـ١١٣، ١١٧
الوليد ، يزيد بن ١٩٦
وليم الثاني (القيصر) ١٨٥
يثرب — انظر المدنية
يربوع ، بنو ١٠٢
اليرموك ١١٣
يزدجرد ١١٠، ١١٤، ١١٦، ١٢٢ـ١٢٤
يزيد الثالث ١٩٦، ١٩٧
يزيد ، معاوية بن ١٥٦ـ١٥٨
يزيد ، الوليد بن ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨
اليزيدية ٢٠٧
اليمامة ١١، ١٠٢، ١٦٢
اليمان ، حذيفة بن ١٢٣
اليمن ٤٨، ٧٠، ٧٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٦٢، ١٩٠
اليهود ١٣، ١٥، ٢٧، ٢٩، ٣٦، ٤٧، ٤٨، ٥٢ـ٥٥، ٥٨، ٦٠، ٦٥، ٦٦، ٧٣، ٨٣، ٨٦، ٨٧، ٩٣، ١٠٥، ١١٧، ٢٠١
اليهودية الديانة ١٤، ٢٩، ٨١، ٨٦، ٨٨
يهوه ٢٥، ٢٦
يوحنا المعمدان ١٧٠
يوديس ١٩١
يوستنيانوس ٢٣، ١٧٠
يونس الفارسي ١٤٠

محتويات الكتاب

مقدمة الترجمة العربية

من مقدمة الأصل الألماني

بلاد العرب قبل الاسلام ١٠–٣٢

الجنس العربي ١٢ ـ حضارة بلاد العرب الجنوبية ١٣ ـ الاحوال الاجتماعية في شمالي الجزيرة ١٥ ـ مكة والمدينة ١٨ ـ سورية والانبـاط ١٩ ـ تدمر ٢١ ـ دولة الغساسنة ٢٢ ـ اللخميون ٢٣ ـ اليهودية والنصرانيـة ٢٩ ـ الشعر ٣٠

محمد الرسول ٣٣–٧٩

شباب النبي ٣٤ ـ زواجه ٣٥ ـ بعثته ٣٦ ـ المؤمنون السابقون ٤١ ـ الهجرة الى الحبشة ٤٤ ـ اسلام عمر ٤٥ ـ المدينـة ٤٧ ـ الهجرة ٥٠ ـ موقف النبي من اليهود ٥٢ ـ موقعة بدر ٥٧ ـ موقعة أحد ٥٨ ـ حصار المدينـة ٦١ ـ حديث الافك ٦٢ ـ الحديبية ٦٣ ـ العلاقات مع البيزنطيين في مصر وسورية ٦٦ ـ فتح مكة ٦٩ ـ موقعة حنين ٧١ ـ حصار الطائف ٧٢ ـ محمـد والشعراء ٧٣ ـ تبوك ٧٥ ـ حجة الوداع ٧٧

محمد وتعاليمه ٨٠–٩٧

الجانب اللاهوتي ٨١ ـ اليوم الآخر ٨٤ ـ الشعائر الدينية ٨٦ ـ الحج ٨٩ ـ الجهاد ٩٣ ـ نظـام الزواج ٩٥ ـ الرق في الاسلام ٩٦ .

الخلفاء الاربعة الاول ٩٨–١٤٤

ارتداد البدو ٩٩ – مسيلمة وسجاح ١٠٠ – فتح البحرين وعمان ١٠٣ – فتح حضرموت واليمن ١٠٤ – فارس في ظل الساسانيين ١٠٧ – سقوط الحيرة ، غزو فلسطين ١١٠ – موقعة اجنادين ١١١ – اليرموك ، خلافة عمر ١١٣ – القادسية ١١٤ – فتح الشام ١١٦ – فتح الجزيرة ١١٧ – فتح مصر ١١٨ – فتح فارس ١٢٢ – سياسة عمر ١٢٥ – مصرع عمر ١٣١ – عثمان والفتنة ١٣٣ – علي في العراق ١٣٧ – الحياة الجديدة في المدينة ١٣٩ – معركة صفين ١٤١ – الخوارج ١٤٣

الامويون ١٤٥–٢٠٧

معاوية وعماله في العراق ١٤٥ – سورية في ظل معاوية ١٤٨ – الصراع ضد البيزنطيين ١٥٠ – فتح افريقية ١٥٢ – يزيد الاول ، كربلاء ١٥٣ – ابن الزبير في مكة ١٥٤ – مروان الاول ، الصراع بين الكلبية والقيسية ١٥٦ – عبد الملك وثورة المختار ١٥٨ – هزيمة ابن الزبير ١٦١ – الحرب البيزنطية ١٦٢ – الفتوح في عهد الوليد ١٦٤ – الجامع الاموي بدمشق ١٦٨ – الحجاج يقاتل الخوارج وابن الاشعث ١٧٣ – بناء واسط واصلاحات الحجاج ١٧٦ – سليمان بن عبد الملك ١٧٨ – عمر بن عبد العزيز والاصلاح الداخلي ١٨٠ – الاصلاح المالي ١٨٢ – يزيد الثاني ١٨٣ – خلافة هشام ١٨٩ – ثورة زيد بن علي ١٩٠ – غزوات العرب في فرنسة ١٩١ – ثورة البربر ١٩٢ – الوليد الثاني ١٩٣ – الشعر والشعراء ١٩٤ – مروان بن محمد ، انحلال الامبراطورية ١٩٦ – ظهور العباسيين في خراسان ٢٠٠ – استيلاؤهم على العراق ٢٠٣ – نهاية الامويين ٢٠٥ .

فهرست الاعلام ٢٠٨

٩٦–٦–٤٨

DATE DU

LIBI

AUB LIBRARY

A U B LIBRARY

[redacted]
البعلبكي ،منير
تاريخ الشعوب الاسلامية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01051984

A. U. B.
DISCARDED
LIBRARY